# سيرة الملوك التباعنة

## في ثلاثين فصلاً

شوقي عبد الحكيم



الدار المصرية اللبنانية

# سيرة الملوك التباعنة

في ثلاثين فصلا

الناشـــر : الـــدار المصريـــة اللبنانيـــة

١٦ ش عبد الخالق ثروت ـ القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ برقياً : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ ـ القاهرة

رقم الإيداع : ١١٤١٢ / ٩٧

الترقيم الدولى : 977 - 270 - 307 - 6

جمع وطبع : عربية للطباعة والنشر

العنوان : ٧ ـ ١٠ شارع السلام ـ أرض اللواء ـ المهندسين

تليفون : ٣٠٣١٠٤٣ ـ ٣٠٣٦٠٩٨



الطبعة الأولى : ربيع آخر ١٤١٨ هـ ـ أغسطس ١٩٩٧ م .

صورة الغلاف والرسوم الداخلية الفنان : خميس شحاته .

# سيرة الملوك التباعنة

## فى ثلاثين فصلا

شوقى عبد الحكيم

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

## الجزء الأول

# الملوك التباعنة

خلال إقامتى فى بريطانيا التى امتدت نحو ثمانى سنوات ، كنت أتردد خلالها على مكتبة المتحف البريطانى ، عثرت على مخطوطة هذه السيرة الملحمية الكبرى « للملوك التباعنة » الذين ورد ذكرهم بالقرآن الكريم بضع مرات ، ولا نعرف عنهم شيئا ، إلى أن وقعت هذه السيرة بين يدى ، فعكفت على دراستها ، وتعرفت من خلالها على ذلك التاريخ الغابر لأقوام وكيانات وقبائل جنوب الجزيرة العربية فى اليمن ودول الخليج وعدن وحضر موت وسبأ وذى نسور ، لسير الملوك التباعنة الذين كانت لهم حضاراتهم الغابرة أو المندثرة ، جابوا ربوع الشرق الأقصى وأواسط آسيا ، ووصلت جحافلهم حتى تخوم الصين ، وأوصلوا التعريب إلى مناحى القارة الآسيوية ، متضمنة . . شبه القارة الهندية وأفغانستان ، والباكستان ، وتركستان وأذربيجان وبلوخستان ، وعشرات الكيانات الإسلامية التى تنتهى بما هو متعارف عليه بكلمة «ستان » داخل منظومة الاتحاد السوفيتى القديم ، كما نجدهم فى الشيشان وغيرها .

ومن هنا – وبلا جدال – كان التعريب أسبق من الإسلام ، بل هو الذى مهد الطريق له ليواصل فتوحاته وانتشاره فى المشرق والمغرب وعلى رأس من لعبوا واضطلعوا بهذا الدور هم ملوك التبابعة أو (التباعنة ) الذين كان يحلو للتبع منهم القول « قد دعتنى نفسى أن أنطح الصين » .

وبالفعل كان يعد الجيوش الزاحفة إلى تخوم الصين ، ويواصل فتوحاته داخلها ، وهو ما كشفت عنه الحفائر الأركيولوجية التى أثبتت بها لايترك مجالا للشك ، وصول تلك الأقوام العربية المحاربة إلى تلك البلاد الموغلة فى البعد ، والتى خلفت آثارها وتراثها الحضارى والإثنى فى هذه البلاد ، ويكفى القارىء معرفة أن من بين أولئك الملوك ( التباعنة ) ( بلقيس ملكة سبأ ) ومعاصرتها للملك الحكيم سليمان بن داود ، وهذا فى أحقاب لاحقة ، كما يكفى معرفة أن حضارات بكاملها كانت موجودة ومتعارف عليها حفرياً فى ربوع الشام وفلسطين ، وتعرف باسم (تدمر) وهو اسم إحدى الملكات اللائى ينتمين للملوك التباعنة فهى ابنة حسان اليمانى المتعارف عليه شعبيا باسم « ذو اليمنين » وهو ماكان يطلق عليه .

كما أن من بين أولئك الملكات المنتميات أيضا للملوك التباعنة الملكة المعروفة : (زانوبيا ) التى قاومت الامبراطورية الرومانية طويلاً إلى أن وقعت فى الأسر وسحبت كأسيرة هى وعرشها إلى روما فى حوالى عام ٢٠٠ قبل الميلاد .

أما آخر الملوك التباعنة فهو الملك ( ذواليزن) المعروف بسيرته الكبرى ، وكذلك ابنه الملك ( سيف بن ذى يزن ) وهذان الملكان بالذات لعبا الدور الأكبر فى التعريب داخل القارة الأفريقية ، بدءاً بمصر والسودان، أو بالأصح بدءاً بالقرن الأفريقى المتاخم لليمن وأثيوبيا والسودان ومصر ، وبقية ربوع القارة الأفريقية بشكل عام ، حتى إذا ماجاءت الفتوحات الإسلامية وجدت الأرض ممهدة لاستنبات وانتشار الإسلام فى القارة الأفريقية أو جانبها الأعظم الذى لم يندحر الإ مع بداية رحلات الاستكشاف الأوربية وماتبعها من رحلات تبشيرية ، وتحول بعض هذه البلدان والأقوام الأفريقية إلى المسيحية (١) .

كذلك ترد مأثورات التباعنة فى قصة أوفابيولة ( زرقاء اليمامة ) تلك الأميرة واسعة البصيرة والتى حذرت قومها من غزو الملوك التباعنة ، حين

---

(١) بدءا من القرن الثامن عشر .

صعـدت إلى أعلـى أبـراج المدينة وظلـت تهيب بقومها صارخة :

ياجديس ياقوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير

ياجديس ياقوم لقد مشت إليكم الأشجار وجاءتكم حمير

وبالفعل أنهى أولئك الملوك التباعنة حضارات وأقواماً أو كيانات سابقة ، مثل قبائل : عاد وثمود وجديس وطُسم والعماليق ورائش ، أى حوالى اثنتى عشرة قبيلة وكيان فنيت بكاملها من الوجود فى ذلك الوقت المبكر السابق للإسلام أو ما تعارفنا عليه بالجاهلية وإن كانت تلك الجاهلية تزخر بالعديد من الأحداث والحضارات والفتوحات الموغلة فى القدم ، وفى العصبيات والتطاحن العرقى والقبلى ، واعتبار الحروب والقتال، نوعا من الرياضيات القومية ، اتساقاً مع مقولة الأب السالف لهذه الأقوام الحميرية ، وهو يعربُ بن قحطان – أو يقطان – أبو العرب أول من تكلم العربية :

– أيها الناس إن لم تقاتلوا الناس قاتلوكم

وإن لم تسبوهم سبوكم .

فقاتلوهم قبل أن يقاتلوكم .

فليس جمع خيراً من جمع ، ولكنْ جد خير من جد .

***

وفى الجزء الثانى من هذا الكتاب ، نتعرض لآخر الملوك التباعنة وهما الملك ذو اليزن وابنه الملك التبع سيف بن ذى يزن .

فلقد لعب الملك (ذو اليزن ) وابنه الملك سيف الدور الهام فى التعريب داخل ربوع القارة الأفريقية ، وتذكر سيرتهما أن كلامنهما كان يبحث عن «كتاب النيل » وهو مايمكن أن يكون مرادفاً للبحث عن منابع النيل ، ذلك أنهما كانا متفوقين إلى أقصى حد فى تلك الفترة الموغلة فى القدم بالنسبة للسدود المائية والتحصينات الزراعية ، ويكفى

أن نعرف أن سد مأرب كان واحدا من بين ثمانية وثلاثين سداً منتشرة فى ربوع اليمنين وبلدان الجنوب العربى ، فقد كانت حضارة زراعية هائلة بما يسر لها من الحركة والتجوال والفتوحات ، وخاصة وأن هذه البلدان أيضا هى التى كانت تشكل الجنوب العربى ، وكانت بلدانا أو شعوبا ذات صفة بحرية نتيجة لوقوعها على بحر العرب أو الخليج العربى ، واتصاله بالمحيط الهندى . من هنا كان يطلق عليهم « فينيقيو البحر الجنوبى »(٢).

فإذا ما كان هناك فينيقيو البحر الأبيض المتوسط فى الشام وفلسطين فأولئك كانوا فينيقى البحر الجنوبى وكانوا كشعوب بحرية - تمكنوا من التوغل فى ربوع آسيا الوسطى والشرق الأقصى حتى تخوم الصين ذاتها . والأكثر أهمية مايذكره التاريخ - المندثر - لأولئك الملوك « التباعنة » أن سبعة فراعنة خرجوا منها وحكموا مصر (٣).

ولعلنى أسوق افتراضاً بسيطاً لا أعرف بالتحديد مداه وهو أن باليمنين والجنوب العربى وعمان ، توجد جبال نحاس هائلة ، فهم يمتلكون إلى اليوم أكبر احتياطى نحاس فى العالم كله ، بمعنى أن العالم يمتلك جزئية صغيرة ولكن الغالبية العظمى لاحتياطى النحاس فى العالم مازال موجودا فى اليمنين والجنوب العربى ، بما ستكشف عنه الأبحاث المستقبلية ، وهو ماكان يساعد على صناعة الأسلحة المستخدمة فى ذلك الوقت من سيوف وخناجر ماتزال ماثلة إلى الآن . (٤)

خلاصة القول أن هؤلاء الملوك « التباعنة » هم أسلاف حضارة أكثر سبقاً وهى حضارة قحطان أو يقطان كما يذكر فى العهد القديم ، هى حضارة لاأغالى إذا ماقلت : إنها انتقلت مبكرا ربما منذ الألف الثانى قبل الميلاد إلى أمريكا الوسطى والجنوبية وعرفت بنفس الاسم فيما بين

---

(٢) أى شعوب وكيانات البحر الجنوبى .

(٣) وهو ما يرد ذكره فى سيرتنا .

(٤) كشعار طوطمى .

المكسيك وبيرو ، والملفت للنظر أن بها معظم الجسد الشعائرى والعقائدى والفولكلورى أو التراثى - بعامة - للعرب ، كما أن بها أهرامات يبدو أنها نقلت بكاملها من مصر ، وربما هذا ما دعا أحد المستكشفين أو الرحالة النرويجيين منذ حوال عشرين سنة إلى محاولة إثبات كيف انتقلت هذه الحضارة وبخاصة أهرامات مصر إلى أمريكا الجنوبية ، وكان المقصود بها حضارة قحطان أو يقطان أسلاف الملوك « التباعنة » .

إما بالنسبة لسيرتنا عن هؤلاء الملوك فتبدأ بإعداد الملك التبع «أسعد اليمانى » لتسعة ملوك متحالفة تحت إمرته مثل أجاممنون فى حرب طروادة متخذا قراره القائل : ( قد دعتنى نفس أن أنطح الصين ) .

وهكذا واصل الزحف كملك الملوك - أجاممنون - إلى تخوم الشرق الأقصى والصين، إلا أنه وقع فريسة لخيانة أحد ملوك الصين ، الذى أوعز إليه بالمساعدة وتعرف الطرقات والمسالك ، بينما كان يضمر له خيانة كبرى أوقعت به وبجيوشه فى الكثير من المآزق والخسائر حتى إنه فقد أربعة من أبنائه فى تلك الغزوة ، اعتاد كل مساء أن يُحضر رؤوسهم على صينية من الذهب الخالص مغطاة بالرماد ويظل يبكيهم نادباً قبل أن يأوى إلى فراشه .

وعندما تعرف على خيانة الملك الصينى استقدمه وقطع لسانه من دابره ثم وضعه فى قفص ضخم من الذهب الخالص وأجلسه مقربا من مجلس حكمه كما كان يتعامل معه من قبل فى كل اجتماع من اجتماعاته حتى مجالس حربه ليصبح بلا فائدة تذكر ، فلا يتكلم أو ينطق وجعل منه عبرة للخيانة على هذا النحو ، إلى أن قرر مجلس حربه العودة بالملك التبع أسعد اليمانى والانسحاب من مجاهل الصين والرجوع إلى اليمن والجنوب العربى .

وقبل أن توافى المنية ذلك التبع المتجبر أسعد استقدم ابنه التبع الذى سيخلفه على عرش حمير وعلى عرش التباعنة وهو « حسان اليمانى » الذى عرف فى الوجدان الشعبى من المحيط إلى الخليج بذى اليمنين . قائلا له :

لاتضجعونى فيضطجع ملككم ، بل ادفنونى واقفا ليظل ملككم شامخا .

وهكذا دُفن ذلك التبع السلف أسعد واقفا فى أعماق الصخر .

وعادت الجموع إلى عدن وسبأ وذى النسور وحضر موت بعد أن وزعت الغنائم التى أشرفت عليها الكاهنة الأم الكبرى أو قائدة الجيوش التى كان لها ثلث المشورة ، كما هو متفق عليه بالنسبة للكاهنات المحاربات كأثينا فى حرب طروادة ، والجازية فى حروب الهلالية ، وهى ( البسوس ) .

وحين مات استدعت البسوس حسان بن أسعد ليكمل مشوار التبع والده ، بضرورة الالتزام بوصيته وهى الذهاب إلى كاهنة «جبل ضهر» وتنفيذ كل ماتشير عليه من مشورة قائلة : فى كل ماتشير عليك به كاهنة جبل ضهر اسمع لقولها . حتى إذا ماذهب إلى كاهنة جبل ضهر بادرته قائلة : لقد تأخرت كثيرا . . فقال : عن ماذا ؟ قالت : عن حكم حمير، فمن مغارة جبل ضهر هذه خرج سبعة فراعين عظام حكموا مصر ، وأجلسته على كرسى من الذهب الوهاج مغطى بالحيات والعقارب قائلة له آمرة : اجلس . فجلس ، وأشارت عليه بقتل أول من يصادفه حين خروجه من باب مغارتها خارجاً ، وكان أول من صادفه هو أخوه الوحيد المدعو« عمرو ذو الأزعار » إلا أنه تردد فى قتله وأصابته حمى حاوطته إلى أيام وما إن فاق منها حتى احتضن أخاه عمرو ووضع خنجره فى جنبه وقتله .

وهكذا حكم ذلك التبع حسان اليمانى ولقبه ذو اليمنين حمير وتوابعها، واتخذ وزيرا له اشتهر بالحكمة والعدل يدعى ( يثرب ) فقربه منه إلى أن استقدمه ذات مساء وأنشد قائلا :

يقول التبع اليمنى المسمى بحسان فما للقول زورا
ملكت الأرض غصبا واقتدارا وصرت على ملوك الأرض سورا

وطـاعتنـى الممالـك والقبائــل وفرسـان المعـامـع والنســـورا
ولقد أُخبرت عـن بطـل عنيـد شـديد البـأس جبـارا جســورا
وقـالــوا إنـه يـدعـى ربيعــة ميـر قـد حـوى مـدنــا ودورا
تولى الأرض فى طـول وعـرض فكم أخرب وكم شيد قصـورا
فقصـدى اليوم أغزوه بجيشى وأتــرك أرضـــه قفــرا وبــورا
أسير بهم إلـى تلك الأراضـى وأمـــلك للقـــلاع وللقصـــورا
ويبقى الحكم لـى بـراً وبحـراً ويصفى خاطرى بعد الكـدورا

وهكذا أمر ذلك التبع حسان بدق الطبول النحاسية العملاقة المعروفة لدى «تباعنة» اليمن « بالرجروج » وهو أعظم الطبول ، كان يدقه عشر من العبيد الفحول وهو من صنعة ملوك التباعنة العظام ، وهكذا سار بالجيش إلى أن افتتح الشام وفلسطين .

وكما هو معروف تتشابك أو تتزاوج – هذه السيرة المندثرة على طول البلدان العربية ، والتى لم أعثر لها على أثر خلال سنوات جمعى للمأثورات الشفهية والسير على مدى أربعين عاما ، مع سير أخرى سوى فى مخطوطة مكتبة المتحف البريطانى تتشابك مع سيرة أخرى تؤرخ لحرب البسوس القبائلية الشهيرة ، التى امتدت ٤١ عاما على طول ربوع لبنان والشام وفلسطين .

أما الجزء الثانى من هذه السيرة فيتضمن تاريخ آخر التباعنة ، وهو الملك ذو اليزن وابنه الملك سيف .

**شوقى عبد الحكيم**

القاهرة : يوليو ١٩٩٦



# 1

## غروب التبع أسعد اليمانى فى الصين

حين استشرى السقم والمرض بالملك – التبع – أسعد اليمانى ، الجد السالف للملك سيف بن ذى يزن وهو يغزو بجيوشه المتحالفة الجرارة تخوم الصين آثر أمراؤه وقادة فيالقه الاجتماع والتشاور فى ذلك المصاب الفادح الذى نزل بملكهم التبع أسعد ، ومضى يمتص منه رحيق حياته يوما بعد يوم ، حتى إنه لم يعد يقوى على القيادة والمنازلة واتخاذ القرار ، ومواصلة الزحف المتلاحق لافتتاح المدن على طول غرب آسيا وأواسطها مرورا ببلاد الهند والسند وأذربيجان والتركستان ، إلى أن وصلت جيوشه العربية إلى أعلى تخوم الصين .

وكان لا يكف لحظة عن معتقده الدفين الراسخ المتوارث عن جده الأعلى قحطان :

**– أيها الرجال . . إنكم إن لم تحاربوا الناس حاربوكم ، وان لم تغزوهم غزوكم . لا مكان لمغلوب على ظهر هذه الأرض وماعليها من بشر ودواب .**

الآن لم يعد الملك – التبع . . . يقوى على مجرد الكلام ، بل لقد ثقل لسانه وبردت أطرافه ، ولم يعد يشير إلى نبض الحياة فيه ، سوى حدقتى عينيه الجاحظتين اللتين تتحركان فى ريبة واستطلاع لكل مايحيط به وهو راقد على فراشه ، حتى لوجهى ولديه «عمرو وحسان» .

وإن حدث ونطق لسانه سوءاً ، تعبيرا عن غله وحقده الدفين ، نطق باسم ذلك الملك الصينى الذى اتخذه دليلاً ، يقوده وجنوده داخل مجاهل بلاد الصين . فكان أن

غرر به الدليل الحليف إلى أن أفقده طريقه وهدفه وأضاعه داخل تلك البلاد المترامية ، بوهادها وجبالها الشاهقة وأنهارها وصحاريها الجرداء :

**- ذلك الدليل الأسيوى الخسيس .**

ورغم أن التبع حسان ، أدرك بنفسه فى نهاية المطاف خيانة حليفه ، فأوقع به انتقامه على مرأى من قومه وقبائله وزوجاته وجواريه وأبنائه ، وذلك بأن استقدمه ذات ليلة وواجهه بادعائه وخداعه ، وما انتهى إليه أمر الجيش العربى .

وحين أسقط فى يد ذلك الملك الدليل المتآمر ، وحاول معاودة الدفاع عن نفسه ، استل التبع حسان من فوره خنجره من وسطه وتقدم منه على مرأى من الجميع ، واستخرج لسانه من فمه وقطعه عن آخره بخنجره المشرع :

**- الآن أريحك من هذا اللسان الكاذب .**

ولم يكتف بهذا ، بل إن التبع اليمنى سجنه داخل محفة أو قفص من الفولاذ للحكم وأمر حرسه وحجابه بوضع القفص إلى جانب قاعة عرشه ، وهو بداخله حى يرزق يرقب ويعى مايحدث من اجتماعات وخطط - كما كان فى السابق - دون أن ينطق بكلمة . . . بحرف .

ومن هنا اكتفى الملك أسعد بمراقبة تعبيرات وجهه وهويسمع ويرى مسار الخطط الغازية لبلاده ، دون أن يقوى على النطق والحركة . بعدها ساءت حالة الملك وحل به السقم هو بدوره ، من صديقه الصينى الحميم الذى أولاه كل ثقته ، ولم يحصد منه سوى الخيانة والمرارة والضياع فى مجاهل هذه البلاد سنوات طويلة .

**- أهكذا يصنع بالصديق !**

فكثيرا ماكان التبع أسعد يمضى يشاركه طعامه وشرابه وحدهما داخل قاعة عرشه ، كما كانا سابقا ، وقبل افتضاح أمره ، طارحا عليه كل مايعن له من أمور حقيقية سائلا :

**- مارأى صديقى ؟**

متلقيا إيماءاته من داخل سجنه وأصفاده متلمسا بنفسه صحة أقواله أو إيماءاته مدركا خسيسها من أصيلها ، وله طبعا القرار الأخير .

فحتى الخرائط ومسار المعارك ومعالم الطرق والمسالك والبلدان ، كان يدفع بها إليه ، طالبا مشورته و إشاراته :

**- لعلنى أصبحت أعرفك أكثر فأكثر عن طريق اكفهرارك قبل لسانك أيها الصديق الوفى . . الأخرس .**

ويبدو أن كل ذلك ، لم يكف غليل التبع أسعد ، وهو الذى أخلص له ، منذ أن جاءه مخلوعا ذليلا ينزف كمدا مما فعله به ملوك الصين ، فكان أن احتضنه ورد إليه ملكه وكامل سلطاته وممتلكاته وبلاده ، وقربه منه السنوات الطوال قبل أهله وعشيرته ومستشاريه ورؤوس القبائل : بل وحتى ولديه عمرو وحسان .

إلى أن تكشف له وجهه - وجه الصديق الذى قاده إلى متاهات الصين ، كمثل غريق ، تودى به رياح السموم الهوجاء إلى الغوص فى رمالها ، هو وجنوده وقادة فيالقه بل وأربعة أمراء من أبنائه . . فلذات كبده :

- أهكذا يصنع بالصديق .

حتى إذا مااستفاق التبع المتجبر الغافل لما حل به ، واستدار مستطلعا وجه الصديق الحليف الدليل ، كان قد أضاع أخلص رجاله وجيشه وأولاده الأربعة .

وهكذا حطت عليه الهموم الثقال ، فكان يأمر حجابه بإحضار رؤوس أبنائه الأربعة على أربعة أوعية على شكل صوان مصاغة من الذهب الإبريز ومغطاة بالرماد الذى تعتليه الرؤوس باكيا متحسرا على مرأى من الصديق :

**- واندماه !**

وهكذا تهاوى التبع أسعد نهبا لأحزانه الدفينة ، حتى إنه - وعلى حد قول المقربين منه ، ومنهم ماتبقى من ذريته ، عمرو وحسان - لم يعد يقوى على إتيان الفعل ومعرفته :

- أين نحن ؟

ومن هنا جاء اجتماع الأمراء التسعة الذين كانوا تحت إمرته ، مطالبين بضرورة عمل شيء للخروج من ذلك المنزلق القاري الذى لاقبل لهم به ، ولو استدعى الأمر ضرورة الانسحاب والعودة إلى ربوع اليمن ، مادام الملك - الغافل - أصبح لايعى مجرد موقع جيشه من بحار بلاد الصين المتلاطمة ، ومادامت الخسائر أصبحت تلاحقهم من كل حدب وصوب ، « بل وتنشق الأرض عليهم انشقاقا كل مطلع فجر وغروب » .

حتى إذا مااستقر رأى الأغلبية على ضرورة الانسحاب والعودة إلى جزيرة العرب وربوعها شمالا وجنوبا ، لم يجد ولداه - عمرو وحسان - بُدًّا من تأييد قرار العودة ، ودون حاجة لأوامر التبع السقيم المريض .

فالأكثر حكمة فى مثل هذا القرار ، هو إنقاذ مايمكن إنقاذه من مغانم تلك الحروب القارية التى طال أمدها فى ربوع آسيا الوسطى والأناضول حتى مداخل الصين ، والعودة بها إلى اليمن وجزيرة العرب .

كما أن الأكثر أهمية هو تقبل الأمر الواقع باحتضار « التبع المتجبر » لدفن جثمانه واقفا أو منتصبا حسب وصيته بين رفات أجداده التباعنة ، كما أشار فى وصيته :

- لاتضجعونى فيضطجع ملككم ، بل ادفنوني واقفا ليظل ملككم شامخا .

ومن هنا أُعِدَّت المراكب تمهيدا لرحلة العودة إلى ربوع جزيرة العرب وموانئها البحرية . فسيقت وحملت الغنائم والأسلاب ، وحمل التبع الراقد بعرشه ورؤوس أبنائه القتلى وأسراه ، وسجينه الملك الأسيوى مقطوع اللسان إلى ظهر السفن دون إعلامه «بقرار العودة والاندحار المفاجىء » .

وأقلعت السفن عائدة باتجاه المحيط الهندى وبحر العرب ، يسبقها الرسل إلى ربوع الجزيرة العربية وكياناتها شمالا وجنوبا ، إلى حضر موت وعدن وسبأ والحجاز وذى نسور .

فأقيمت الأفراح والزينات لاستقبال الرجال من المحاربين وعلى رأسهم التبع اليمنى الغازى أسعد وولداه عمرو وحسان .

وهكذا أفلح الجميع فى إخفاء تحركات الجيش المنسحب العائد عن التبع القائد رأس التحالف القبائلى العربى ، إلى أن حطت السفن رحالها على شواطىء بحر العرب ، وخرجت الجموع المنتظرة من زوجات وأمهات وأبناء وعجائز لاستقبال الرجال العائدين . حينئذ أدرك التبع الراقد ماحدث .

فما كان منه إلا أن حل وثاق صديقه وأسيره الملك الآسيوى مقطوع اللسان وأكرم وفادته هو وأهل بيته :

- أنت الآن ضيفى . . أيها الصديق .

وما أن انتهت مراسم توزيع الغنائم وأسلاب الحرب الطويلة المضنية على رؤوس القبائل والعشائر والكيانات المشاركة التى أشرفت عليها الأميرة « البسوس » أخت التبع المريض ، حتى تفاقمت حالة الملك الصحية .

حتى إذا ما أدرك هو بدوره - أى التبع - مدى اقتراب منيته ، استدعى ابنه الأكبر حسان ، ومضى يتطلع فى وجهه طويلا مسرا إليه فى ضعف بوصيته الأخيرة قائلا :

**- اذهب إلى جبل « ضهر » بالقرب من صنعاء وأطرق باب سيدة الجبل بكهف «بنور » ، وأبلغها باقتراب منيتى وموتى**

تنهد التبع طويلا فى إعياء ، وهو يجاهد فى إطلاع ابنه الأكبر حسان اليمانى على وصيته الأخيرة ، وكان قد اصطفاه ليخلفه على عرش التباعنة - ملوك اليمن العظام - من بعده :

**- لاتخبر أحدا بما تسمعه أذناك منى ، قبل أن تجتمع بسيدة جبل ضهر .**

أشار مهددا بطرف إصبعه :

**- وفى كل ماتقوله لك . . اسمع لقولها .**

بدا وجه الملك التبع الوالد أسعد ، لابنه حسان واهنا متحسرا كئيبا تحت أنوار الشموع والقناديل .

ظهر له كمن يندب حاله وانقضاء أجله وهو يتمتم لنفسه :

- كل شيء احتلنا عليه . . إلا الموت . . غلبنا .

وحين حاول حسان الاقتراب أكثر لإزاحة رأس أبيه ، اعترضه الأب مشيرا عليه بلهجة التأكيد :

-اسمع لقولها .

وهو يعني بذلك سيدة جبل « ضهر » .

أومأ حسان لوالده منسحبا . مستديرا باتجاه باب القاعة ، لتقع عيناه على شقيقه الأصغر « عمرو » الذى بدا مأخوذا مكفهرا من هول احتضار الوالد التبع .

توقف حسان فى مواجهته كمن يستطلع تعبيرات وجهه قائلا لنفسه :

« أتراه كان يسمع متلصصا ماجرى بينى وبين أبينا »

وحين حاول عمرو الإفلات من نظراته والدخول مستطلعا حالة أبيه ، اعترضه حسان مستديرا مشيرا إلى غطيطه الذى ارتفع شخيرة قائلا له :

- دعه . . ينام .

وهنا اندفع الأمير حسان كالتائه الغائب عن وعيه ، من هول تلك اللحظة التى أنها دهر بحاله والتى أنصت فيها إلى وصية والده « التبع المتجبر » متجولا وحده داخل دهات القصر الشاهقة ، مبعدا عنه كل من حاول الاقتراب منه مستفسرا عن حالة الملك من أمراء وشيوخ قبائل ومستشارين .

كان كل مايشغل بال حسان ويستولى على كل فكره وخلجاته ، تلك المهام الجسام التى ستلقى على كتفيه والتى تتهاوى تحت ثقلها هامات أعلى الجبال قبل الرجال ، وهى أن ينام الليل ويصحو ، آخذا مكان أبيه فى قيادة تلك الجموع المتنافرة ، من قبائل وأقوام ، وأن يقتل ويغتال فى وضح النهار دون أدنى رحمة .

تساءل !

- كيف ؟

وهو الذى حاول جاهدا طويلا الابتعاد عن شهوة الحكم والتسلط ، منشغلا بقراءاته وأسفاره البعيدة . . لكن دون طائل .

أعاد مسترجعا كلمات أبيه ، وذلك الوجه القبيح الكئيب ، لسيدة جبل ضهر . كيف له أن يسلم أمره أو قياده لامرأة متوحشة قاسية الملامح ، تقبع داخل كهفها أو جحرها كمثل حية رقطاء ، « تتغذى بمخ البشر » ، كما يقولون .

وكيف له أن يتقبل وصاياها ونصائحها :

- كارثة .

وقبل أن يفيق حسان من طلاسم أفكاره كانت الأصوات النائحة قد ارتفعت من كل جنبات القصر تندب موت والده التبع أسعد .

وعلى الفور دوى قرع الطبول العملاقة من خارج القصر وأعلى سفوح الجبال المحيطة معلنة موت الملك التبع أسعد . وكان صدى دوى الطبول يتردد فى كل مكان كالهدير .

وسرى الخبر كالنار فى الهشيم من مدينة إلى أخرى ، ومن مضارب قبيلة إلى مايجاورها ، فارتفعت أصوات النساء النائحات وعقدت اللقاءات بين شيوخ القبائل وأمرائها ، وارتفعت أصوات المنشدين بالأشعار الجنائزية التى تتحدث عن مآثر التبع الراحل وطموحاته وفتوحاته التى لم تفت فى عضدها سوى الخيانة التى تعرض لها من ذلك الدليل الأسيوى . يل لقد وصل الحماس والحنق ببعض الأمراء وشيوخ القبائل . إلى حد المطالبة بإحضار ذلك الدليل الأسيوى - مقطوع اللسان - والانتقام منه علنا وعلى رؤوس الأشهاد :

- اقتلوه . . اقتلوه !

وهنا تدخل الأمير الوريث « حسان » حائلا فى حزم من وصول الجموع الثائرة التى امتلأت بها ساحات القصر إلى مطمورة ذلك الدليل الأسيوى لتصب عليه نقمتها دون رحمة ، صارخا بها :

– ارجعوا . . حذار .

فما فائدة الانتقام ، بعدما نفذ المكتوب وأصبح الملك التبع جثة مسجاة ستوارى الثرى بعد لحظات .

بل إن الأمير حسان عاد مذكرا الجموع المتزاحمة الغاضبة بمدى ما لحق بذلك الدليل الأسيوى سلفا من عقاب ، مشيرا إلى إقدام والده الراحل على جز لسانه فى إحدى نوبات غضبه منه ، صارخا ! – يكفى الآن ماهو فيه . أما الآن فهو ضيف حمير . . أتسمعون ! .

# 2

## وصية كاهنة الجبل

اتخذ الملك التبع الجديد حسان وجهته ذات مساء إلى جبل « ضهر » مكدودا نهبا لخواطره المتضاربة . - كانت أضواء المصابيح والشموع المشعلة تضىء سفوح الجبل العملاق ، الذى تغطت متعرجاته وسفوحه وتضاريسه بالمضارب والخيام ، يؤمها أتباع تلك السيدة -سيدة الجبل- من مرضى ومجاذيب ومعلولين .

وكانت جوقات الغناء الجماعى ذات المسحة الدينية الشعائرية تعلو من هنا ومن هناك ، وهم يستخدمون فى غنائهم وإنشادهم إيقاعات الدفوف الطاغية المثيرة لكل المشاعر الجسدية ، حيث تتمايل عليها الجموع ميمنة وميسرة فى غياب كامل عن كل وعى ، وهى الجموع من سكان ذلك الجبل ، من فقراء وأتباع ومعلولين ومشعوذين ودراويش ومرضى .

وما أن واجه حسان الجبل ، حتى توقف بحصانه ، لايعرف أى المسالك يسلك .

وأخفى من فوره وجهه بشاله مبعدا ملامحه عن العيون المستطلعة وأطلق العنان لحصانه راكضا من حول الجبل المائج بالحركة والغناء والحياة .

استوقفته فى بعض الأماكن أصوات ذلك البكاء والعويل على أبيه التبع الراحل مشيرين إلى فرسه الحمراء :

**كأنك « ياحمرا » بتصيرى**

تحت رياح الندابات .

غاب اللى يعرف مقدارك

يملأ لك لحد عبارك

وان خست من القمح يزيدك .

وما إن تلمس طريقه المؤدى إلى حيث مغارة تلك السيدة المتشية بالدم ، حتى مضى من فوره صاعدا لا يلوى على شىء إلى أن توقف مستطلعا ودخل المغارة الموحشة الحجرية ، المحاطة بالتماثيل الرخامية والمرمرية العملاقة ، كمثل معبد شاهق .

ترجل عن حصانه ، وتقدم منه على الفور من اقتاد الحصان إلى طاولته وربطه مقدما له الطعام فى صمت وقور .

واستغرق التبع حسان طويلا فى تأمل تلك المنحوتات التى صيغت من نفيس الأحجار الصلدة نصف الكريمة ، لمعبودات وثنية ورموز وأشخاص ، تعرف فيها على جدوده التباعنة اليمنيين الذين حكموا طويلا تلك البقاع . تعرف على « شداد بن عاد الكبير » وعلى « يشجب بن يعرب بن قحطان » ، وعلى الكثير من تماثيل والده التبع أسعد بالذات .

ودمعت عيناه حين شاهد منحوتات إخوته الأربعة الذين أودت بحياتهم تلك الحرب الأخيرة المشؤومة فى ربوع الصين والشرق الأقصى ؛ فكان موتهم السبب الرئيسى فيما حل بأبيه من أحزان ثقيلة عاتية ، أنزلت ببصره وجسده السقوم ، خاصة حين كان يجيء برؤوسهم – المحنطة – المحفوظة ، على أوعيتها الذهبية ، ويتأملهم فى حسرة نادما باكيا ، الليلة بعد الأخرى ، حتى إذا نام تحاصره الأحلام والكوابيس دون مهرب . واشتدت عليه أحزانه وأسقامه حتى أودت بحياته قبل الأوان .

وتهاوى حسان جالسا ، وهو يرقب منزلق ذلك الجبل الهائل الذى تبدت له نيرانه المشتعلة على طول سفوحه وأخاديده كجمر هائل متقد :

– ياها من ليلة . . جحيم !

غمغم لنفسه مكتئبا آخذا رأسه بين ساعديه الاثنتين فى حيرة :

- الجحيم بعينه . . حكم حمير .

وكان قرع الدفوف العملاقة وأنين الرباب يصم أذنيه الاثنتين . وبدا المكان موحشا إلى حد دفع به دفعا إلى تحسس حسامه وخنجره ، تأهبا للدخول :

- تلك المرأة اللغز !

طالعته من جديد منحوتات إخوته الفرسان الأربعة الذين التهمتهم نيران الحرب الأخيرة المسعورة الواحد عقب الآخر ، كمثل عقد منفرط :

- الرحمة !

ومالإن تحرك منفلتاً داخلاً إلى أغوار ذلك الكهف الرطب ، حتى طالعته صورته المنعكسة على جدرانه الحجرية المشطوفة التى صيغت من نادر الأحجار الملونة والنفيسة، مابين المرمر الأملس كمثل مرايا عاكسة ، واليشب والعقيق والسليمانى والياقوت الشديد الاحمرار .

تبدى له وجهه وهيئته منطبعة عبر مئات المستنسخات ، التى لم تكن أبدا تعكس حالته الآنية ، بل عبر آلاف مؤلفة من الانفعالات والتبديات التى لم يكن يعرفها أو يشهدها من قبلُ فى نفسه :

-غرائب !

وسريعا ماانفتحت تلك المغارة المتعرجة المسالك والدروب التى تغطت جدرانها بالرؤوس البشرية الحقيقية المسمرة بالجدران ، والتى لايزال بعضها يقطر بها يشابه الدم الأحمر ، كما لو أن حادث قتلهم قد وقع لتوه ، غمغم حسان لنفسه متسائلا :

- أسرى !

بل إن أصوات العواء والنحيب والتوسل ، من داخل ردهات الكهف ذاته وصلت مسامعه ، طاغية على أصوات الدفوف العملاقة الخارجية .

توقف ملتاعا مأخوذا ، إلى أن جاءه صوت المرأة :

– حسان ؟!

– أجل !

– تأخرت طويلا !

اندفع داخلا لايلوى على شىء ، إلى أن وجد نفسه داخل بهو فسيح لايحده البصر، أحالته ألسنة النيران العملاقة إلى نهار جلى واضح المعالم والتفاصيل .

وفى آخر المكان انتصبت المرأة كمثل عملاق وقد تناثرت جدائل شعرها العسجدى الضارب إلى الحمرة حتى ليكاد يغطى جسدها كله ، واقفة على شبه درج يقود إلى عرشها الباهر الذى لايقل كثيرا عن عروش التباعنة ذاتهم ، بيدها مغرفة ، ومن هنا وهناك تخالطت روائح الشواء مع البخور المعبق داخل المكان :

– أقول تأخرت كثيرا .

نطق سائلا :

–تأخرت عن ماذا ؟

أجابت بصرامة :

– عن حكم حمير .

قال :

– انا الآن تبع حمير .

عاجلته نازلة عن صرحها فى حزم :

–لن تحكم حمير إلا إذا سمعت كلامى ونفذته بكل دقة ياحسان بن أسعد .

وما أن اقتنصت عيناها الواسعتان عينيه فى وقفته حتى اعترته رعدة هائلة من قمة الرأس حتى أخمص القدم :

ـتعال .

تقدم منها طائعا كمثل منوم ، إلى أن توقف مطرقا وهى تسر إليه :

- تذكر جيدا أنه من هنا ، من مغارة جبل ضهر « خرج سبعة فراعنة عظام حكموا نيل مصر وديارها » .

أصم العواء الطاغى الذى لم يكن يعرف له مصدرا أذنيه من جديد :

- أحقا !؟

وحين قاربته المرأة أحس دفئا يشيع فى جسده وأطرافه ، وأحس بها مثيرة فى فرائها الأحمر القانى محاطة بألسنة لهبها وطلاسمها :

- اجلس .

أشارت إلى كرسى بديع التكوين جانبا ، وهاله أن الكرسى يعج بمئات الثعابين والحيات المنتصبة على قوائمها ، وقد انفتحت أفواهها وحلوقها ، وتمددت ألسنتها ، كمن تعانى جوعا هائلا منذ دهر :

- اجلس .

تراجع مأخوذا من هول المفاجأة غير المتوقعة التى واجهته بها تلك المرأة الدموية اللغز :

-أين ؟

- هنا على كرسى التباعنة العظام .

استدار من جديد مبتعدا متحسسا مقبض سيفه ، فى ذات اللحظة التى خطت فيها المرأة جالسة بكل ثقلها على الكرسى نفسه وفوق رؤوس الحيات الجائعة الزافرة ، التى خف فحيحها مستحيلا إلى مثل خوار خافت :

- اسمع جيدا ماأقول ياحسان بن أسعد .

جاءه صوت أبيه المحتضر محذرا بطريقة لم يعهدها من قبلُ فيه ، وكانت تلك آخر كلماته :

- فى كل ماتقول لك سيدة الجبل . . اسمع جيدا :

تساءل غير مصدق :

- ماذا يحدث ؟

عم صمت طويل ، بدا فيه وكأن المرأة - الكاهنة - تستعرض أمامه قدرتها المعجزة غير العادية فى الجلوس على الكرسى الملىء بالحيات أمامه وأكداس حليها الذهبيةاللامعة ، تضوى وتلمع كمثل جمر متقد على أسطح جسدها البرنزى القائم : جيدها . . ذراعاها ، خلاخيلها .

بل إن ماضاعف من اندهاش التبع حسان . هو استسلام تلك الحيات منتصبة الرقاب ، فاغرة الأفواه لجلستها على هذا النحو المشع بكل جسارة وتحدٍّ .

- ماذا يحدث ؟

تساءل بينه وبين نفسه ، فى ذات اللحظة التى اعتدلت فيها المرأة على ذلك الكرسى - المرعب - الذى ادعت منذ هنيهة بأنه « كرسى التباعنة العظام » وأنه ما من حاكم لحمير ، توانى عن الجلوس عليه على ذات رؤوس الثعابين والحيات .

- اسمع جيدا لما أقول :

من جديد اختلط صوتها ، بوصية أبيه الواهنة له ، والتى ربما كانت آخر مانطق به من كلمات قبل أن يغمض عينيه ، تائها فى غيبوبة احتضاره إلى أن تلاشى عن الوجود :

- فى كل ماتقول لك سيدة جبل ضهر . . اسمع لقولها .

مضت توغل فى تأمله طويلا صامتة ، ومتشاغلة بتلميس رؤوس حياتها بكف يدها . . فى حنو .

- تقدم ياحسان بن أسعد .

انتصبت من جديد واقفة متجهة إليه جاذبة فى شبه أمر :

- اجلس . . قلت اجلس!

تهاوى من فوره جالسا على الكرسى الذى تهاوت رؤوس ثعابينه متراجعة مستسلمة منكسرة . بينما دفعت له المرأة بإناء ليعب مابه من شراب :

- اشرب .

وقبل أن يفرغ الإناء فى جوفه عاجلته قائلة :

- اقتل من فورك أول من تصادفه ، حالما تتخلى عنى خارجا من هذا المكان .

انسل حسان ينزف عرقا ، مستندا بجدران المغارة ، بينما طالعته صور وجهه على الأحجار البلورية ، أكثر وحشة وتشويها حتى إذا ماقارب مدخل المغارة ، استل من فوره خنجره من غمده متقدما من أول من صادفه متسللا داخلا :

- من ؟!

ووصلت دهشته أقصى مداها حين ارتفع ساعده مشيرا محذرا صارخا :

-أنا عمرو . . أخوك . . ياحسان . . احذر !

اندفع منسلا خارجا باحثا عن حصانه ملقيا بجسده بكامله فوقه ، مطلقا له أقصى عدوه نازلا عن ذلك الجبل المشؤوم . بينما طرقات الدفوف العملاقة تحاصر سمعه ، كمثل طبول رجروج أو طبول حرب همجية مستعرة .

ما إن أفاق حسان من تلك الزيارة - الكابوس - وأحداثها ، تنفيذا لوصية أبيه التبع الراحل ، حتى غمغم طاردا عنه تصوراته وهواجسه المرعبة السوداء :

- لا . . لا .

حتى اندفع داخلا عابرا ردهات قصره باتجاه غرفة نومه ملقياً بنفسه بكامل ملابسه ودروعه على فراشه محموما مغمغما :

-أقتل آخر من تبقى من إخوتى عمرو شقيقى . . حدقة عينى ؟!

تسللت إليه ابنته الوحيدة المقربة « تدمر » التى اعتاد استشارتها فى كل صغيرة وكبيرة، فجذبها فى حدة محتضنا إياها مسرا إليها بأحداث تلك الزيارة الموجعة التى نفذها بكل الدقة حسب وصية الوالد الراحل ، إلى أن وصل بها إلى حد إقدامه - منذ هنيهة فقط - على قتل أخيه الوحيد الحبيب « عمرو » :

– لا . . لا . . لن افعل وليذهب عرش حمير إلى الجحيم .

انفلتت ابنته « تدمر » من بين أحضانه وهى تخفى عينيها بأناملها العشر ، كمن ندع مانعة شرا جاثما :

– عمرو . . عمى . . لا .

هبت من فورها مبتعدة ، إلى أن استدارت سائلة والدها :

– هل كانت « السيدة » على علم بموعد قدومك إليها ؟

– أبدا . لا أحد يعرف . . حتى أنت ياتدمر ، فأنا لم أخبر أحد إطلاقا هذا النهار.

واجهت تدمر الجدار وهى تدقه بقبضتها فى عصبية :

– وماالذى أتى بعمرو تلك الساعة ؟

– لا أعرف

عم صمت ثقيل داخل المخدع .

وحين تناهى إليهما – حسان وابنته – سماع اقتراب أصوات خارجية وحفيف أقدام زوجته وجواريها ، اندفعت تدمر من فورها خارجة مغلقة باب المخدع ، مانعة الجميع، حتى أمها ، من الاقتراب من غرفة الوالد التبع وهو على تلك الحال . . نهبا لهواجسه التى تطحن رأسه ، صارخة فى صرامة :

– أبى ليس مريضا ولا شىء من هذا . . لكن حذار من الاقتراب الآن . . ابعدوا جميعا .

عادت من فورها ، إلى حيث أبيها المتوعك الذى من فوره مضى متقلبا على فراشه ، كمن يعانى ألما معويا يمزق أحشاءه :

– ابعدوا الآن .

اندفعت تدمر جارية باحثة عن طست وإبريق الاغتسال المصاغ من الذهب الإبريز، دافعة به تحت ذقنه وفمه لتلقى «القىء » الذى تزاحم فى حلقه وفمه مسترجعا :

- شربت من يدها . . لا أعرف ماذا شربت من يد تلك السيدة المرعبة .

عاد الملك يتلوى من جديد معاودا القيء وكأنه يستخرج أحشاءه عن آخرها :

-علقم !

جرت تدمر باحثة عن قطعة من الليمون ولما لم تجد :

- ليمونة . . ليمونة .

اندفعت متجهة إلى الباب المفضى إلى المطبخ الملحق بالمخدع ، ومرة أخرى عادت تصرخ فى وجه كل من حاول الاقتراب من غرفة أبيها :

- حذار . . الليلة . أبى ليس مريضا . . ابعدوا .

عادت إليه بعصير الليمون وبعض الأعشاب فتناولها التبع شاربا ، مكوما كل وسادات المخدع من فوق رأسه ووجهه الغارق فى بحار العرق ، لإيقاف الصداع والألم ، وسرعان ماعلا غطيطه وصراخه :

-لا .

ما أن أفاق الملك - التبع - الجديد حسان بن أسعد اليمانى ، من كابوسه ومرضه وما ألم به عقب زيارته المشؤومة لمغارة سيدة جبل ضهر ، تنفيذا لوصية والده الراحل ، حتى مضى من فوره مستشيرا أصدقاءه ومقربيه وكل من يثق فيه من قريب أو بعيد بما أشارت به تلك المرأة الطاغية :

-ماذا أفعل ؟

- هل أنفذ الوصية .

- أأقتل أخاى . . عمرو ؟

- أنفذ الوصية . !!

-مستحيل . . مستحيل . لن يحدث أبداً .

- ماذا فى أيدينا . لا مهرب . . إنها الوصية .

- الوصية . . أخى . . لحمى .

- الوصية .

حينئذ استبد الجنون بالملك الذى أخذ منه الخوف والفزع كل مأخذ ليس فقط من الوصية والجلوس على رؤوس الأفاعى الكاشفة عن أنيابها ، بل من كل ما أصبح يحيط به ، وما هو مقبل عليه ، وتلك المهام الجسام ، التى وجد نفسه فجأة مطالبا بها ، منذ رحيل والده التبع أسعد عقب كارثة ضياع جيشه وتيهه فى ربوع الصين :

- أخى .

كان يمضى متفرسا فى الوجوه المحيطة به ، التى تدفع به دفعا . إلى حيث هوة الانتشاء بالدم . ودم من . . آخر من تبقى من إخوته الخمسة وبعد أن فقد إخوته الاربعة الذين التهمتهم الحرب المستعرة فى أقاصى المعمورة .

هنا يحل الصمت بالجميع وكأنهم يتخلون عنه ، لاذين بذلك الصمت المستسلم الكتوم المتآمر .

وحتى ابنته المقربة « تدمر » وعمته « البسوس » لاذتا كلتاهما بذات الصمت المطبق دون نطق أو محاولة مد يد العون لغريق يهذى وحده على مرأى من الجميع .

وكأن الأمر لايعنى أحداً غيره ، وهو الذى مازال ينزف ليل نهار باكيا افتقاد إخوته الأربعة .

وظل حسان هكذا أياما امتدت لشهور لا يذوق للنوم طعما ، بل بدا هزيلا إزاء مهماته كتبع وريث لعرش التباعنة القساة القلوب والسواعد والأطماع .

هكذا بدا حسان فى نظر نفسه وسيدة « جبل ضهر » التى لها على الدوام الكلمة العليا ، على حد قول والده تبع أسعد ، قبل أن توافيه منيته :

- فى كل ماتقول لك سيدة جبل ضهر . . اسمع لقولها .

كيف أخى ؟

وتعمد حسان عدم الإلتقاء بأخيه عمرو ، والتطلع فى حدقتى عينيه كمثل مذنب

أثيم ، بعد أن صادفه للحظة على عتبات مغارة جبل ضهر . إلى ان حانت لحظة التقائه به حين تسلل إليه عمرو بنفسه عن طريق عمته البسوس التى لم يكن يرجىء لها مطلبا .

فتقدم منه عمرو متضرعا معاتبا فى حنو سائلا :

- لماذا تخفى نفسك عنى . . هل حدث منى ما يسىء ياأخى حسان ؟

فما كان من حسان إلا أن انتفض واقفا معانقا شقيقه الأصغر ، متحسسا بيده اليمنى مكمن خنجره .

متراجعا :

- حبيبي عمرو . . أنت فى عينى . . أنت حدقة عينى .

بل إن حسان أثقل على عمرو بالرجا ء فى أن يتقدم ليأخذ مهام الملك الجديد بدلا منه .

عندئذ بكى عمرو على صدر أخيه الأكبر حسان أحر البكاء وأشقه ، متصورا أن أخاه الأكبر إنما يفتقد ثقته ويتخيله طامعا فى حكم حمير ، وهو الذي يحفظ له كل تقدير وإعزاز مدى العمر .

وحاول حسان جاهدا إفهام أخيه ثقل ماهو فيه وما يجثم على كاهله ، ولكن دون جدوى إلا أن « عمرو » بدا كمثل ضحية وديعة مستسلمة تأخذ طريقها إلى محرقتها صاغرة :

-أنت أخي . . أخي .

وتعقد الموقف بين الشقيقين ، وهو الموقف الذى كانت عمتهما « البسوس » تنتظر نتائجه بفارغ الصبر من خلف خبائها داخل أستار قصرها الذي جرى فيه اللقاء بين الملك حسان وأخيه الأصغر كانت البسوس مثلها مثل سالف التباعنة لاشيء يعنيها فى ذلك العالم الواسع سوى الاستبداد وغاياته فى حكم تلك القبائل المترامية على شواطىء الخليج العربى والجزيزة واليمنين .

وهكذا فشلت خطتها هذه المرة أيضا فى استعجال وحسم أمر « تاج حمير » الذى لن يكتمل نصابه إلاعقب الالتزام بالوصية ، مهما ثقلت المهام إلى حد إراقة الدم الواحد ، وهى التى كان يروق لها أحيانا إشعال نيران المحارق فى الأجساد من بهائم وطيور وبشر.

كانت البسوس أو سعاد التى تعرف بأسمائها المتعددة ، قد آثرت فى سنواتها الأخيرة التفرغ الكامل لرعاية شئون « عرش « التباعنة » وما يتطلبه ذلك من تدخل فى أدق المشاكل والقضايا التى لاتنقطع ، كتلك التى عادة ماتنشب وتستجد بين القبائل والعشائر والبطون والأقوام المترامية على طول الجزيرة العربية شمالها وجنوبها ، والتى يضمها ذلك التحالف القبائلى الحميرى أو القحطانى .

ومنذ شبابها المبكر كانت شديدة الحماس حفاظا على تقاليد عرش التباعنة ، لذا آثرت رغم زواجها من أحد أمراء بلاد « السرو وعبادة » ، أى ( الأردن اليوم ) واسمه «سعد » ، وانتقالها منذ البداية للعيش فى بلاده ، والعودة معا للعيش فى سبأ ، بعد أن شق عليها الابتعاد عن متابعة مايستجد من مشاكل حكم حمير وصراعات أقوامها . وفى البداية رفض زوجها « سعد » مطلبها ذاك وهو الانتقال ببيته وكيانه وممتلكاته للعيش فى وطن الزوجة ، إلا أن مرضا ثقيلا ألم به فجأة فى السنوات الأخيرة التى سبقت وفاة أخيها التبع أسعد ، عقب كارثة تشتيت جيشه فى ربوع الصين .

هنا استسلم لها الزوج واستجاب لأطماعها ومنطقها فى رعاية شئون حكم حمير بعد موت التبع ، فوافق على الانتقال معها إلى سبأ والعيش بها . ووصل الاندهاش — بالعمة — البسوس أقصى مداه ، وهى ترقب من خلف ستائرها وخبائها ، مايحدث بين الاخ وأخيه من تعاطف .

وأفزعها أكثر ذلك التراخى الذى يبديه الأخ الأكبر حسان نحو أخيه الأصغر محتضنا إياه مارين على طول ردهات القصر ، فى ذلك الأصيل الذى بدت فيه الشمس الغاربة، عبر الشرفات والنوافذ ، قانية الاحمرار كمثل جمر نار متأجج .

وأدهشها ضعف حسان وهو يتوسل إلى شقيقه الأصغر « عمرو » فى التقدم ليأخذ مكانه ويعتلى عرش « التباعنة » معبرا بكل جوارحه عن شقائه وما أصبح يعانيه من آلام ليس فى مقدوره احتمالها :

- أنت أخى .

غمغمت البسوس وهى تفح فى غل :

- عشنا وشفنا .

قالت لنفسها :

- أعلى هذا النحو من الرقة والسماحة يجىء تبع حمير . . المنتظر !

وواجهته البسوس بهذا القول - المزرى -ساخرة إلى حد أن حسان انسل خارجا من قصرها دون رجعة :

- عمتى . . اتركينى .

واستبد بالبسوس الغضب من تصرفات ابن أخيها حسان على هذا النحو - الحنون - الأرعن ، حتى إنها لم تحاول أن تثنيه عن عزمه فى الخروج من قصرها رافضا غاضبا على هذا النحو . وكل ماقالته له هو :

- انتظر . . أنت ملك حمير .

وهى التى مادبرت هذه الوليمة التى استدعت إليها - الضحية - أخاه الأصغر عمرو ، إلا بناء على طلب ، كليهما ، من قاتل وقتيل إن صح القول .

خاصة عمرو ، الذى أصبح فى أيامه الأخيرة يعانى وحدة قاسية أقرب إلى الذنب من إشاحة أخيه الأكبر عنه على ذلك النحو .

وهو - أى عمرو - الذى اتخذه على الدوام صديقه ومثله الأعلى ، وكان أكثر أهل حمير حماسا وتوقدا بتنصيبه ليعتلى عرش « التباعنة » مكان أبيهما الراحل أسعد .

بل وحتى عندما حاول الأخ الأصغر عمرو اللحاق بأخيه ، وقبل وصوله إلى ركبه عند البوابة الخارجية ، منعته عمته البسوس محتضنة إياه وهى تداعب بأناملها خصلات شعره الفاحم المجعد :

- ارجع ياعمرو ياحبة عينى .

فلم تكن البسوس تكن كرها أو حقدا للأخ الأصغر ، بل هى الوصية :

ـ أنا لن أرتقى يوما حكم حمير .

هكذا صرخ فى لوعة .

فالأمير الصغير الهائم دوما عمرو ، كان على الدوام الأكثر قربا من البسوس. أرضعته صغيرا إلى أن شب ونما بين صدرها وجوانحها تحنو عليه الليل بطوله :

– الوصية !

بكت بين ساعدى عمرو . الذى بدا لها – على عادته – تائها لايدرى مايجرى ويحدث من حوله منذ افتقاد التبع الأب :

– ما الخبر . . ألعلنى آخر من يعلم ؟

حاول ثانية الانفلات من عمته البسوس وابنة أخيه «تدمر» والجميع :

– ماذا دها أخى حسان . سأذهب إليه الليلة بقدمى هاتين .

– لا ياعمرو . – لماذا . . تمنعوننى عن أخى . . صديقى ؟

مضى عمرو فى انفعاله وثورته يتطلع الى الوجوه المشدوهة من حوله دون أن يعى مايعترى الموقف كله من غموض ، مما ضاعف من إحساسه الدفين بأنه هو وحده وليس أحدا غيره السبب الرئيسى لكل مايجرى من نزاع وتطاحن . فما كان منه إلا أن انفلت خارجا مسرعا مصمما على اللحاق بأخيه واستجلاء سبب غضبته وانسحابه على هذا النحو المكفهر .

امتطى ظهر فرسه – سحب – مطلقا العنان لكوكبة فرسانه فى إثره ، إلى أن وصل قصر أخيه التبع الحاكم حسان ، مترجلا مقتحما ردهات القصر الذى أصبح يشيع فيه الصمت المحمل بالأسى ، نتيجة لأحزان التبع الجديد وصراعاته .

إلى أن لحق بأخيه حسان داخل مخدعه ، وكان ساعتها يستبدل فى إعياء أرديته ولباسه ، استعدادا للإغفاء دون أن يراوده النوم كالعادة .

حتى إذا ماطرق عمرو الباب فاتحا داخلا ، استدار إليه حسان مرتعدا محملا بكل غضب صارخا مخفيا وجهه بين كفيه كمن يعانى ألما دفينا يطحنه طحنا :

- ابتعد عنى . . ابتعد !

تراجع عمرو كالمشدوه من قسوة طرد أخيه له من بيته على هذا النحو الفادح :

-أبتعد عنك ياحسان . . ياأخى . . تطردني ؟!

- اذهب . اذهب عنى . لا ترنى وجهك !

صرخ الملك التبع ملتاعا :

- امنعوه .

هنا اندفعت جوقة الحرس التى انشقت عنها الجدران محيطة بعمرو المرتعد وهم يسحبونه فى رفق إلى حيث البوابة الخارجية لقصر التبع .

فهو متعب هذه الليلة .

وبدأت حالة الأخ الأصغر عمرو الصحية تسوء تباعا . وكان شاعرا رقيق الشمائل ظل طيلة سنوات شبابه منكبا على الأسفار والترحال فى متاهات العالم القديم مشرقا ومغربا ، بحثا عن كنوز المعرفة ودفائنها والاستفادة من كل مايجىء به من إبداعات .

فهجر نابذا منذ صباه صراعات القصور تلك ، متخليا هائما لايبغى من عالمه سلطة أو جاها سوى مصادقة المخطوطات التى كان قد احتمل لتملكها كل الصعاب ، ولو كانت فى متاهى الأرض

لذا لزم عمرو فراشه داخل قصره عقب تطاول شقيقه الأكبر عليه إلى حد طرده دون رجعة من مخدعه :

- أبعدوه ! وبكته زوجته - وابنة عمه - الصغيرة ، حاملة بين صدرها وليدهما «الطفل الصغير ذو اليزن » دون أن تدرى لمرضه المفاجىء سببا واحدا يشفى غليلها ، سوى تلمس بعض شذرات تجىء من هذيانه الليل بطوله .

– تطردنى ياحسان . . ياأخى .

ودون علم منه قررت الزوجة الحزينة حمل وحيدهما الرضيع « ذو اليزين » وزيارة أخيه الأكبر – تبع حسان – وإبلاغه بما وصلت إليه حالة أخيه الأصغر عمرو ، الذى أصبح معلولا شاحب الوجه لا يقوى على مجرد المشى أو الكلام .

حتى إذا مااستقبلها التبع الجديد وعلم بما انتهت إليه حالة شقيقه الأصغر المعلول ، تضاعفت همومه وعصفت به أحزانه الدفينة من جديد ، إلى حد أنه مضى فى ثورة غضبه يمزق حلته الملكية وتاجه وأرديته وهو يطؤها بقدميه الاثنتين كمثل مخبول على مرأى من حرسه وحجابه وأهل بيته .

ولم تفهم الزوجة الوادعة سبب انفلات ثورته على هذا النحو ، دون أن يقدم على قرار زيارة أخيه او استدعاء طبيب مداو قادر على شفاء علله .

فما كان منها سوى البكاء دفاعا عن زوجها عمرو فهو ليس خائنا أو متآمرا :

– فلماذا يتآمر الجميع عليه ؟

وهنا لم يجد حسان له مهربا ، سوى امتطاء حصانه والتوجه إلى « جبل ضهر » واقتحام غار سيدته الدموية تلك ، وإعادة طرح قضية أخيه عليها ، وكيف أنه الآن طريح الفراش يعانى سكرات الموت :

– أجل الموت المحقق .

واجهها محتدا جاثيا على ركبتيه :

–كل ماأطلبه منك ، هو إعفائى من الوصية .

قالت مشيرة إلى يديها الاثنتين :

– لا أملك .

سألها : .

–وإذا ماانقضى أجل عمرو . . أخى ؟

أجابت فى حزم :

– لا مكان لك فى إرث التباعنة .

اندفع غاضبا لايلوى على شيء خارجا ، إلى أن قفز هائجا على ظهر حصانه ، نازلا متعرجات جبل ضهر ومسالكه ، ودقات الدفوف العنيفة تجيئه مهيجة لكل حواس وكأنها صادرة من رأسه ذاتها .

زار عمته البسوس محاولا إيجاد مخرج لما هو فيه ، فتلقى منها ذات كلمات سيدة جبل ضهر ، وكأنهما – المرأتين – وجهان لعملة واحدة :

– لامكان لك فى حكم التباعنة .

اندفع حسان صارخا بأقصى قواه ، معاودا تمزيق أرديته على مرأى من عمته البسوس وابنته « تدمر » .

– لامكان لى فى إرث أبى . . سوى بإراقة دم أخى الوحيد . . لحمى – إنها الوصية . الدهر .

وهكذا أعاد إليه أصدقاؤه ومقربوه ذات المعنى ، إلى حد أنه أقدم فى إحدى سورات غضبه على إشهار سلاحه فى وجه ثلاثة منهم وإراقة دمائهم :

–لامهرب .

– الوصية .

اندفع من جديد ممتطيا حصانه ضاربا عرض الحائط بكل ماسمع مقررا زيارة أخيه عمرو المريض المعلول .

وماإن وقعت عيناه عليه . . شاحبا معلولا يهذى عبر بحار عرقه على فراشه ، حتى تقدم منه حسان لاثما محتضنا بكل قواه ، وكان ساعتها يجاهد فى أخذ أنفاسه الأخيرة دون نطق .

وسريعا ماأستل حسان خنجره من غمده ، وذبح أخاه « عمرو » من الوريد إلى الوريد ، صارخا فى أقصى جنونه على مرأى من زوجته المحتضنة لوليدها ذى اليزن :

–عمرو . . أخى !

# 3

## التبع حسان يفني قوم زرقاء اليمامة

دوت طبول « الرجروج » العملاقة التى كان يشارك فى قرعها ثمانية من الرجال الأشداء .

احتفالا بذلك الحدث الكبير الجلل ، وهو جلوس الملك حسان اليمانى على عرش التباعنة .

وسرى الخبر أول الأمر من جبل ضهر المتاخم لصنعاء ومنه إلى بقية بقاع حمير ، فى عدن وحضر موت وسبأ وذى الرمحين وصرواح وإرم ذات العماد :

- الآن أصبح حسان اليمانى حقا ، تبع حمير المهاب . ارتفعت الرايات والبيارق والزينات ، وامتدت حلقات الرقص والسمر ونحرت الذبائح من نوق وجمال وماعز .

كل ذلك كان يحدث مدويا فى أذنى التبع الجديد حسان كعويل . . وليس أبدا إيذانا واحتفالا باعتلائه عرش « التباعنة » العظام . .

فلم يكن قد أفاق بعد من هول أحزانه الدفينة التى تزايدت منذ إقدامه على قتل أخيه الوحيد المريض « عمرو » فى فراشه ، وعلى مشهد من زوجته وطفله الوحيد « ذى اليزن » يبكى فى حرقة على صدرها :

- « أأقتل أخى عمرو ، بيدى هاتين ؟ »

ظل التبع الجديد لأيام لايذوق للنوم طعما ، بل حاول جاهدا ألا يمس بيديه الاثنتين - الملوثتين بدم الشقيق أى شىء .

ورفض استقبال أى من المقربين منه فيما عدا ابنته « تدمر » التى حاولت بكل ماأوتيت من حكمة ورجاحة عقل التخفيف عن والدها ، مدعية أن لا دخل له يذكر فيما حدث ، بل إن عمها الراحل الحبيب « عمرو » كان من جانبه يسعى إلى الموت سعيا ، شأن كل الضحايا والقتلى .

وراحت «تدمر» تلثم فى حنان كفى والدها طريح الفراش -حسان - وساعديه فى حنو ، وهى تدرك ببصيرتها الصائبة ماأصبح يعانيه من فعلته الشنعاء التى شارك الجميع فى دفعه إليها دفعا :

ـ أخى عمرو ماذا بقى لى ؟

بل إن الأميرة تدمر ، شاركت والدها مقاطعة كل ما يحدث من احتفالات تنصيبه .

وتوافدت الوفود ما بين ملوك وأمراء وشيوخ قبائل وفرسان من كل صوب وحدب باتجاه قصر الملك التبع حسان إلا أنه رفض استقبال الجميع .

وزين قصر عمته البسوس بالزينات البهيجة وعزفت الموسيقى داخل ردهاته وعمت الأفراح كل كيانات حمير فى اليمن والجنوب العربى وشواطىء بحاره الجنوبية ابتهاجا باليوم المنشود الذى لابد وأن ينعم فيه الجميع بدفء الأمان المعزز دوما بسطوة «التباعنة» وملوكها منذ شداد بن عاد الكبير .

ومن هنا تجددت التحالفات ، وبدأ فرسان القبائل يأخذون طريقهم إلى الميادين لمواصلة تمارينهم استعدادا لإعادة انتصاب الرايات التى نكست طويلا ، منذ موت التبع أسعد وتنفيذ ابنه ووريثه حسان لوصيته - المفزعة - أيا كانت ، حتى وإن تمثلت فى قتله لأخيه الأصغر عمرو الحبيب .

فالآن فقط يمكن لحمير أن تسلم قيادها للتبع الجديد المتجبر القاسى القلب ، يقودها إلى حيث يشاء دون كثير عناء .

أما عن حال التبع الجديد « حسان » فقد لازمته الاحزان القاتمة التى وصلت إلى أعمق أعماقه عقب إقدامه على قتل أخيه الأصغر - الوحيد - عمرو . وهو راقد على فراش المرض . بخنجره المسموم . وذلك بقطع رأسه من الوريد الى الوريد ، ووضعها على « طست » من الذهب مغطى بالرماد ، مثلما فعل أبوه - أسعد - مع رؤوس أبنائه الأربعة يبكيه أحر البكاء كلما عم المساء .

- ألا سحقا ليوم أصبح يأكل فيه بعضى بعضا . أيها الحبيب عمرو .

وهكذا فرض الملك حسان حصارا صارما حول نفسه فى عزلته داخل قصره الحصين . فلم يعد يكلم أحدا ، حتى ابنته تدمر التى هى أقرب إليه من نفسه ذاتها .

حتى إنه لم يسمح لوفد من آلاف الوفود التى سعت إليه لتقديم الهدايا وفروض الطاعة بمقابلته ، مشيعا أنه مريض ملازم لفراشه حسب مشورة الأطباء .

إلا أن الوحدة الصارمة التى فرضها على نفسه ، كانت قد أحدثت مفعولها من حيث التحولات التى حدثت داخله ، ليخرج بعدها على شعبه وقبائله ، حسانا آخر جديدا ، عابس الوجه ضائقا مستهدفا للبطش ، أينما ساقته إليه قدماه .

وهكذا بدأ أولى خطواته الانتقامية بقتل جميع من أشاروا عليه بتنفيذ تلك الوصية المشئومة بقتل شقيقه عمرو .

فلم يستثن منهم واحدا ، مهما تعاظمت درجة صداقته وقرابته منه .

كان يبعث إلى الواحد منهم بسيافه طالبا مقابلته ، وقبل أن تعبر قدماه عتبة الديوان الثالث داخل مقر الحاكم يكون قد قضى نحبه .

وكان هذا سببا رئيسيا فى تزايد بطشه وهيبته التى أصبح يحسب لها كبراء حمير قبل صغارهم كل حساب .

وكانت أخبار بطشه بأقرب مقربيه ، تصل مسامع عمته البسوس أولا من عيونها المنبثة عليه حتى داخل قصره ومضجعه ، فيصل بها الانتشاء أقصى مداه : !

-هاهو رأس حمير الحقيقى شديد البأس .

- بل لكم تمنت البسوس أن يزداد انتقام ابن أخيها التبع حسان أكثر فأكثر ، حتى ولو أصابها هى ذاتها الدور ، إلا أنها أكدت وصيتها لمقربيها وهى الحفاظ على ذلك لوليد الصغير الذى لا يزال بعد رضيعا - ذى اليزن - ابن الأمير - الضحية عمرو ، والتى كانت البسوس قد انتزعته انتزاعا من صدر أمه ، قبل أن تعود إلى قبائلها بوادى الحجاز باكية فجيعتها فى افتقاد كل من الزوج والإبن .

وهكذا عكفت البسوس على تنشئة الرضيع ذى اليزن فى كنفها مولية له رعايتها القصوى ، بعيدا عن العيون ، وبخاصة عينى - عمه - التبع حسان ، وبعدما اعتراه من تحولات ورغبة جامحة فى الارتواء بالدم المراق ، نازعا عنه كل بادرة لرحمة ، حتى قيل عنه إنه أصبح لايرحم حتى نفسه ذاتها :

- هكذا تريدوننى !

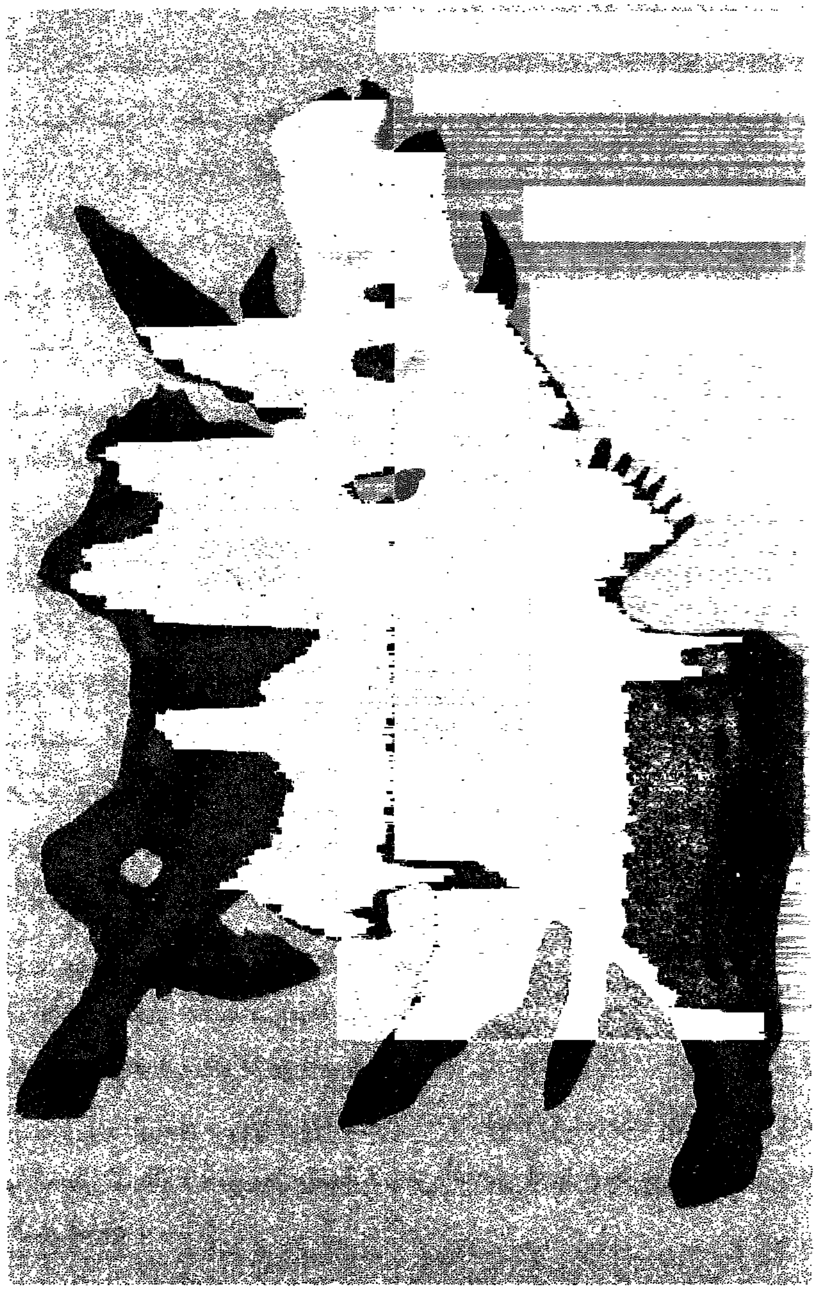
- فلقد كان دائم السخرية المريرة لنفسه :

-كل ما أبتغيه هو أن أحوز طاعتكم قبل إعجابكم . . فهكذا أرادت حمير بى المسير . وشيئا فشيئا تخلى التبع حسان اليمانى عن عزلته واصطفائه لنفسه فقط يحادثها مناجيا بلا عون أو صديق .

فخرج على قومه أكثر صلفا وتجبرا ، وبدأ بإعطاء القسط الأكبر من جهده لإعادة تنظيم ورص صفوف قوات جيشه التى أوهنتها وأودت بمعظم فيالقه الحروب الطويلة المضنية التى خاضها والده - - التبع أسعد - فى أواسط آسيا والشرق الأوسط .

واتخذ لنفسه وزيرا حكيما يدعى « حنظلة » أجمعت مشورة الجميع ، وأولهم ابنته ومكمن سره « تدمر » عليه .

وكان ذلك الوزير الحكيم « حنظلة » على معرفة واسعة بقبائل وعشائر اليمن والجنوب العربى ، وتحالفاتها العلنية والسرية . كما كان حنظلة على معرفة بالقبائل والأقوام المجاورة والمتاخمة - لحمير - وما تطمح إليه فى إضعاف الحميريين وتفكك تحالفاتهم بانتظار اليوم الموعود للوثوب عليهم ، وخاصة عقب كارثة إحباط جيوشها التى قادها التبع أسعد حين أوصله طموحه إلى « نطح » أسوار الصين ذاتها :



- « قد دعتنى نفسى أن أنطح الصين »

ثم ما انتهت إليه تلك الغزوة المغامرة التى تسبب فيها ذلك - الدليل - الآسيوى الخائن الذى أسلم له الملك أسعد مشورته وقياده ، فأفقده اتجاهه إلى حد التيه الكامل هو وجيشه فى غياهب تلك البلاد والوهاد لسنوات ثم اتخاذ قرار العودة إلى جزيرة العرب فى غفلة منه .

وانتهت تلك الحملة بانتقام التبع أسعد من دليله وحليفه الخائن بقطع لسانه والمرض كمدا حتى الموت .

وهكذا مضى ذلك الوزير حنظلة ، يسوق للتبع حسان مايستجد من أخبار القبائل والأقوام الطامعة ، متعرفا على مكامن ضعفه باستثارة التحديات .

إلى أن نجح أخيرا فى إقناعه بالتخلى عن عزلته ودفائن أحزانه والاستبصار بالأخطار المحيطة والمحدقة بأمن حمير ، وأهمها تلك القوة الضاربة التى بدأت تدب بين قبائل «جديس » وهم من العرب البائدة وأميرتهم الحكيمة عميقة البصيرة « زرقاء اليمامة » .

وكيف أن قبائل جديس نجحت أخيرا عقب حروبها الطويلة مع قبائل « طسم» فى إحداث النصر الساحق لجديس إلى حد فنائها لقبائل « طسم » وتشتيت فلولهم على طول جزيرة العرب شرقا وغربا حتى قيل فيهم :

- « لعبت بهم أيدى جديس » وكانت زرقاء اليمامة أكثر استبصارا بالخطر ومدى استفحاله منذ المهد .

كانت على الدوام مدركة حطر حمير وتبعها الجديد « الفتى » الذى لم يكن يرغب أبدا أول الأمر أن تعلو هامته سواء داخل أقوام وكيانات جزيرة العرب ، أو فيما يتاخمها من أقوام فى الشام ومابين الرافدين وأفريقيا .

وكانت زرقاء اليمامة - وكما تروى سيرتها - لاتنام الليل ، منذ أن علمت ووصل أسماعها أخبار اندحار الحميريين وتقهقرهم من أقاصى آسيا ، بعدما حدث من خداع لمكهم التبع أسعد .

وكانت على دراية بأن ماحدث لحمير ، ليس أكثر من كبوة أو عثرة طريق ، تمهيدا

لإعادة جمع الشمل والالتئام توثبا لإعادة التطاول ومواصلة الغزو والتفوق واستهداف الحروب الدموية ، التى لابد وأن تسحق يوما أول ماتسحق عشائرها وبنى جلدتها . خاصة وأن « جديس » وبعد امتصاصها لطاقات مناوئتها « طسم » أصبحت الآن تشكل قوة فتية ضاربة على طول جزيرة العرب بشقيها الشمالى والجنوبى .

فها هى مدينة اليمامة الآن عامرة مزدهرة ، ملء السمع والبصر .

ومن هنا فلن يهدأ للحميريين وملكهم الجديد حسان ابن أسعد بال ، قبل أن تطأ جيوشهم الجرارة أرض جديس ، لاسيما وأنها عادت محملة بكل جديد من حروبها الآسيوية ، التى لم تطحنها ،بقدر ما أعادت فتح شهيتها من جديد للفتح والدم المراق .

ولكم نبهت زرقاء اليمامة الأذهان والعقول لما يحدث ويجرى من حولهم ، مطالبة بعدم انتكاس السلاح والخلود إلى لذائذ غنائم حربهم مع طسم التى انتهت باستئصالها من الوجود .

- فعجلة حمير لن ترحم . . . وهذا قدرنا .

لكن من يسمع ويرى . والجميع تأخذهم نشوة النصر المعجل الساحق فى جديس .

من يمكن له أن يصدق يوما . . بل لحظة انتكاس الرايات الخفاقة داخل مدينة اليمامة إثر النصر الساحق على جديس .

والصوت الوحيد المحذر لزرقاء اليمامة ، يجيئهم بلا صدى مبنيا فى اعتقادهم على مجرد دلائل وظواهر لا أساس لها من جانب حمير وتبعها الجديد حسان وهو الذى لم يفق بعد من ضربات الآسيويين ، التى أودت بأمرائهم وفيالقهم .

لكن من يسمع ويرى ؟!

ذلك الذى يدبره الحميريون وملكهم . حسان لهم فى الخفاء من اجتياح وعدوان . وهو ماحدث بالفعل من جانب التبع حسان الذى بدأ فى أيامه الأخيرة صحوته وعيناه

الاثنتان تحطان على جديس وعاصمتها اليمامة التى أصبحت مضرب الأمثال بين العرب نظرا إلى ماتتمتع به من ثراء وسطوة .

لذا آثر التبع حسان اليمانى ووزيره الأول المقرب « حنظلة » اللجوء إلى الحيلة ، وهما يعدان العدة لاجتياح اليمامة عاصمة جديس . خاصة وأن قبائل حمير بجيشها لم تفرغ بعد من استكمال استعداداتها وتوحدها لاستئناف القتال ، بعد الخسائر التى كانت منيت بها فى حروب الآسيويين .

وخاصة أكثر أن هذه الغزوة المقبلة تجيء كأولى غزوات « حسان » كحاكم جديد لحمير وتوابعها ، ومن الأسلم أن تجيء ومايترتب عنها وعليها ، بأقل الخسائر الممكنة .

لذا فمن الأرجح فى مثل هذه الحالة ، مهادنة « جديس » وحاكمتها الزرقاء و إخفاء نوايا العدوان ، الذى آثر التبع حسان أن يجرى ليلا ، وبطريقة مفاجئة لاتسمح – للعدو – لشحذ قواته وكتائبه خاصة وأنها – أى قبائل جديس – لاتزال تشرع أشرعتها ، عقب الانتصار الساحق على مناوئيهم من قبائل طسم .

وهكذا أجرى الإعداد للعدوان سرا ، مصحوبا بالنوايا الحسنة المعلنة لسكان اليمامة وأميرتها الزرقاء وهو ما أدركته زرقاء اليمامة ببصيرتها النافذة .

فما من رسالة – معسولة – أصبحت تتلقاها من حكام حمير ، إلا وأثارت سخطها وطاقتها فى استنهاض الهمم ، بازاء الخطر المرتقب القادم ، الذى أصبح يطرق كل بيت وخباء ومضرب فى جديس ، لكن من دون طائل يرجى :

– خذوا حذركم الليلة قبل الغد .

– ولا من مجيب أو سميع يرجى .

ذلك أن جيوش الملك حسان وإمعانا فى السرية والمفاجأة ، منعت قرع طبول «الرجروج » التى غالبا ما كانت تسبق زحفها .

بل هى اقتلعت خلال زحفها ليلا أشجار غابةٍ بكاملها بحيث تستر الجيش الزاحف تحت فروعها وهو يواصل تقدمه فى بطء شديد دون أدنى جلبة .

حتى إذا ماشاهدت زرقاء اليمامة - خدعة - الجيش المدجج الزاحف . أهابت بقومها صارخة معتلية أعلى قلاعها :

ياجديس . . ياقوم !

لقد سارت إليكم الشجر :

وأتتكم حمير !

لكن صرخات زرقاء اليمامة المحذرة جاءت متأخرة جدا ، وبعد فوات الأوان .

ويقال إن حسان اليمانى أذل جديس حتى العظم إلى أن أفناها عن الوجود . وضاعت سدى تحذيرات زرقاء اليمامة لسنوات ويقظتها فى التنبيه بالخطر الجاثم المهدد لقومها ومدينتها ، منذ أن استقام من جديد عرش « تباعنة » اليمن ، عقب الموت . . الكمدى - المفاجىء للتبع أسعد اليمانى . وتولى ابنه الأكبر حسان مكانه .

لكن من كان يسمع ويعى ، والجميع فى اليمامة قد أعماهم النصر السابق المعجل علي بقية مناوئيهم من قبائل طسم إلى أن حلت الكارثة ووقع ما كانت تحذر منه زرقاء اليمامة .



# 4

## الهجوم الليلى والتخفى بأغصان الأشجار

على ذلك النحو المتآمر الفادح ، جاء اجتياح التبع اليمنى « ميت القلب والحواس » حسان بن أسعد لقبائل « جديس » سكان اليمامة ، سهلا ميسرا كمثل نصل سكين يقطع زبدا .

فمع الهزيع الأخير من الليل المظلم الدامس وبعده قام جيشه بالتخفى من الرأس حتى أخمص القدم بأفرع الأشجار وغصونها من دون بذل أى محاولة لقرع الطبول أو إحداث أية جلبة ، وبالصمت الرهيب الذى كان يلف المكان ، أطبق حسان على الجديسيين من العرب العاربة وهم داخل مضاجعهم ليطحنهم جيشه الزاحف كمثل غابات وحشية مطبقة من كل صوب وحدب على الأسوار والبوابات والدور والمضارب ، وسيوف جند الملك حسان تعمل فى الرقاب النائمة ، مشعلين النيران والحرائق أينما حلوا .

بل إن التبع حسان وجنده ، تعمدوا استدراج كلاب قبائل جديس بالاحتيال عليها فرموا اللحم المسموم لها ، حالما قاربوا مضارب أعدائهم وفرائسهم ليلا ، مما ساعدهم على اقتناص النصر بأقل الخسائر .

ومن هنا كانت الفاجعة التى حلت بقبائل جديس ، ليُذبحوا رجالا ونساء وأطفالا داخل مضاجعهم ليلا غيلة على ذلك النحو الغادر من جانب ذلك الملك المتجبر وجيشه الزاحف الذى طحنهم طحنا على مرأى من أميرتهم « زرقاء اليمامة » التى أعيتها

كل حيلة فى تبصيرهم . فلعلها الوحيدة التى اعتلت رأس فرسانها وحرسها الخاص ، وتصدت للحرب والقتال من جهة ، ومن جهة أخرى صارخة فى بقية رجال جديس ومحاربيها النائمين والغافلين :

- ياجديس . . ياقوم !

لقد سارت اليكم الشجر . .

وأتتكم حمير .

لكن من يمكن له أن يسمع ويعى فى تلك الساعات السابقة على انبلاج النهار ، وقد نفذت أسهم الحميريين ، وعملت سيوفهم فى رقابهم ، عبر تلك المذبحة الليلية التى عمت ، كالطاعون ، ساحات مدينة اليمامة وباحاتها ومضاربها ومنازلها وخيامها دون رحمة أو شفقة .

ورغم كل محاولات زرقاء اليمامة وثلة لاتذكر من فرسانها ووصيفاتها من النساء ، فى التصدى والمقاومة لجيش الملك حسان العارم ، إلا أن الهزيمة كانت من نصيبهم .

فماذا تجدى مجرد كتيبة فى مواجهة جيش غاز متكامل البنيان ؟

إلا أن مقاومة زرقاء اليمامة ورجالها أفزعت التبع حسان ذاته فى تلك الليلة الحالكة الظلمة ، لدرجة دفعت به الى البحث بنفسه عن مصدر تلك المقاومة الخطرة ، برغم كل مااتخذه من احتياطات سرية ، إلى أن تصدى لها بنفسه وصولا إلى أن أوقعها جريحة تنزف وهى لاتزال تقذفه بأشنع سبابها ، تحت سنابك خيله المدججة .

ولكم كانت دهشة الملك الغازى حسان اليمانى الكبرى وهو يرنو إليها من أعلى هامة جواده ، ليتعرف عليها فى لباس الحرب :

- امرأة ؟!

- أجل امرأة . . أيها المتآمر . . المدجج بالليل والأشجار .

ضحك التبع حسان طويلا ، إلى أن استلقى على قفاه .

- لم أضحك منذ زمن !

- غدا تضحكك الأيام والليالى أكثر فأكثر يا حسان .

وحين حاول جنوده الاعتداء على زرقاء اليمامة والإجهاز عليها منعهم بنفسه :

-دعوها فهى حليلتى !

فما كان من زرقاء اليمامة إلا أن زحفت إلى أن قاربته ، بعد أن راقت فى عينيه نظرا إلى جمالها الباهر وذكائها المتوقد ، وذلك التحدى البديع الذى يغطى ملامحها وخلجاتها .

حتى إذا ماحاول التقرب منها ، طعنته بخنجرها إلى حد جرحه ونزف دمه .

عنذئذ عملت سيوف حرسه وفرسانه فى جسدها إلى أن قضت الزرقاء نحبها على تراب مدينتها اليمامة ترويه بدمها .

وجاء انتصار حسان اليمانى الساحق على اليمامة المطلى بالخديعة والغدر وبالتالى كسر شوكة « جديس » على طول جزيرة العرب . مجرد فاتحة طريق لشهيته المتعطشة للدماء والتفوق على الآخرين ، ومن ثم الحفاظ على سلطة أسلافه « التباعنة » .

فاجتاح نجران ودان له بحر العرب والعجم ، وأفنى أقواما وقبائل من العرب - التى عرفت فيما بعد بالبائدة ،وكانوا اثنتى عشرة قبيلة وكيانا منهم جديس ، وجرهم والعماليق ورائش وبقايا فلول طسم .

ولم يكتف بهذا ، بل تطلعت أنظاره الشرهة التى لا تعرف الاكتفاء إلى مواطن الزرع والضرع أو أرض « اللبن والعسل » فى الشام وفلسطين ،حرصا منه على الإبقاء على رايات السبئيين ، ومن انحدر من نسلهم من « التباعنة » ملوك حمير وكهلان . الخفاقة مشرعة خفاقة .

فمن نسل حمير جاء ملوك بنى قضاعة والكلابيين ، أما من الشق الثانى للتحالف أى كهلان ، فقد انحدرت سبع بطون . تضخموا إلى قبائل وأقوام ، وهم : طىء ومذحج ،وهمدان ، وكندة ، ومراد ، وأنمار ،والأزد .

ومن الأزد انحدر فيما بعد الغساسنة - ملوك الشام - عقب خراب سد مأرب . كما انحدرت منهم قبيلتا : الأوس والخزرج ملوك يثرب - أوالمدينة المنورة - كذلك انحدرت قبائل خزاعة ، سدنة أو «كهنة » الكعبة فيما قبل الإسلام .

فمن الأسلم التعرف على تلك البنية القبائلية القرابية التى انتظمت تحت رايات ذلك التبع الغازى حسان اليمانى . قبل إقدامه على نقل حروبه وفتوحاته خارج جزيزة العرب فى الشام وفلسطين وأفريقيا التى ستكون من نصيب ذى اليزن الذى رأى مصرع أبيه وشهده بعينيه منذ أن كان رضيعا بين أحضان أمه ، مصرع والده «عمرو » ، حين جثا على أنفاسه أخوه الأكبر التبع حسان ، لاثما محتضنا فى البداية ، إلى أن استل خنجره من غمده وذبحه من الوريد إلى الوريد . وبعدها انقاد الملك التبع حسان لذلك الجنون الغاضب ، فمضى يمزق ملابسه - الملكية - ويهتك عرشه - أى عرش التباعنة - بعدما امتدت يد الغدر والاغتيال لرقبة أخيه الوحيد المقرب « عمرو » .

ذلك أن الملك حسان ، وبعد أن انتظمت تحت راياته معظم تلك القبائل والأقوام بدأ يشاور وزيره الحكيم « حنظلة » سائلا ، بعد أن رضيت عنه حمير واعتلى عرش «التباعنة » كاملا ودانت له أقوام وكيانات الجزيرة العربية :

هل هناك أعظم منى فى الأرض ؟

فأجابه وزيره حنظلة متحرجا :

- يوجد خارج البحار عرب من أهل الشجاعة ، يقال لهم « بنو قيس » أو القيسيون ، وهم من بنى مضر .

فاستشاط الملك حسان هائجا قائما عن عرشه ثائرا فى وجه وزيره المنكمش الذى تراجع منزعجا من صراحته للتبع حسان ، وهو الذى لم يضلله يوما مخادعا ، استرضاء لمروءته :

-عفوا يامليكى . . إنها الحقيقة ليس إلا .

أعاد حسان صراخه المدوى فى ردهات قصره ، معترضا على ماتجرأ وزيره على البوح به فى مجلسه :

- أتقول الحقيقة ؟

لحظتها لاذ الوزير العجوز بالصمت ، بينما اندفع الملك حسان مقررا الحرب والخروج إلى ما وراء البحار منشدا :

يقول التبع اليمنى المسمى . .

بحسان فما للقول زورا .

ملكت الأرض غصبا واقتدارا . .

وصرت على ملوك الأرض سورا .

وطاعتنى الممالك والقبائل . .

وفرسان المعامع والنمورا .

وقد أخبرت عن بطل عنيد . .

شديد البأس جبار جسورا .

فقالوا إنه يدعى ربيعة . .

أمير قد حوى مدنا ودورا .

تولى الأرض فى طول وعرض . .

فكم أخرب وكم شيد قصورا .

فقصدى اليوم أغزوه بجيشى . .

وأترك أرضه قفرا وبورا .

أسير بعدتى إلى تلك الأراضى . .

وأملك للقلاع وللقصور ا .

ويغنم عسكرى منهم مكاسب . .

وأعطيهم بنات كالبدورا .

فيبقى الحكم لى برا وبحرا . .

ويصفو خاطرى بعد الكدورا ! .

وحين حاول حنظلة الانسحاب ، استوقفه ليطرح عليه مدى أخطار ماهو مقبل عليه فى تلك الحملة ذلك ان التغلبيين من بنى ربيعة سكان تلك البلاد ، وكذلك أبناء عمومتهم « بنى مرة » الذين عرفوا بالبكريين ، ماهم سوى شعوب بحرية ، ولن يتم الوصول إليهم سوى عن طريق البحر وهم سادته منذ أقدم العصور .

ومرة أخرى استشاط التبع حسان غضبا فى وزيره المعارض لرغباته وطموحاته على ذلك النحو الصادم المحبط .

فما كان من الوزير حنظلة ، إلا أن شرح له أمر أولئك الأقوام ، ومدى وعورة الطريق إليهم ،وهم الذين جابوا ربوع العالم القديم ببحاره ومحيطاته شرقا وغربا ، بسبب تجاربهم الواسعة وعمق معرفتهم بالبحر وأغواره .

وواصل الوزير العليم إخبار التبع بكل مايعرفه ووصل إلى علمه عن « سكان الثغور» ومدى تفوقهم واتساع علمهم بكل صغيرة وكبيرة مجالها البحر وأخطاره .

يضاف إلى ذلك قدرة تلك الشعوب من « تغلبيين وموارنة » على القيام بالخدع والحيل ، التى أكسبتهم من قبل ، النصر على كل طامع فى بلادهم وثرواتهم .

وفى النهاية تفهم الملك حسان مغزى حديث وزيره حنظلة ، وهو أهمية الإعداد البحرى لتلك الحملة التى سيسيرها إلى الشام وفلسطين لحصارهما ، بالإضافة إلى حاجته الملحة والضرورية فى الاستزادة بالمعرفة اليقينية لظروف وطباع ومدى بأس تلك الأقوام التى هو مقبل على غزوها .

وأبقى الوزير الحكيم حنظلة على تحذيره من ذلك الخطأ الجسيم ، وذلك فى الإقدام على غزو أقوام ومحاربتهم لاتكتمل معرفته بها ، كما حدث فى حروب الآسيويين على مشارف الصين ، ومدى ما تكبده الجيش اليمنى من إحباط وخسائر .

وبهذا القول الحصيف تمكن الوزير من كبح جماح رغبات التبع حسان وطموحاته وحتى « لا تقع الفأس فى الرأس » كما حدث فى السابق .

ومن هنا أرسل حسان برسله إلى تلك البلاد ليأتوه بأخبارها ودقائق مسالكها وحكامها :

كما أمر التبع حسان من فوره بالانكباب على تجهيز السفن والمراكب البحرية التى ستحمله وجنوده وعتاده ، إلى ربوع الشام ولبنان وفلسطين . حتى إذا ما استكمل بناء السفن والمراكب ، وعاد رسل الملك محملين بالأخبار والمعلومات عن كل صغيرة وكبيرة في ربوع الشام وفلسطين ، وأرسل الملك حسان بنفسه الى ابن أخته - الملك الرعينى - المعين من قبله على الحبشة والسودان ، يخبره بأهمية تجهيز المؤن والرجال لإمداد حملته فى الشام وفلسطين ، وبعد ذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام الملك للخروج بحملته ، بعد أن استقر رأيه الذى رجحته عمته البسوس ، بتعين ابنه الأكبر - الصحصاح بن حسان -ليخلفه مكانه على حكم حمير ، فى غيابه .

وانشغلت البسوس بتعليمه وتلقينه نصائحها وتعاليمها بما يسهل عليه ملء فراغ أبيه فى غيبته

وكانت البسوس قد أولت كل رعايتها لابن ابن أخيها الأمير عمرو المقتول وهو ذو اليزن الصغير.

# 5

## حصار الشام وفلسطين

وما أن انتهى التبع الغازى حسان اليمانى من إعداد سفنه ومراكبه التى وصل عددها إلى بضع مئات لنقل جنوده وكتائبه المحاربة لمحاصرة مدن الشام وفلسطين ، حتى تفرغ بمساعدة عمته « الأميرة البسوس » لتنصيب ابنه « الصحصاح » ليخلفه على حكم اليمن وبقية أقوام الجزيرة العربية التى تم له فتحها بحد السيف والخداع .

وهكذا تم إعداد الحملة ، وإرسال الرسل إلى حلفاء الملك حسان وولاته فى : «السودان والحبشة والصومال » خاصة – ابن أخته – الملك الرعينى ، الذى سبق أن نصبه والده -تبع أسعد – لحكم هذه البلاد ، قبل إقدامه على حروبه فى ربوع آسيا الوسطى والشرق الأقصى وخيانة دليله وحليفه الأسيوى الذى كاد يودى به وبجيشه . فطالب التبع حسان واليه الرعينى بإمداد الجيش بالمؤن والرجال ، حيث إنه فى طريقه إلى بلاد الشام لفتحها .

وفى البداية حاول الرعينى من جانبه إحاطته علما بمدى ما تنطوى عليه هذه المخاطرة الكبرى ، خاصة وهى تجيء فى أعقاب الهزيمة التى سبق أن منى بها جيش والده فى ربوع الصين ، « ودماء قتلانا لم تجف بعد » إلا أن تشدد التبع حسان فى مطالبه للرعينى دفعت بالأخير إلى تلبيتها كاملة غير منقوصة .

وهكذا توافدت وحدات وكتائب المحاربين الأفارقة من سودانيين وأحباش وصوماليين على مقر الملك حسان ، بعتادها ومؤنها وأسلحتها ، مما عضد من عزم التبع

حسان ، فأمر من فوره كبار قواده باستقبالهم وتهيئة مضاربهم ، وإعادة تدريبهم خاصة على أساليب الحرب والحصار البحرى الذى هم مقبلون عليه ، فى ربوع الشام وبلاد « السرو وعبادة » بوادى الأردن وفلسطين .

ومن جديد أقيمت المضارب والثكنات لإيواء القبائل المحاربة المتدفقة والقادمة من حول مأرب .

واستشار التبع حسان وزيره الأول « حنظلة » فى مسألة الاستعداد للرحيل البحرى، عبر أقصر الطرق والمسالك التى ستقوده وجيشه بصورة آمنة إلى المناطق المطلوب فتحها فى الشام وفلسطين ، وبأقل خسائر ممكنة ،اعتمادا على عنصرى المباغتة والحركة .

ورغم توجس الوزير الحكيم من الإقدام على تلك الحرب ، وماتنطوى عليه مغامرتها، إلا أنه آثر - هذه المرة - التكتم الحذر على مشاعره ووجهة نظره حيال إصرار التبع وطموحاته التى لاتنتهى ، خاصة وأنه ليس هناك من أسباب حقيقية تدفع إلى اندلاع مثل هذه الحرب - عبر البحار - التى عادة ماتحمل فى طياتها الكثير من الأخطار التى لاطاقة لأحد على تحملها .

ولكم حاول الوزير المستشار التوسل بالعقلاء المقربين من الملك حسان لإثنائه عن غرضه ، فلم يجرؤ أحد منهم على إعلان رأيه الصريح ، مقدما مصلحة « حمير » على أطماع الملك التبع الشخصية وشهوته الجارفة للتسلط .

فحتى عندما أفضى الوزير حنظلة بدفائن مشاعره حول تلك الحملة - المغامرة - للبسوس ، عمة التبع حسان ، التى لها الكلمة العليا فى مثل هذه الأحداث الجليلة من هجرة وحرب ، آثرت الصمت بدلا من الاعتراض أو مجرد التروى وإعادة تدارس الأمر قائلة :

ـ أصبح الأمر متأخراً جداً ، بعدما عزم التبع على المسير ، وبعدما جهز كل شىء .

غمغم الوزير متوجسا :

ـ على هذا النحو يجىء مصير حمير وأرواح رجالها وأقدارنا جميعا .

قالت :

-لعلك الأقدر من غيرك على معرفة معاندة التبع حسان وتصلبه .

عندئذ تنهد الوزير الأول :

-إذن ليكن مايكون .

حتى إذا مادقت طبول الحرب واعتلى الملك حسان اليمانى سفينة المقدمة ، مودعا الجماهير الغفيرة التى لا يحدها بصر ، انطلقت السفن باتجاه ساحل الشام وفلسطين بغرض فرض الحصار البحرى و إعلان الحرب على التغلبيين من بنى ربيعة وبنى مرة .

قال الراوى :

وكان ربيعة - أى أمير بنى ربيعة - فى ذلك الزمان من كبار أمراء العربان . وكان أخوه « مرة » - انتسابا إلى بنى مرة أو الموارنة - من الأمراء والأعيان .

« وكانت منازلهم فى أطراف بلاد الشام ، وكانا - أى ربيعة ومرة - يحكمان قبيلتين من العرب هما بكر وتغلب . وقد ولد لربيعة خمسة أولاد مثل الأقمار وهم : كليب الأسد الكرار ، وسالم البطل الشهير الملقب بالزير ، وعدى ودرعان وغيرهم من الشجعان »

« وأما أخوه الأمير « مرة » فله بدوره عدة أبناء شجعان ، منهم : همام وسلطان وجساس ، وبنت نبيلة جميلة يقال لها ( الجليلة ) » .

وعلى عادة ما هو متبع بالنسبة إلى التزاوج القبائلى - وبالتالى السياسى - المتبادل بين القبائل المتحالفة وأبناء العمومة ، فقد تزوج الأمير همام بن مرة بـ « الضباع » من بنى تغلب .

وأحب كليب الجليلة بنت مرة ، وكان يجرى التجهيز لزواجهما ، بعد أن فاتح والده - ربيعة - والدها - أى والد الجليلة - الأمير مرة فى أمر زواجهما ، حين انتقل إليه من فلسطين ووادى الأردن . إلى بيروت والبقاع .

فما كان من « الأمير مرة » إلا مباركة الأمر سوى أنه لزم الصمت مفكرا فى كيفية حمل الخبر إلى ابنته - الجليلة - وإقناعها .

فهو يعرف عن ابنته الكبرى الجليلة ، مدى صلابة شخصيتها ودقة اختيارها لمصيرها خاصة إذا ماكان الأمر متصلا بما يهفو إليه قلبها من حب وزواج .

حتى إذا ماأقدم على مفاتحتها . رحبت من كل قلبها بالزواج من الأمير كليب بن ربيعة محتضنة والدها فى حنو بالغ . إلى أن فوجىء الجميع بذلك الخبر الدامى المفزع الذى روعت له بلاد الشام وفلسطين ، وهو اقتراب الحشود البحرية التابعة للملك التبع حسان اليمانى الذى يعمل تحت إمرته عشرة من ملوك جزيرة العرب الأشداء

وهكذا وقع خبر الغزوة البحرية للتبع حسان كصاعقة مفاجئة صادمة للجميع ، وبخاصة لكليب بن ربيعة التغلبى وحبيبته الجليلة بنت مرة ، وهما يتأهبان لعقد القران الذى أصبح حديث البشر من عامة لخاصة فى ربوع لبنان ودمشق وفلسطين .

وتوالت أخبار الجيش الغازى فيما بعد . وكيف أنه انقسم إلى قسمين كبيرين . ميمنة وميسرة . . متملكين خلال زحفهما على طول الشواطىء ما يقابلهما من مدن ويقاع «بحد السيف المهند . حتى إنهم ملكوا معظم البلاد وأطاعتهم العباد » .

« هكذا ضرب التبع المستبد الغازى حصاره البحرى حول بلاد الشام ، فأحاط بها من جميع الجوانب بالمراكب والكتائب » .

إلا أن تملك العاصمة السورية دمشق قد جرى إتمامه برا . وكان واليها من قبل الملك ربيعة ، يدعى «زيد بن علام » . الذى قاتل قتالا مريرا . وألحق الكثير من الهزائم بجند التبع حسان . الذى حاول بكل الطرق والوسائل استمالته ومحالفته دون جدوى .

كما أن التبع حسان بعدما عانى طويلا فى حصار دمشق ، أرسل لرأس بنى ربيعة طالبا مفاوضته . إلا أن الأمير ربيعة رفض تماما الدخول معه فى مفاوضات أو حتى مجرد اللقاء به ، طالما أن التبع اليمنى قد جاءهم غازيا . وواصل حربه واختراق حصاره وإلحاق أفدح الخسائر بجنده وعتاده البحرى ، مما دفع بالتبع الغازى الى اللجوء إلى الحيلة والمكيدة فاتجه من فوره إلى بنى مرة – فى لبنان – لاستمالتهم مقدما تنازلاته المرضية

للقيسيين فى الحجاز ولبنان ، فعين الأمير « مرة » والد جساس واليا على تلك البلاد . وكان « يسكن مع قومه فى نواحى بيروت وبعلبك والبقاع » .

وجعل واليه الأمير القيسى « عبس » أميرا على فلسطين وبلاد السرو وعبادة ، وهى مملكة النبطيين أو العرب الأنباط الأردنيين .

كما أقام التبع الغازى حسان . واليه الأمير المسمى « عدنان » على الفرقة أو الجزء الثالث المتبقى من جيشه الغازى . على « أن يقيم فى العراق بتلك المنازل والآفاق .

وهكذا تفرغ التبع الغازى لمحاربة التغلبيين من بنى ربيعة فشتت فلولهم فى السهول والوهاد . مجندا كل طاقاته وأياديه الطولى للحاق برأسهم المدبر ، وهو الأمير ربيعة وولده الأمير كليب .

فلم يهنأ للملك حسان بال . طالما أن بذرة المقاومة ماتزال مستعرة ممثلة فى ربيعة وابنه الأكبر كليب . ومن حَولهما الرافضون [1] لعدوانه المتسلط على بلادهم .

إلا أن التبع تمكن من أسر « ربيعة » والد كليب . حين أمر رجاله بإلقاء القبض عليه « ومن معه من بنى قيس الطناجير ، فقيدوهم فى الحديد والجنازير ، وشنق الأمير ربيعة وصلبه على بوابات دمشق » .

وأمر حراسه وعيونه بإلقاء القبض على من يبكيه مصلوبا ، أو يرثيه ببيت أو شطر من شعر .

عندئذ فقط وبعد تخلصه من رأس المقاومة وهو الأمير التغلبى « ربيعة » . « صفا بال التبع حسان ، فشيد لنفسه قصرا حصينا مرتفع البنيان ، جعل أبوابه من الذهب والفضة » .

وهكذا استرخى طويلا وعن رضاء معتليا كرسى التباعنة العظام ، لا يشغل باله سوى البحث والغوص فى مختلف اللذائذ التى تفيض بها وتطرحها بلاد الشام وفلسطين . . أرض اللبن والعسل .

---

(١) من الفلسطينيين « المؤلف » .

وهو مالم يرض عنه أبدا وزيره الحكيم « حنظلة » . الذى كثيرا ماتسلل إليه بالنقاش بهدف محاولة إثنائه عن الاسترخاء الذى أصبح فيه التبع حسان ، فمن الأفضل وبعد تحقيق هدف الحملة ، العودة إلى ربوع اليمن والجنوب العربى ،على ألا تغيب العيون الساهرة على الحفاظ على ذلك الفتح وتعزيزه فى هذه البلاد والوهاد .

بل لقد توسل الوزير حنظلة لتعزيز رأيه ذاك بعمته البسوس ، التى رجحته إلى حد أنها كررت عليه طلب العودة إلى ربوع اليمن ، ولكنها عبثا حاولت لإصراره على عدم العودة

فلقد كان حنظلة على شاكلة زرقاء اليمامة . التى أرداها التبع تحت سنابك خيله وهى تكيل له السباب :

- الغلبة لله . . أيها الخصى .

كان مستبصرا بالخطر الكامن المستتر البادى فى الأفق الذى أصبحت - تبيته - هذه البلاد الشاسعة المتضاربة التضاريس ، مابين البحر الهائج المتمرد ، والبوادى وحياة المدن والجبال الشاهقة ، والتى لن يهدأ لأهلها بال إلا بطرد الغزاة واسترداد أراضيهم وكياناتهم ، مهما طال البقاء للتبع وصفا باله وزمانه .

وكان للوزير الحكيم كل الحق فى تصوره الذى تمرد عليه التبع المفتون بما حققت سواعده .

ذلك أن التغلبيين ومجاوريهم من بنى مرة ، كانوا قد عقدوا النية والمقصد على الانتقام لموتاهم وتحرير بلداتهم من مدخل « الحيلة والخداع » الذى تشرعه وتبيحه كل حرب ، بدلا من المواجهة غير المتكافئة مع التبع الغازى وجيشه والتى أصبح لا طائل منها .

وهكذا تربصوا فى الخفاء للانتقام ، بينما أظهروا الخضوع ومداهنة التبع علنا وفى وضح النهار.

وجاءتهم فرصتهم سانحة دون كثير عناء ذات يوم حين وصلت إلى أذنى التبع حسان أخبار ذلك الزواج - السياسى - بين الأمير كليب بن ربيعة الذى اغتال التبع

والده صلبا على بوابات دمشق ، وبين ابنة عمه الاميرة الجليلة بنت مرة ، التى تحدث الشعراء بجمالها وفتنتها الآسرة .

فما كان من التبع إلا أنه استشاط غضبا وطلب عدم إتمام الزواج مهما كلف الأمر من تضحيات .

بل أرسل من فوره يخبر والدها باستعداده هو ذاته - حسان - للزواج من الجليلة ، بدلا من ذلك « العاصى » المدعو كليب .

من هنا حانت ساعة انتقام « كليب » من التبع واقتراب موعد تنفيذها بكل حرص، معلنا للأمير « مرة » والد الجليلة ، مدى حرصه على أهمية التعجيل بهذا العرس - العجب - بين خطيبته وحبيبته الجليلة وبين ذلك الملك حسان المنتصر ، معلنا فى تهكم :

- أين نحن من عتبات الملك حسان وتزايد عجب الأمير مرة أكثر ، حين طالبته الجليلة ذاتها . التعجيل بإرسال موافقتها على الزواج من التبع حسان .

بل هما - أى كليب والجليلة - وضعا خطتهما لإتمام ذلك العرس ، ودعما خطتهما بإرسال مختلف الشعراء والدلالين الذين لاهم لهم سوى التحدث بمحاسن الجليلة ومفاتنها وصوتها الشجى النادر الذى تحن له طيور السماء الصداحة قبل البشر .

أما التبع حسان فكان كلما وصلته أخبار الجليلة ومدى حسنها وبديع شمائلها كلما تزايدت لوعته ولهفته ليحوزها حليلة ، محققا بذلك هدفين :

أولهما الحيلولة دون إتمام ذلك الزواج بين الجليلة ابنة الأمير مرة حليفه وواليه على بيروت وطرابلس والبقاع ، وبين ذلك « المارق » الذى سبق له صلب والده ربيعة .

وثانيهما هو الاستحواذ على تلك الأميرة الباهرة الجمال والشمائل الجليلة بنت مرة ، طالما أنه عقد النية على حكم بلدانه الشاسعة من مقره الذى راق له بدمشق فى بلاد الشام .

# 6

## تحقق نبوءة زرقاء اليمامة

طغى الملك التبع اليمنى حسان بن أسعد ، عقب استيلائه على ربوع الشام ووادى الأردن ولبنان وفلسطين ، فى حملة مباغتة غادرة ، أراد بها أن تكون مجرد مهرب ليس إلا من ذلك الذنب الغائر عميق الجذور الذى تسلط عليه عقب إقدامه على قتل شقيقه الوحيد عمرو .

كذلك جاءت هذه الحملة فى أعقاب اجتياح جنوده ليلا متخذين من أغصان الأشجار خباء ، لقوم « زرقاء اليمامة » وما أحرزوه من نصر اختلسه التبع حسان اختلاسا ، والناس نيام .

من هنا حق له وبعدما خفتت كل الأصوات المعارضة فى دمشق وفلسطين من التغلبيين ، وبعد مهادنته « لبنى مرة » فى ربوع لبنان ، أن يتضاعف عسفه وطغيانه ، وانحرافه فى ملذاته المتسمة بالجشع .

ومن هنا أيضا جاءت استرخاءة التبع الغازى حسان اليمانى ، التى أقلقت إلى حد الفزع وزيره الأول حنظلة الذى حاول جاهدا تبصيره بمغبة تلك الحالة التى استسلم لها - التبع -وسرت عدواها بالتالى فى جسد جيشه الغازى ، بل ومن بقاء لاطائل منه ولا نفع فى ربوع تلك البلاد .

كان الوزير الأول واسع المعرفة - على أقل تقدير - بطبائع المهزومين ، خاصة على طول تلك البلاد والوهاد ، ومايمكن أن يدبروه ويحيكوه فى الخفاء ، ستفصح عنه الأيام

والليالى الحبالى بحسب توقع أميرة اليمامة « الزرقاء » وسبابها حين واجهته جريحة تنزف تحت سنابك خيله فى دروب اليمامة ليلا :

– غداً تريك الأيام والليالى الحبالى ياحسان الكثير من خباياها .

كان الوزير على دراية بمدى فداحه الكارثة التى تنتظر التبع ورجاله ، فى دمشق ولبنان وفلسطين مسرًّا لنفسه :

– أحقا مايحدث . . يالها من كارثة .

فهى فعلا كارثة لابد وأن يصادفها – يوما – كل غافل . . أو مغفل :

– مثلما حدث تماما لأبيه التبع أسعد حين واصلت جيوشه الزاحفة مشارف الصين إلى حين استسلامه مسلما مقاليد أموره ، لأحد الملوك الآسيويين الأسرى الذى اتخذه دليلا وحافظا لأسراره يسيره على هواه ، فما كان منه إلا أن ضلله وضلل جيشه لسنوات فى ربوع الشرق الأقصى ، فكان انسحابه وموته – المبكر – حزنا وكمدا .

وها هو التاريخ يعيد نفسه تماما مثلما حصل مع الأب أسعد الذى غرق فى غفلته وترك دليله « مقطوع اللسان » يتحكم فيه كما شاء ، ثم ليغرق الابن –حسان – فى غفلة مماثلة مع قبيلة بنى مرة التى أسلم قياده لها طالبا مصاهرتها بالزواج عنوة من أميرتها «الجليلة بنت مرة » ضاربا عرض الحائط بقصة حبها ، التى باتت مضرب الأمثال ، لابن عمها الفلسطينى كليب بن ربيعة الذى صلب والده على بوابات دمشق عاريا مسمرا على مرأى ومشهد من سكانها الدمشقيين :

– ما الجدوى ؟

وهو – أى التبع – يعرف أكثر من غيره مدى دموية أولئك الأقوام فى دمشق وفلسطين وتربصهم للانتقام مهما طال الزمن .

منذ أن عزم التبع حسان على مصاهرة « آل مرة » وبعد أن فشلت محاولات الوزير حنظلة فى تغيير رأيه عقد النية على مجرد تلبية كل أوامره ورغباته التى أصبحت لاتنتهى :

ما يأمر به . . مشيرا !

بدءا من تحضير قوافل الجمال والخيول المحملة بأكياس وصناديق الهدايا التى كانت تنوء بثقلها الجمال ، بحيث آثر الجميع استخدام الفيلة المجلوبة من مجاهل الهند والبنغال والتركستان ، مرورا بالعزائم والحفلات والاستقبالات التى لاتنتهى تكريما لآل مرة وانتهاء بالعرس المرتقب الذى لن يقتصر الأمر فيه على الحفلات وإعداد المأكولات والمشروبات ، بل سيشمل أيضا بناء القصور والسرايا وتأثيثها وتزيينها احتفالا « بعرس التبع » الذى أصبح يترقبه الجميع فى دمشق وبيروت وعمان والقدس واليمامة وتدمر ووادى الحجاز ، ناهيك عن اليمن ومدنها فى حضر موت وسبأ وتعز ومعين وقيتبان .

فها هى الجموع تتطلع متلهفة إلى عرس التبع من الجليلة بنت مرة التى كان الصغير والكبير يتحدثان عن ندرتها وفروسيتها – بين نساء العالم :

تقول العجوزة التى شاهدت ،

مليحة تريح العنا والصدور ،

يا أمير تبع يداك فيها السعود ،

وأقبل الخير لك والسعود ،

أتوك « بنو قيس » أهل السماح

وجابوا لك الخيل ثم النقود ،

وجابوا « الجليلة » لشخصك حليلة ،

بخدين حمر وعينين سود ،

وقامة طويلة كعود القنا ،

فوق الكتاف ترخى الجعود ،

بشعر طويل ورمش كحيل ،

بلا جر ميل تصيد الأسود ،

وذات شفايف رقاق نظاف ،

عقايل طرايف تزيل النكود ،

لها وجه كبدر بليلة قدر ،

ووجنات حمر كما الورود ،

وجسم رقيق وريق رحيق ،

وأسنان لولو سبت الورود ،

لها عنق كعنق الغزال ،

وطوق الذهب يوقد وقود ،

كتاف كالعاج كمثل الزجاج ،

والنقش مواج فوق الزنود ،

وكفان أطرى من الياسمين ،

من قد حواها ينال السعود ،

وهكذا أسلم الملك حسان كل حواسه ، لمن يأتيه بجديد عن مدى حسن عروسه المرتقبة الجليلة بنت مرة وروعتها .

لذا توافدت الوفود من كل صوب على قصر التبع تلهج متغنية بمحاسن الجليلة ومآثرها التى لاتقتصر بحال عند الجماليات البدنية ، بل من حيث رجاحة عقلها وصائب حكمتها وشعرها وغنائها وفروسيتها فى الصيد والقنص ، عبر غابات أرز لبنان ومروجه المكتـظة بالأشجار .

وهكذا تغنى الجميع بالعروس المرتقبة على عتبات قصر التبع الغازى :

قد زين بنو قيس لك عروسا

تجلى لأجلك كل هم وقود ،

للمك حقا قد أحضروا

مليحة خلالها تزيل الحقود

فارسل وراءها وخلى المحال

واسمع كلامى واجلى الصدود .

وخلال تصاعد تلك الحمى المستعرة بالغناء والإنشاد للإعلاء من شأن الجليلة بنت مرة ومحاسنها ، كل ليلة على بوابات وأعتاب قصر التبع ، لم يجد الوزير الحكيم «حنظلة» منفذا لإعادة اجتذاب اهتمامات الملك لشئون حكم تلك البلاد المترامية الأطراف .

ومن هنا تزايدت المشاكل ، متراكمة بلا حلول ، سواء على طول ربوع بلاد الشام ، أو ما يستجد من صراعات فى اليمن وجنوب الجزيرة والسودان والقرن الأفريقى .

بل إن التبع آثر تكثيف وقته بكامله للاستعداد لإقامة عرسه المرتقب وتلبية رغبات العروس - التى لا تنتهى . فهى لم تعد مقصورة على الهدايا وإقامة القصور والبساتين وشق الطرق ، بل تعدت كل هذا لتصل إلى أخص خصائص الحكم ذاته ، بتعيين مقربيها على طول المدن والثغور والبوادى والحصون ، إلى درجة دفعت بالوزير «حنظلة» إلى التساؤل الملح ، عن أحقية تلك المرأة فى مد وإرساء أصابعها العشرة فى كل شئون الحكم وهى ماتزال بعد خارج جنبات هذا القصر - الحاكم - تساءل

-ترى ماالذى ستفعله يوما ، حين تتربع على هامة عرش التباعنة ؟

من يدرى ، بل من يمكن له مجرد النطق بأهوال الكارثة المنتظرة المخيمة التى ستحل على رؤوس الجميع .

غمغم الوزير لنفسه متحسرا :

- من يدرى بأبعاد وأهداف سيطرة بنى مرة عن طريق تدعيم رجالهم وأعوانهم على طول البلاد وعرضها ، ثم ذلك الفشل الذى منى به التبع والجميع على مدى الشهور الأخيرة ، لاستطلاع ما حل بخطيبها السابق :

-كليب بن ربيعة !

ذلك اللغز الكبير الذى تقطعت أخباره على حين غرة ، فلم يعد اسمه الذى لم يكن لينقطع له دوى يسمع أو ينطق به أى لسان .

- ما الذى يحدث . . فى الخفاء ؟

على هذا النحو واصل الوزير « حنظلة » طرح تساؤلاته بينه وبين نفسه ، دون أن يفصح عنها للتبع حسان لامن قريب ولا من بعيد بعد أن أعيته كل الحيل فى تبصيره ، بما أصبحت حقا تخبئه الأيام والليالى ، على حد قول ، تلك الأميرة المقتولة :

-زرقاء اليمامة .

وهكذا أعطى الملك حسان سمعيه - وقبل كل شىء - لكل من يجيئه بأخبار الجليلة ورجاحة عقلها وشعرها ومعلقاتها المتداولة عنها ، حتى إذا ما كتبت تخاطبه مرة ، أطارت صوابه برصانة شعرها وموسيقاه ، والأدهى من ذلك صوتها ومدى نقائه وطلاوته ، كما حدثه بهذا الجميع :

مقالات الجليلة بنت مرة ،

حسان . . أنت قيدوم السرايا ،

تحكم فى القبائل والعشائر ،

كل المدائن والقرايا ،

وحكمك نافذ فى كل أرض ،

وتخدمك القبائل مع الرعايا .

لكم حلم التبع حسان بأن يسمعها ( أى الجليلة ) تغنى له ليلا معلقتها عنه بصوتها الشجى الذى يشمخ فى نبرته شموخ أرز لبنان .

وها هى الجليلة بذاتها أصبحت فى الطريق إليه محملة بمئات الصناديق من هداياها وممتلكاتها وخيولها وهوادجها ، لتحط على عتبات قصر التبع .

وهكذا انشغلت العاصمة دمشق عن بكرة أبيها تبيت وتصحو على انتظار العروس وما تحمله ، ليأتى العرس بعدها بصخبه وسمره ومباهجه التى لا تنتهى .

– تلك الليلة الليلاء . . المرتقبة .

ولعلها فعلا ستكون ليلة ليلاء بعدما أصبحت هاجس أفكار الوزير حنظلة ، دون ان يعرف لذلك سببا واضحا :

– هل حقا مايحدث ويجرى ، أن تصفو القلوب بين الأغنام والذئاب على هذا النحو؟ !

تساءل الوزير وهو يدور فى جنبات القصر الشاهق صادرا تعليماته وأوامره التى تلقاها من التبع بحيث يجرى تنفيذها بكل دقة وحزم ، مع مراعاة اليقظة الكاملة لخبايا تلك الليلة المنتظرة التى أصبح يتوقعها الجميع على أحر من الجمر .

فالتبع الغائب عن كل وعى وإدراك ، أصبح لا حلم له على طول ملكه المترامى سوى انتظار تلك الليلة التى ستأتيه بالجليلة بنت مرة .

وهنا يكون قد حقق هدفين بحجر واحد ، أولهما استحواذه على الجليلة بنت مرة بجمالها ومواهبها ومدى الشعبية الجارفة التى تتمتع بها على طول هذه البلاد التى جاءها غازيا فاتحا .

ثانيهما هو نجاحه فى ضرب وفرط عقد ذلك التحالف بين « بنى مرة » وبين « بنى ربيعة » التغلبيين الفلسطينيين :

– وهو مالم يدركه الجميع .

هكذا أسر الملك حسان لنفسه ، مبررا مدى انكبابه على استعدادات التحضير لعرسه وزواجه من ابنة آل مرة

بل وبهذا المنطق المتعقل نفسه واجه التبع حسان وزيره المقرب « حنظلة » فى محاولة لتبصيره بأهدافه من إنجاح خطوات ومراحل هذا الزواج بالشكل اللائق ، واعدا ومتعهدا بالتفرغ لحل كل ما استجد من مشاكل ، وعلى رأسها بالطبع تشتيت فلول «بنى ربيعة » وأميرهم المتمرد فى شعاب الجبال المحيطة :

– كليب بن ربيعة ، وشقيقه الأصغر الملقب بسالم أو الزير سالم .

فكيف للملك حسان ، أن يغفل لحظة عن كليب ، وذلك الانتقام المبيت له ، خاصة وهو الذى - أى حسان - سبق له صلب والده - ربيعة - على بوابات دمشق .

بل إن التبع أرسل فعلا بقواده وعيونه من كل حدب وصوب لترصد أخبار كليب وتصيده أينما كان ، فى لبنان أو وادى الأردن وفلسطين أو شمال الجزيرة العربية .

لكن الغريب هو انقطاع أخبار كليب وكل أثر له من كل تلك البقاع والوهاد ، خاصة عقب إعلان التبع الزواج من الجليلة - خطيبة كليب السابقة - وموافقة أهلها وموافقتها هى ذاتها على ذلك .

وهكذا فشلت كل محاولات التبع حسان للإيقاع بكليب، أو حتى مجرد معرفة ماحل به ، سواء عقب مقتل والده ، أو عقب تخلى الجليلة بنت مرة عنه ، مفضلة الارتباط والزواج بالملك الغازى المنتصر:

-فلعله الآن ، نهبا لأحقاده ينهشه الندم .

لكن كيف للتبع حسان أن يهدأ بالا ، طالما كليب بن ربيعة حر طليق ، هو ورجاله من بنى ربيعة .

كيف له ان يهدأ ويصفو بالا ، وهو الذى سبق له التمثيل بأبيه وإخوته باستثنائه هو وها هو اليوم يسلبه حبيبة قلبه ، الجليلة بنت مرة ، التى أصبح ينام ويصحو على أخبار محاسنها ، وهى فى الطريق إليه إلى دمشق وغوطتها الساحرة .

# 7

## خديعة التبع المتجبر

كانت خطة الأمير الفلسطينى « كليب » التى رسم أبعادها وخطواتها مع حبيبته «الجليلة بنت مرة » تتمثل أولا فى قبولها وترحيبها الشديد بالزواج من الملك التبع حسان :

– فليس فى الوجود كله ، من هى أحسن وأرفع حظاً منى . . أن تمتد إلى شخصى الضعيف أنامل « ملك الملوك التبع حسان » .

باغت كليب الجليلة مقررا :

– وأرجو ان تنسينى تماما ، وكما لو أننا لم نلتق من قبل .

– كيف ؟

– سأختفى عن كل الأنظار .

تساءلت الجليلة وهى تتطلع ببصرها عبر الأفق اللانهائى غير مصدقة :

– كل الأنظار . . أين ؟

قاربها كليب مهونا وهو يأخذ أناملها بين كفيه فى حنو :

– سأخبرك ياجليلة فى الوقت الملائم بمخبئى وأين سأكون .

أعادت الجليلة التساؤل :

-وحدك ؟

- لا . . بل أنا ورجالى الذين سأعيد اختيارهم هذه المرة بكل حذر .

من جديد قاربته الجليلة فزعة مما يحدث :

- لكنك تعرف ياكليب أكثر من غيرك ، بمدى الخطر الكبير الذى لا مهرب منه . فالتبع لاينام الليل بحثا عنك ، ورجاله وعيونه وبصاصوه أصبحوا لايتركون شبرا فى الأرض بحثا عنك . . وعن رجالك .

ابتعدت الجليلة قليلا عنه مختطفة حقيبة صغيرة من أحد الأركان ، مخرجة مجموعة من الأوراق - الجلدية -دفعت بها إلى كليب قائلة :

- وهذا ماتوصل اليه رجالنا ، وعاد إلى به رسلى من داخل القصر الحاكم ذاته . . ولك أن تتصور بنفسك عقب قراءة كل هذه المدونات ، مدى ماوصل إليه جنونه للإمساك بك .

تناول كليب لفة المخطوطات التى دفعت بها الجليلة بنت مرة إليه ليدفع بها بدوره إلى أحد حرسه و« ناطورجيته » الذى تناولها متعجلا جاريا معاودا حراسته وتطلعه عبر جهات الأفق الأربع ، معتليا أعلى ربوة مشرفة على مكان لقائمها فى تلك الليلة التى غاب قمرها .

كانا يجلسان على شاطىء البحر ، داخل كشك تحيط به حديقة قصيرة الشجر ، على ربوة عالية مشرفة على البحر الهادر المتلاطم الذى تحده فى شبه قوس مراكب الملك الغازى حسان على طول مرمى البصر ومن الجهات كافة . وجرى لقاء كليب والجليلة بأقصى درجات « الحيطة والسرية » بعيدا عن عيون الملك ، وبصاصيه المندسين فى كل شق ، بحثا - وقبل كل شىء عن كليب ، بعد صلب التبع حسان لوالده الأمير ربيعة على بوابات « أمية » عاريا مقلوب الرأس رغم انه كان نصف ضرير .

كما تم اللقاء بينهما فى أقاصى فلسطين ، فى مدينة عكا بالذات التى قدمت اليها الجليلة سرا متخفية ممتطية حمارا :

- أنساك ؟

واجهته بسؤالها هذا فى مكمنه وهى تركز أنظارها على فرورة رأسه وشعره المجعد الأسود المسترسل على حلقات حول وجهه المتوقد بذلك الذكاء المشع والطافح بعلامات الجمال والرجولة التى لايكل منها أى نظر .

عادت الجليلة تنقل نظرها بين كليب وبين سفن التبع الراسية فى البحر بأضوائها المنعكسة على صفحة المياه نتيجة النيران التى أوقدها بحارتها التى طاول بعضها عنان السماء فى ليلة الصيف تلك كى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها . فبدت انعكاسات اللهب أشبه بمليون أفعى مجنونة تلهب ظهر البحر بسياط من ضوء .

وعادت الجليلة تسأل :

- أنساك يامحفوظ ( أحد ألقابه الكثيرة ) . . كيف ؟

ولن أزورك حتى هنا فى عكا ؟

- لن تجدينى فى عكا ، بعد الليلة .

- سيظل قلبى معك أينما كنت .

- ولكن هكذا سنقتل معاً إن لم يكن اليوم فغداً

فوجئت الجليلة بذلك كمن تستيقظ من حبها وسباتها متسائلة :

- نقتل ؟

قاربها كليب إلى أن احتوى وجهها المعبر اليقظ بين كفيه الدافئتين :

- جليلة لا تخافى ، وبإيجاز دعينى أكرر لك إنسى من الآن مابيننا .

انفلتت من بين يديه جارية نحو الماء وهى فى حالة من الذعر الكامل كمن يعانى من نزيف حاد جاء على حين غرة :

- معنى ذلك أنك ستلقى بى فى أحضان ذلك التبع لأصبح ضمن حريمه ونسائه وخصيانه ، أليس كذلك يا محفوظ ؟ (١)

---

(١) أحد أسماء كليب .

اندفع إليها كليب مقاربا موضحا ، وقد عرف قصدها وما يعتريها من اضطراب وسوء فهم :

- الاول نخلص بأقل خسائر من ذلك الطاغية . . حسان .

واجهته :

- وبعدها ؟

- نحكم هذا العالم معاً . . ياجليلتى .

تطلعت الجليلة ببصرها نحو البحر الهادر والافق الرحب وهى تشعر بحب غامر وشوق عارم نحو ابن عمها كليب وكانها فى تيه حقيقى .

فلقد كانت الجليلة بنت مرة تجمع بين دفتى شخصيتها الى جانب ذلك الجمال الأنثوى الباهر ، المجلل باتساع المعرفة فيما أنشدته وعرف عنها من أشعار ومعلقات ، انتشرت إيقاعاتها بين جموع البشر وبكل ماعرف عنها من رصانة أقوالها ومنظوماتها :

يالبنة الأقوام إن لمت فلا ،

تعجلى باللوم حتى تسألى ،

فإذا أنت تبينت الذى

يوجب اللوم . . فلومى وأعدلى ،

وإذا أخت امرىء ليمت على

شقق منها عليه . . فافعلى ،

لم تكن لطموحات الجليلة بنت مرة حدود تقف عندها لذا آثرت الاكتفاء بما قاله كليب لها حيث اعتبرته نوعا من الضمانة التى بموجبها ستواصل مسيرتها المحفوفة بالأخطار كى تنفذ غاياتها كافة والتى منها الاستحواذ على سلطة ذلك التبع الطاغية .

أما كليب المنكوب فى مصرع أبيه أمير بنى ربيعة والفار من وجه سلطة الطاغية فهو بالطبع الأكثر حيلة ودهاء وبالتالى مناورته للخلاص من نير الظلم الذى حل بربوع

هذه البلاد ، بجبالها ووهادها وبحارها ، إثر الغزوة الضارية المفاجئة التى حلت مثل كابوس ثقيل لا قبل لأحد به ، وهما على مشارف الأسابيع الأخيرة لعرسهما وزواجهما الذى كان قد طال أجله .

وهو الزواج الذى تعاهد عليه القومان - بنى مرة فى لبنان ، وبنى ربيعة فى فلسطين - ليكون آخر المطاف ونهاية لتلك الحروب والمنازلات والغزوات التى كانت مستعرة بينهما ، لسنوات طويلة سوداء ، عانى منها الفريقان الأمرين .

أما ما غاب عن أذهان الجميع ، خاصة والديهما - ربيعة ومرة - حين تعاهدا على ذلك الزواج - السياسى - ، هو حكاية حبهما الجارف معا الذى ولد معهما - الجليلة وكليب - منذ مطلع شبابهما ، على مشارف بيروت ، ووهاد صور ، ومروج البقاع ، حيث كان يتم لقاؤهما معا . وكأنهما بهذا إنما يتحديان تلك الحروب والمناوشات والغزوات الملفقة بين قوميهما .

إلى أن حانت مناسبة الاتفاق على زواجهما فضحكا معا طويلا ، بل إن كليبا داعب والده وشيوخ قبائله فى البداية برفضه ذلك الزواج المصطنع إذ كيف له الرضوخ وتقبل الزواج من فتاة - بيروتية - لم يرها أو يسمع بها أو يهفو إليها قلبه .

وهنا دبر له بعض شيوخ قومه وأبناء عمومته أمر لقائه بالعروس الشاعرة الباهرة الجمال التى تلهج الشفاه والأفواه بمحاسنها على طول البلاد وعرضها ، حتى إذا ماتيسر لقاؤهما ضحكا طويلا معا حتى استلقيا على ظهريهما .

بل إن الجليلة بنت مرة استعذبت تلك اللعبة طويلا ، التى تتيح لها فى كل مرة الالتقاء - بحبيبها - كليب على مرأى من الجميع ، حتى ترضى عن اقتناع من الزواج وربط مصيرها الأزلى به :

- فأنا لست سلعة أو بضاعة لإيقاف رحى الحرب على جثتى !

حتى إذا ما افتضح فى النهاية أمر لعبتهما وعبثهما تنفس الجميع الصعداء مستبشرين بوضع حد لتلك الغزوات والمنازعات بين ابناء « البيت الواحد » فأنشد الشعراء الجوالون

وتغنوا بقصة حب الجليلة بنت مرة وكليب . . المرادفة للسلم بدلا من الحرب والعدوان .

إلى أن حل بالجميع ذلك العدوان الغاشم الذى قاده التبع حسان اليمانى ، فجاء ضاريا مؤذياً بأمن الجميع .

كان والد الجليلة الأمير « مرة » المتعاون مع التبع قد أعطاه كلمته بتجهيز الجليلة له .

وها هى الجليلة ستزف إليه .

هنا انتصبت الجليلة كمن تحتضن هواء البحر بأكمله قائلة لكليب :

- ها أنا جاهزة .

استدارت فى أقصى كمدها مقاربة كليبا المتنمر فى إثرها معلنة .

-العروس

واجهها كليب بدوره قائلا :

- إذن فلن يعرف أحد .

غمغت :

-سوى العروس !

هنا اجتذبها كليب من يدها إلى داخل الكشك المزين بأشجار الورود والرياحين جنبا الى جنب مع اللبلاب بعيدا عن العيون ليزف اليها بتفاصيل الخطة .

وتقضى الخطة بأن يجرى تجهيز العروس الفاتنة ذائعة الصيت والجمال وزينة كل النساء بحيث تأتى من بيروت الى حيث عاصمة التبع حسان فى دمشق ، محملة بهوادجها وخيولها المطهمة وصناديقها الثقيلة مع جوقة من وصيفاتها وغلمانها ، بما يسمح بتسلل الكثير من رجال كليب المقاتلين الممتازين ، فى الوقت الذى سينتشر معظم جيش - من التغلبين - على التلال المحيطة بدمشق ، وسيتم كل شىء كما يريد له التبع أن يجرى ويتم بطريقة طبيعية .

-طبيعى .

سوى أن كليبا سيفتعل معركة على مشارف دمشق ، تسمح من جهة بتسلل رجاله الى داخل صناديق محتويات العرس وأثاثاته العملاقة ، وتسمح فى ذات الوقت بتسلل كليب ذاته . باعتباره مضحك أو مهرج أو خصى الأميرة الجليلة المقرب . الذى يضحك الحجر قبل البشر ، متنكرا بكامله تحت هلاهيله وجلود الحيوانات والأصباغ ، متخذا اسم « قشمر بن غرة » ، الذى يلعب بالبيضة والحجر فى ذات الآن .

يضاف إلى ذلك ، اضطرار التبع حسان إلى إرسال معظم حرسه الخاص ورجاله لتخليص - العروس - الجليلة من أيدى قطاع الطرق وعصاباتها لتأديبهم

هنا سيخلو لنا الجو للتسلل إلى حفلة العرس لتسلية التبع الذى لاينام الليل حباً فى اللهو والسمر .

- وهذه ليلة عمره .

بهرت الجليلة من خطة كليب إلى حد دفع بها الى القول بثقة ودون تردد :

- التى فيها سنقصف عمره .

استدارت لكليب مشجعة :

- انتقاما للدم الذى أهدره فى بيروت والبقاع ودمشق والقدس وأسدود فى فلسطين . واجه كليب الجدار كمن يكبت مشاعره فى صعوبة بالغة :

- أبى عريان مقلوب الرأس معلق على بوابات دمشق .

قاربته الجليلة :

- أعمامى وأولاد أعمامى ، وأربعون فتاة من آل مرة .

أخذت الجليلة بيده معاهدة :

- فى كل بيت مأتم . . منذ وصوله .

استرد كليب يقظته وحلمه الكبير ذاك قائلا فى حزم :

- إذن فهى فرصتنا الوحيدة ياجليلة .

-لا تخف .

واجهها كليب مطوقا رأسها ، حتى إنه أسقط خباءها عن رأسها .

- انت الشيء الوحيد الخائف عليه .

لكزته الجليلة ضاحكة مسرة :

- لاتخف . . فلقد أصبح لاينام ليله ، وفى كل يوم تصلنى هداياه من قطعان الجمال والأفيال . . مما تشتهيه النفس .

ضاحكها كليب :

- هكذا الأمر إذا . .

داعبته :

- أليس هذا ماتطالبنى به ، أن أسحره سحرا بكل ماأوتيت وهكذا أصبح التبع - المفترس - حسان بن أسعد مجرد خاتم فى إصبعى .

- هائل .

واستطرد كليب مع الجليلة شارحا بكل دقة تفاصيل خطته ومسالكها خلال مراسيم هذا العرس الدامى المرتقب وكيفية إعداد رجاله ببالغ السرية والكتمان . وحتى كيفية تصميم صناديق جهاز العرس وخصوصيات العروس الجميلة .

وكذلك حادثها عن مدى إعداده لكتائبه المرابطة على طول الطريق بين بيروت ودمشق بسرية مطبقة .

وكانت الجليلة كثيرا ماتستوقفه مستوضحة طارحة مختلف ظروف الاحتمالات ومنها إمكانات الانكشاف والفشل لخطتهما بالغة السرية على نحو يثير كل حمية كليب وتوقده ، وإحكامه لاحتمالات الوصول الى رأس التبع الطاغية الغازى ليجزها جزاً متخذا مكانه إلى جانب الجليلة فى حكم الشام وفلسطين ، وإنهاء سطوة ذلك الغازى الذى

آتت جيوشه على كل آخضر ويابس فى بلادهم ، والذى يصل به تسلطه الى حد التفريق بين حبهما وهما اللذأن سبقا ان تحديا به كل الحروب والعداوات بين قوميهما .

حتى إذا ماشارف اللقاء بين الجليلة ومحفوظ أو كليب بن ربيعة نهايته وطواهما الصمت الطويل داخل ذلك الكوخ المشرف على البحر المتلاطم قاتم الزرقة ، وهما هائمان فى أبعاد خطتهما وتفاصيلها ، احتضن كليب الجليلة مودعا ، إلى أن حملها حملا بين ذراعيه ، ليركبها حمارها المطهم ، عبر الصمت والظلام المخيمين .

# 8

## العرس الدامى

لعلها كانت أصعب عملية اضطلع بها وزير التبع حسان ، تلك التى كلفه بإنجازها منذ أن التحق بخدمته ، وهى عملية الإعداد لمراسيم زواجه تلك الليلة الليلاء .

فمنذ مطلع النهار ، وطلبات الملك وأوامره المتسمة بالعصبية والقسوة لوزيره «حنظلة » لاتنتهى مابين اختيار المدعوين من ممثلى القبائل والعشائر والأمراء والقواد ، والتوقف طويلا أمام كل اسم ولقب وقبيلة وقوم . واستقبال الوفود المحملة بالهدايا ، ونحر الذبائح وإعداد قصور الضيافة ، واستقدام كبار الفنانين ، من شعراء ومغنين ومنشدين وراقصين لإحياء الحفل ، من مصر وسورية وفلسطين وربوع اليمن .

ناهيك عن مطالب العروس ذاتها ، وأهلها - بنى مرة - التى أصبحت فى الأيام الأخيرة لا تقف عند حد ومطمع .

والملفت فى الأمر أنها مطالب غريبة تدفع إلى كل سخط وشك ، إلا أن « التبع » لم يعد يسمع لأحد نصحا أو مجرد رأى بسيط سواها :

- الجليلة بنت مرة ومراسيلها ومعلقاتها الطاغية .

تلك الأميرة - اللبنانية - التى سحرته بشعرها ومعسول قولها ، قبل محاسنها ، فكان أن أحبها التبع من قبل أن يراها أخذاً بالقول المأثور « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » .

حتى إذا ما سنحت – للتبع العاشق – رؤيتها بطريقة مباغتة ساحرة للمرة الاولى ، أردته من فورها صريع هواها وعشقها.

ذلك ان الجليلة بنت مرة – وكجزء من خطتها – فى تملك قلب التبع حسان ، دبرت خطة ذكية مفاجئة ، لا تخلو من أخطار ، لتلتقى به متنكرة على هيئة أمير فارس شاب ، مع مطلع نهار خرج أثناءه التبع محاطا بفرسانه وكوكبة قوداه المقربين للصيد والقنص فى أحد مروج لبنان .

وهنا تحننت – الجلىلة – تلك اللحظة للالتقاء بالتبع ، وهو يطارد أحد الحيوانات البرية . فبرزت له من بين الأشجار ، بعد أن أردت فريسته بسهمها ، فما كان من الملك التبع سوى الترجل مندهشا من مواجهة ذلك الفارس الماهر المجهول الذى قاربه مواجها :

– من أنت ؟

– أنا قدرك . . أيها الملك .

وبعدما فاق التبع حسان من هول المفاجأة على هذا النحو استل حسامه ، كما لو كان على موعد مع لحظة اغتيال غادرة مباغتة :

– قدرى ؟!

– أجل . . يامليكى .

حتى إذا ما كشفت خباءها عن وجهها الباهر الجمال مرخية خصلات شعرها العسجدى الضارب الى الحمرة ، متقدمة فى حياء مغمغة :

– أنا . . الجليلة بنت مرة !

– أميرتى الجليلة ؟

– أجل .

وضحكا طويلا وهما يطلقان لخصيانيهما العنان إلى أحد المروج المهجورة .

توقف الملك حسان منبهرا فى أقصى نشوته من تلك المفاجأة العذبة التى أرادت بها الجليلة أن تدخل السرور على قلب الملك :

- متى ينتهى كل شيء لنسعد معاً ياجليلة طيلة عمرنا ؟

- أنا طوع يمينك يامليكى .

ومنذ تلك اللحظة والملك حسان ، لا ينسى مقدار السعادة التى غمرته كما لم تغمره من قبل إثر لحظة الفرح تلك التى جعلته ينتشى بالحياة وحبورها الذى يضفيه الحب قبل أى شيء آخر .

ولم يطل لقاؤهما ، ذلك أن الجليلة تعمدت إنهاء ذلك اللقاء الخاطف المفاجيء ، حين ودعته معاودة تنكرها بعدما خلع عليها قلادته الملكية فأطلقت عنان حصانها مسابقة ريح الصباح . . مختفية ، تاركة التبع العاشق ، ليلحق بركبه وفرسانه ، كمثل طائر هائم محلق بين أرز لبنان الساحر المتعانق فى شموخه إلى عنان السماء .

حتى إذا مالحق فرسان الملك حسان به ظل يضحك فى فرح منتشيا ، مما أثار فضول مرافقيه ، عندما فاجأوه مع غروب الشمس تمهيدا للعودة إلى دمشق محملين بأسراب صيدهم !

- نريد أن نعرف صيد التبع اليوم .

- أروع صيد .

إلى أن نطق أحدهم هامسا فى أذن الملك ، مما ضاعف من سعادته :

- لعلها الأميرة . . الجليلة ؟!

فكان كلما اقترب موعد وصول موكب العروس وتوابعها من بيروت إلى دمشق ، كلما تضاعفت أعباء الوزير - حنظلة - نتيجة أثقال الملك التبع المتوتر عليه بالمطالب واستكمال الاستعدادات :

- ألن ننتهى اليوم . . أما من مهرب ؟

حتى اذا ماتدافعت وفود الرسل المذعورة الغارقة فى سيول دمائها قبل عرقها ، بل ومنهم من قطع لسانه من جذروه ، عائدين معلنين الأنباء السوداء عن تعرض موكب «العروس» لعصابات قطاع الطرق ، ونهب كنوزها . . بل وأسرها على طريق بيروت – دمشق ووصل توجس الوزير الى أقصى مداه :

-كيف حدث هذا . . الحليلة ؟

وهاج الملك التبع حسان وماج على طول جنبات قصره وقلاعه حين وصله الخبر ، الى حد التطاول بل والتعدى بالقتل لبعض مساعديه وحاشيته ، فلم يسلم من غضبه الجارف أحد ، حتى الوزير حنظلة ذاته :

– لزوجتى . . حليلتى . . يحدث كل هذا !

بل إن حنظلة وجدها فرصة ذهبية لمواجهة التبع الغازى ، وتبصيره بما ينتظره من ألاعيب أهل هذه البلاد من آل مرة والبكريين والتغلبيين . فمن الواجب عليه – أى التبع – التنبه والحرص – ولو – على الدم الذى أريق وسفح على مشارف تلك التلال والوديان والبقاع وصحارى الأدوميين ، حتى استتب له الأمن بعد فتحها وحكمها .

إلا أن الملك لم يتح لوزيره كلمة عاقلة واحدة مواصلا هياجه كمثل جمل منتقم مفلوت العيار ، وهو يسعى إلى حتفه سعيا ، بكل ما أوتى من جبروت :

– كيف يحدث ماحدث . . لزوجتى ؟

صادرا من فوره أوامره ونواهيه لكبار قواده وفيالقه وحرسه الخاص ، وكل من طالته يداه ، لإنقاذ العروس وإحضارها أينما كانت .

والأدهى من ذلك أن تغيب كل قوة وحامية بسرعة الريح ، ثم تمضى الساعات ولاتعود بخبر:

ما الخبر ؟

هنا يشتعل غضب التبع وانتظاره أكثر فأكثر مرسلا بمجموعة أخرى فى أعقابها :

– ثلاثة قواد يرحلون . . ولايعود منهم أحد بالخبر اليقين ؟

حتى إذا ماحط المساء جاثما ، وضجت مدينة دمشق عن بكرة أبيها متندرة بعرس التبع الغازى الذى استحال إلى كارثة :

- فضيحة !

انشقت الأرض فجأة عن العروس وموكبها الهائل ، فى حالة من الذعر والفوضى الشديدين .

حتى إذا ماتسلل موكبها من جمال وخيول بأحمالها إلى داخل عتبات قصر التبع الحصين دون أدنى رقابة ارتمت العروس من فورها بين أحضانه باكية كمثل مراهقة غريرة .

وأمام انبهار التبع حسان من جمالها وروعتها وكامل زينتها وإيماءاتها العذبة وتدللها ، أمر من فوره بإدخال صناديق عرسها ووصيفاتها وتوابعها من خدم وحشم ، مشيرا :

- أقيموا الأفراح .

وعلى الفور علت الزغاريد والغناء ودقت الدفوف ، وامتدت سماطات وموائد الطعام . . ولهجت الألسن بكل لهجة ولكنة ولسان بمحاسن العروس . . والعرس ، إلى ان اختلط الحابل بالنابل ، فى تلك الليلة التى اعتراها التوتر والمفاجآت منذ مطلع النهار ، بما ينبىء عن اختتامها بحادث جلل .

هكذا بدا الأمر للوزير وهو يرقب مجريات أمور هذا اليوم الرهيب وماسينتهى إليه .

تساءل الوزير وهو يرقب متطلعا فى وجوه أهل العروس وأقاربها وخدمها وحشمها ومهرجيها متسائلا :

- كل هذا الجيش !

مضى يرقب مايحدث على مشارف مخدع التبع ، الذى استسلم للجليلة ، الى حد إجلاسها إلى جانبه على « عرش التباعنة » ويستغرق من فوره من تتبع مضحكيها وسمارها الستة وهم يقفزون متراقصين عابثين هنا وهناك على أصداء الموسيقى الصاخبة .

وعن للوزير السؤال عن أحدهم وكان أبرزهم حركة وقرباً إلى قلب العروس - الجليلة بنت مرة - :

-فقيل له إن اسمه « قشمر بن غرة » ، وهو مضحك الأميرة .

انسحب الوزير محاولا جذب انتباه التبع لما يجرى فما كان منه إلا انه أغلظ له القول ، إلى حد الإقلال من شأنه أمام الجليلة التى بدت للوزير ساعتها وعيناها لا تغفل عن مهرجها « قشمر بن غرة » مما دفع بالوزير إلى الانسحاب حفاظا على ماء وجهه ، وهروبا بجلده مما يحدث .

وراحت الجليلة تروى على التبع نكات ومداعبات مهرجيها وتهكماتهم الذكية وخاصة هذا « القشمر » . مشيرة إليه بساعدها الخمرى اللون البض الملمس

فاندفع « قشمر بن غرة » من فوره قافزا راقصا هازلا تحت رقع ثيابه ، متمنطقا جلد النمر ومتقلدا سيفه الخشبى وسوالفه مدلاة كمثل « كبش » :

- من ينادينى . . من . . من ؟

- اسمع ياقشمر .

- سيدتى . . مولاتى .

مضى المهرج مشهرا سيفه الخشبى ، ممتطيا عصاة الجريد كمثل فارس مغوار يجرى فى هزل .

وحين أغرقت الجليلة فى الضحك إلى حد الارتماء امتدت يد التبع ساندة لها فى حنو:

- حقا إنه يضحك طوب الأرض ياجليلة .

- حقا بهلول نادر .

- يزيل الغم ويفرج الكرب .

واندفعت تحادث التبع المنتشى عما حدث لها من رعب خلال الطريق ، إلى أن ضاقت بها السبل فأعادها إلى حيث البهلول والمرح والغناء وليلة العمر هذه :

– لننس مامضى ياجليلة ياحبيبتى .

هنا كان المهرج قشمر قد أوصل الجليلة والجميع إلى أقصى حالات الاستغراق فى الضحك الذى لم يخل من مجون ، إلى أن تجرأ معبرا عن نفسه بعد تصنعه الخوف والهلع طويلا من التبع وهيبته وتاجه .

« فمضى من فوره راقصا بسيفه الخشبى ، وكان تارة يبحلق عينيه ، ويدق الأرض برجليه ويديه ، وتارة يقول :

– اين الفرسان الفحول . . اين ابن عطبول؟

« وكثيرا مايرقص ويضحك بلا سبب ، وهو راكب الفرس القصب ، إلى أن اندهش التبع من أعماله ، واستغرب أحواله وأقواله » .

بحث التبع فجأة بعينيه عن وزيره حنظلة فلم يجده . هنا شاغلته الجليلة وهى تلاطفه :

– تعبانة

عندئذ تدخل « قشمر » عابثا مضاحكا قائلا :

– إن كنت تريد الطرب الآن ، فمُرْ سيدتى الجليلة تغنى لك ، فإن صوتها مليح ولفظها فصيح .

وطلب التبع منها أن تغنى ، فهو ينتظر على أحر من الجمر سماع صوتها وأشعارها وإنشادها .

هنا واصلت الجليلة تدللها مدعية الحياء والخجل من جموع الموجودين ، مطالبة باغلاق الأبواب حتى لا يسمع أحد .

وما أن انسحب المدعوون بإيماءة من عين التبع ، حتى تطوع قشمر بالحنجلة هنا وهناك مغلقا أبواب المخدع بنفسه فى هزل .

ثم عاد مقدما قيثارة مذهبة للجليلة التى ارتفع صوتها مغنيا شجياً ساحرا :

بحضرة تبع الملك المسمى

بحسان إذا ماشن غاره .

وقد أمسيت فى قبضة يديه . .

ومن حبى شغل قلبى بناره .

ألا ياحارس البستان صنه . .

وإن فرطت فى الطير . . طاره .

وحين وصل الطرب بالتبع الى أقصى مداه ، زاد به الوجد والغرام ، إلى حد مطالبة الجليلة بالغناء دون توقف ، إلى أن عاجلها قائلا :

- مثلك حقا ياجليلة نادر بين النساء فقد زاد سرورنا هذا المساء .

هنا أيقن - كليب - المتنكر تحت جلد وأصباغ وهيئة مضحك الأميرة « قشمر بن غرة » أن الوقت قد حان ، فمضى يواصل هزله ، مومئا للجليلة سرا بمشاغلة التبع الغائب عن وعيه .

ثم انسحب باتجاه صناديق العرس والجهاز ، فاتحا فى سرعة وخفة مخرجا فرسانه المختبئين .

إلى أن عثر على سيف التبع ذاته ، فخرج إليه به وقد تقلد درعه .

وهكذا « خرج كليب فجأة الى الملك الأكبر ، وقد احمرت عيناه ، حين تذكر أباه ، فصال وجال فى وجه التبع الذى ألجم من هول المفاجأة .

« ثم قفز كليب مقاربا التبع هاجما ، إلى أن تعرفه التبع وأيقن بالهلاك ، والوقوع فى شرك العقال » .

واندفع كليب جاريا داخل مخدع التبع من دون أن تتوقف الموسيقى أو الغناء ، فهب التبع كالمجنون وقد تعرفه منشدا مرثيته الشهيرة الكبرى :

يقول التبع الملك اليمانى

لهيب النار تشعل فى فؤادى

أمير كليب يافارس ربيعة

ياحامى النسا يوم الطراد

أريد اليوم أن أعلمك شيئا

لتعرف حال أخبار العباد

ولم يمهله كليب بن ربيعة ليكمل مرثيته ، فهجم عليه صارخا :

- « لابد من قتلك كما قتلت والدى ، فأكون قد أخذت بثأرى » .

وتقدم منه ودق عنقه وشهر رأسه عاليا على أسنة رماحه !



# 9

## اغتيال الصحصاح ابن التبع حسان

على ذلك النحو المأساوى ،جاء ذلك العرس الدامى الذى أقامه التبع حسان اليمانى لزواجه من الجليلة بنت مرة . والذى فيه قطع كليب الفلسطينى رأس التبع ، بعد أن أمهله لإنشاد مرثيته الشهيرة التى اعترف فيها ، بكليب وطراده :

أمير كليب يافارس ربيعة

ياحامى النسا يوم الطراد

وهى المرثية التى حملت عبر العصور بإضافات الرواة لما يعرف « بالتراكم الملحمى » .

ففيها يتضح أن التبع القتيل كان على دراية بمصيره الدامى :

وعندى قد تبين بالملاحم

بأنك قاتلى دون العباد

وبعدى شاعرة تنزل عليكم

وعبدى يذبحك بين الجهاد

ويبدو أن التبع يعنى بالشاعرة ، عمته الشاعرة المنتقمة « البسوس » حينما يصلها خبر اغتيالـه بيـد كليب فى ربوع الشام . كـما أن هـذه المرثيـة ، كشفت أبعادالمستقبل - السياسى - لبلدان الشرق الأدنى القديم ، مبشرة بالدور الفاتح الكبير الذى سيضطلع به ذلك الطفل الرضيع - ذو اليزن - ابن أخيه عمرو الذى سبق للتبع حسان

قتله التزاما بالوصية ، كما ذكر فى مرثيته التراجيدية الكبرى على مرأى من الجليلة المتآمرة :

وسيف ذو يزن بعدك يظهر .

تصحبه السعادة فى العباد .

ويبقى ملكه سبعين عاما . .

وبعد ذلك يطوى فى الوهاد .

ويظهر له ولد يدعوه « دمر » . .

شديد البأس مرفوع العماد .

فيملك فى بلاد الشام بعده . .

يجلب الماء من أقصى البلاد .

وهو ماحدث فى أعقاب مقتل التبع حسان ، وتشتيت فصائل بنى ربيعة التغلبيين لجيش الملك حسان من اليمنيين ، الى أن اتخذ كليب مكانه ، معلنا نفسه على رؤوس الاشهاد أنه « التبع الجديد » مشهرا رأس التبع الغازى حسان . وعقد قرانه على حبيبته «الجليلة بنت مرة » التى قاسمته مخاطرة ماأقدم عليه ، متسميا بكليب « ملك العرب والعجم » .

لكن ما إن تواتر خبر مقتل الملك التبع حسان اليمانى وشاع ، من موطن إلى آخر ووصل أسماع عمته « الشاعرة البسوس » ، حتى شقت ثيابها من هول النبأ الفادح وجسامته ، وهى التى لم تبرأ بعد مما حدث وألم بوالدهما - التبع أسعد - وانتهى بموته كمدا وغما واندحارا .

هنا تخلت البسوس عن كل شىء حتى ذلك الغلام الصغير الذى كانت انتزعته من أمه - الحجازية - زوجة « عمرو » عقب قتل أخيه - حسان - له ، والملقب بذى اليزن .

وقررت من فورها المناداة فى أقوامها اليمنيين بالانتقام وأخذ الثأر ، من التغلبيين

والفلسطينيين – وآل مرة – اللبنانيين – فى آن واحد ، بل ومن كل الذين دبروا تلك المؤامرة الغادرة على ذلك النحو الغادر الأليم :

ياللدناءة . . ياالثارات حسان !

وعلى الفور قرعت طبول الحرب والانتقام العملاقة – الرجروج – على طول أقوام اليمن والخليج العربى ، معلنة الخبر الفادح ، والاستعداد للخروج والقتال انتقاما لدم التبع المسفوح على ربى دمشق وبيروت والبقاع .

وحين حاول « ذو اليزن » الصبى ، الإلمام بما جرى ، وأخبرته عمة أبيه البسوس نادبة الحدث ، أبدى الصغير استعداده لمصاحبتها فى حربها .

إلا أن البسوس نكبت أكثر حين جاءتها الأخبار بما حدث لجيش التبع وفيالقه التى نجح التغلبيون فى إفناء بعضه ، وتشتيت الجزء الأكبر منه ، فى أكبر كارثة انتقامية تعرض لها عرش التباعنة ، منذ التبع حميد بن عبد شمس الملقب بسبأ .

وهكذا لم يعد يجدى الإسراع بإعداد مايلزم من عتاد وسفن إبحار ، قادرة على الردع ، قبل أن يبرد ويجف دم التبع القتيل بين قبائله وأقوامه .

فحتى ابنه « الصحصاح » الذى كان قد أخذ مكان أبيه فى حكم اليمن ، بدا عاجزا إزاء فداحة الكارثة التى حلت بالتبع وجنوده فى ربوع الشام وفلسطين والبقاع .

ورغم ذلك ظلت البسوس لا هدف لها سوى الانتقام الأسود على ما حل بابن أخيها مهما طال الأمد :

ـ أبدا . . لن تخبو نيران قلبى ، إلا وكليب ممدد مقطوع الرأس بيد عبدى هذا .

بل هى مضت تصب لعنتها على كل من تقاعس أو تكاسل فى الحرب وأخذ الثأر للحميريين المنكوبين ، نتيجة الغدر والخيانة :

ـ الدس فى المضاجع .

وكانت كلما تدافعت إلى قصرها وفود المعزين ، التهبت نيران أحقادها أكثر وأكثر ، مهددة :

ـ ألم يعد هناك رجال فى حمير . . أين الرجال . . أين ؟

الآن جاء دور النساء . . ولاغيرهن .

إلا أن المصائب وتوقيتها لم تمهل البسوس ، إذ سرعان ماتواترت الأخبار بمقتل «الصحصاح » ابن أخيها حسان ذاته ، ليلحق بأبيه فى قصره المنعزل على أيدى حلفاء التغلبيين الفلسطينيين والدمشقيين وعيونهم الذين أصبحوا يتطلعون إلى ربوع اليمن ذاته :

– النكبة ذاتها .

وهكذا انفرط لوهلة ،عقد حمير ، وأصبح يدعو إلى كل مخاطر وتخوف ورثاء ، مما دفع بالبسوس وشيوخ القبائل إلى التعجيل برأب الصدع ، والبحث المضنى ، قبل أى شىء ، عن مخرج من أهوال تلك الكارثة التى حلت دفعة واحدة بعرش التباعنة .

هنا تطلعت الأنظار لتحط على رأس « ذى اليزن » الصبى الذى لم يكن ساعتها قد بلغ الحادية عشرة من عمره ، إلا انه كان منذ صغره متماسكا يحوى حكمة الكبار ، وتنبىء ملامحه عن البأس الذى عرف عن التباعنة ، منذ عبد شمس أو «سبأ» .

وعلى الفور أجمعت الآراء على المنقذ الجديد وهو « ذو اليزن » ابن عمرو – المغدور – الذى اشتهر بـ « مزيقيا » أو الممزق ، ليعتلى عرش التباعنة فى تلك السن المبكرة ، إنقاذا لليمن والجنوب العربى . . بل وجزيرة العرب بأكملها وهى على تلك الحال من التفكك والاضطراب .

فجرت مراسيم تنصيب الملك الجديد ذى اليزن خافتة مبسطة من دون احتفالات وصخب وقرع طبول – الرجروج – وذلك بسبب الحزن الذى ألم الجميع عندما علموا بمصرع التبع حسان وولده الصحصاح ، ولما ألم بعرش التباعنة .

وهكذا قدر لذى اليزن الذى ولد وتربى يتيما فى كنف البسوس التى كانت قد اقتنصته اقتناصا من بين أحضان أمه ، التى فرت بجلدها عائدة إلى قومها بالحجاز ، عقب قتل التبع حسان لزوجها والد الطفل .

بعدها استماتت البسوس فى اغتصاب الطفل الرضيع - ذى اليزن - من بين احضان أمه ودفعت به إلى كبار المربين والحكماء ومعلمى الفروسية لينمو ويشب ، متمرسا عن جدارة لحكم « حمير » ومايدور فى فلكها من أقوام .

وها هى قد حانت فرصتها سانحة ، حين وضعت بيديها الاثنتين تاج التباعنة على رأس « ذى اليزن » ، عبر طقوس الأحزان الجنائزية التى صاحبت مراسم حفل تتويج التبع الجديد :

- ذى اليزن .

حتى إذا ماانتهت - عمة أبيه - البسوس ، من ذلك تفرغت من فورها مبيتة وعاقدة النية على الانتقام لمقتل التبع حسان ، حتى ولو استدعى الأمر اللجوء الى المكائد والفتن واستخدام كل أساليب المناورة والخداع المؤدية إلى تحقيق أغراضها وغاياتها فى الانتقام الأسود لدم التبع المهدور .

فهو ذاته الأسلوب - الدنىء - الذى لجأ إليه التغلبيون وحلفاؤهم « آل مرة » لقتل الملك التبع ليلة عرسه بدمشق .

فكانت كلما استمعت إلى تفاصيل المكيدة التى أودت بحياة التبع حسان ، من عيونها وبصاصيها - شهود العيان - داخل قصر التبع ، اشتعلت أكثر نيران حقدها وتأججت إلى حد أنها أصبحت لاتنام الليل .

- يالها من خيانة بشعة !

بل إن نسج الأقاويل والشائعات حول تفاصيل ما حدث تلك الليلة المشئومة داخل قصور الشام ولبنان ، وصل بكامله إلى سمعها ، ممهدا لها طريق خطتها الجديدة فى الانتقام على ذات النمط « والوتيرة » التى أنهت حياة ابن أخيها وفى عقبه ابنه الصحصاح ، وكاد أن يصل الأمر بعرش التباعنة إلى نقطة التأزم واللاعودة :

- الخراب .

ومن هنا كان لجوء « الأميرة البسوس » إلى الحرب على ذات الوتر . . أى وتر الخداع

والتآمر وإيقاع الفتن والتحريض ، وكل مامن شأنه تقويض أركان بيت بنى مرة وبنى ربيعة .

وفى مثل هذه الحالة ، فمن هو أجدر من البسوس وأكثر باعا وعمقا وأغوارا فى اختلاق مختلف صنوف فن الإيقاع ، وفى زرع البغضاء والأحقاد وشراء الذمم .

– من هو الأجدر فى حمير لها ؟ !

فلا حد ولا نهاية لقدرتها هذه بالإضافة إلى ثرائها وسطوتها التى غدت مضرب الامثال ، بما يتيح لها استئجار أو استخدام البصاصين والملفقين من بلاد الشام وفلسطين طولا وعرضا .

يضاف إلى كل ذلك قدرتها على الحديث والإقناع وهى الشاعرة العريقة صاحبة المعلقات والمحرضات والموثبات والمراثى والمدائح

فمن غير البسوس يمكن له أن يتفرد متفوقا فى أسلوب حرب المخادعة والإيقاع المفضى إلى كل دمار ، تعجز عنه أعتى الأسلحة والرجال ؟

ومن هنا فكبوة حمير ودم التبع القتيل لن يأخذ بثأره غيرها ، خاصة وبعد محصلة المعلومات والشواهد التى جمعتها جاهدة من مدن الشام وبواديه قبل حضره ومدنه ، وبخاصة أخبار ووقائع ذلك التحالف الجديد بين آل مرة فى لبنان ، وبين التغلبيين الفلسطينيين ، عقب زواج – التبع الجديد – كليب بالجليلة بنت مرة ، ووراثة عرش حمير نهارا جهارا .

ثم ذلك الاستحواذ الجائر من جانب « كليب » الذى أصبح يتسمى متعاليا بـ : «ملك العرب والعجم ». ممسكا بمقاليد السلطة والتسلط على حلفائه . . اللبنانيين . . مما أوغر قلوب الأخيرين عليه ، باعتباره لم يرع الاتفاق الضمنى السابق لدى اغتيال التبع .

بل إن الأخبار والأقاويل وصلت إلى أذنى البسوس مبالغا فيها إلى حد معرفتها الدقيقة بتفاصيل الصراع الوليد الخفى المتفاقم بين كليب وأخى زوجته الجليلة المدعو «جساس بن مرة » .

وكيف أن الجليلة أصبحت نهبا لذلك الصراع بين زوجها وشقيقها ، محاولة بكل ما أوتيت من رجاحة عقل ، رأب ذلك الصدع الجديد المهدد بين قبائل زوجها ، وقبيلتها هي - آل مرة - وحتى لا ينتهي الأمر بها إلى ضياع كل شيء .

وهي التي حلمت طويلا وصبرت إلى أوصلها طموحها إلى التربع على ذروة السلطة في دمشق وفلسطين وتوابعهما .

ووسط خضم تلك المسالك والمتعرجات والقسمات الواضحة السمات واصلت البسوس - أو سعاد - تحركاتها ورسم أبعاد خطتها الدامية ، للانتقال بثروتها من خيول وجمال ورؤوس أغنام وأموال ، بالإضافة إلى كوكبة حرسها وأهل بيتها إلى ربوع الشام ولبنان .

إلا أنها تمهلت وأخرت تنفيذ خطتها ورحيلها ، حين وصلتها أخبار جديدة ، تلقتها من رسلها مستبشرة غير مصدقة ، حتى إنها خلعت على الرسل ، الذين حملوا إليها هذه الأخبار ، الكثير من الأموال والهدايا .

ذلك أن والى التبع القتيل حسان على عدن وحضر موت والمدعو بالأمير « عمران القصير » ، وصل به الغضب والضيق من مكيدة مصرع التبع حسان بالشام وفلسطين على ذلك النحو الغادر ، إلى أقصى مداه . فجهز من فوره جيشه وفيالقه استعدادا للإبحار إلى تلك البلاد ومحاربة التغلبيين من بنى ربيعة وحلفائهم ، انتقاما لما حدث وألم بالتبع الذبيح .

حتى إذا ماوصلت الأخبار إلى التبع الجديد - كليب بن ربيعة - عن تلك الاستعدادات التى يجريها « عمران القصير » بعدن وحضر موت ، استنفر من فوره قومه، لأهمية وضرورة التنبه لما يحدث ، وقبل أن « تقع الفأس فى الرأس » ، وتسقط البلاد فى أيدى تباعنة اليمن مرة ثانية .

وهكذا خرج كليب فى كامل عدته وعتاده للقاء جيش عمران القصير الذى جاءهم بجيشه منتقما هذه المرة .

والتقى الجيشان واشتعلت لهيب الحرب ، « حتى عظمت الأهوال ، وظل كليب يفتك بهم وبأفيالهم وبفرسانهم كمثل ليث ضارٍ ، إلى أن تمكن من منازلة قائد اليمانية ذاته - عمران القصير - أياما طوالا ، فظلا فى حرب وقتال ، إلى أن أرداه كليب صريعا» .

وعاد كليب راجعا إلى الشام ، فدخلها «كالبازك » . . أو كمثل صقر محاط بالعز والنصر .

وهنا لم تجد « البسوس » لها منفذا ، سوى مواصلة استعداداتها للانتقام الأسود المبيت . . سرا !

# 10

## انتقام البسوس

استبشرت أقوام اليمن والجنوب العربى باعتلاء التبع الجديد « ذو اليزن » عرش التباعنة ، وهو ابن عمرو الذبيح .

وكأن كل ماحدث من كبوات مقوضة لملك الحميريين فى السنوات الأخيرة ، والتى اختتمت بمصرع التبع حسان بدمشق ، لم يكن أكثر من تكفير عن اغتيال عمرو – والد ذى اليزن – الذى تسمى بالممزق أو الذبيح .

وها هو أخيرا ابنه الوحيد ذو اليزن – يحكم حمير ، بعدما أصابها وأدماها من كبوات جسيمة ، جاءت متلاحقة كعقاب على ماقد اقترفت يداها .

وهكذا استراح الجميع مستبشرين بذى اليزن أو «ماء المزن ». الذى عرفه الجميع محبا أولا وقبل كل شىء للعلم والبحث فى أغوار كنوزه ومخطوطاته التى لا تنضب ، لكن وبما لاينفى فروسيته التى شاعت عنه أيضا منذ مطلع شبابه ، مثل خوضه مباريات الفروسية العربية ، والتى لاتبعد كثيرا عن الطراد والنزال . . بل والحرب عامة باعتبارها رياضة العرب القومية .

إلا أن ما اتفق عليه الجميع ، هو مدى سماحته وانشغاله بأمور الناس ومايفيد وييسر حياتهم من إنشاءات لسدود وطرق استجلاب الماء وتصريفه وكيفية التحكم فى مساره ومجراه بما يحقق الرخاء والاخضرار للناس والدواب .

وهى مشروعات السدود والتحكم فى مناسيب المياه باعتبارها مصدراً لكل حياة ونمو.

فجاء اعتلاء « ذو اليزن » عرش التباعنة أقرب إلى بلسم أراح الجميع ، وأخصهم بالطبع أهل العلم الذين التفوا من فورهم حوله معضدين مستبشرين . فلعل فى قدوم هذا الشاب الصلد العف مايحد قليلا من تسلط تباعنتهم وطموحاتهم التى لم تكن لتقف عند حد ، على طول المشرق والمغرب على السواء .

وعادة ماكانت تنتهى تلك الأعمال الكبيرة من حروب وهجرات ، والتى تتخذ من طموحاتها مجرد مطايا لبلوغ الآمال ، تحت أى شمس وموطن ، من مجاهل الصين حتى تخوم مصر ، بكارثة لايعرف لها أحد مدى تقف عنده ، سوى أنها - أى تلك الكبوات والانتكاسات - كانت تصيب الجميع بلا استثناء من كبير إلى صغير .

ومن هنا توسمت القبائل اليمانية فى التبع الجديد « ذى اليزن » ، شيئا مخالفا عمن سبقوه من أسلاف . فلعله سيأخذ بالمشورة أو الشورى التى غابت عن أسلافه التباعنة على طول تاريخهم الغابر . بل إن هذا بذاته ماأصر عليه وزيره وناصحه الأول الذى اتخذه هو بنفسه - ذو اليزن - بمعزل عن عمة أبيه ذاتها ، وهو المعلم والشاعر الحكيم « يثرب » .

فكانت علاقة ذى اليزن بيثرب ، أكبر من مجرد التوقف عند النصح وإسدائه ، خاصة والتبع الجديد ، كان لايزال حديث السن ، لم يتعد التاسعة عشرة من عمره حين وقع عليه الاختيار ، ليلعب دور المنقذ فى حكم حمير وسطوتها التى تخطت جزيرة العرب شمالا وجنوبا .

فالعلاقة بين التبع الجديد - الشاب - وبين وزيره الشيخ المتمرس يثرب ، تخطت دور النصح ، لتلتقى عند النظرة الواحدة والرأى الواحد فى معظم الأمور التى غايتها إفادة التحالف وتوثيق عراه أكثر فأكثر .

واتضح هذا للجميع منذ الوهلة الأولى ، أو منذ أول كارثة واجهها « ذو اليزن » كملك لحمير ، وهى كارثة اغتيال عمه - حسان - وابنه غدرا ، واتساع

صدى الدعوة التى تبنتها – قبل الجميع – عمته البسوس مطالبة بالثأر والانتقام .

هنا فقط تطابقت وجهتا نظر كل من ذى اليزن ووزيره يثرب . وهو ماضاعف من اشتعال نيران أحقاد البسوس إلى حد إعلان غضبها عليه وعلى وزيره « يثرب » :

– ياللخنوع المزرى . . ماذا دها حمير ؟

حتى إذا ماواجهته البسوس بموقفه السابق ، الذى أبدى فيه الرغبة لمرافقتها للنزال وأخذ الثأ ر من مغتالى عمه التبع حسان وابنه ، أجابها ذو اليزن فى حزم :

– أيامها لم أكن تبعا لحمير .

– والآن ؟

– الآن وفى هذا المكان . . تأمرنى حمير.

اندفعت عمته البسوس مواجهة فى حدة ، شاهرة صدرها له :

– أنا حميرا

غمغم الملك :

– أنت عمتى .

قاربها التبع الشاب ذو اليزن فى حنو ، آخذا بساعدها ، مشيرا من شرفات قصره المنفتح على الجهات الأربع :

– هاهى حمير . . الناس ياعمتى !

ولكم وخز ذلك الموقف الذى جاء متفجرا بين البسوس وحفيدها ذى اليزن أعماق قلبها ومشاعرها وجعل منها جرحا غائرا لا يبرأ ، وهى التى مهدت له حكم حمير ، ليخرج ومنذ أول قرار على رأيها وماتشير به هى أولا ، كما اعتادت على الدوام منذ أن كانت فى مثل سنه بل وأصغر ، لذا فلا بد أن فى الأمر شيئا ، زفرت البسوس فى حقد :

– ذلك العجوز الأرقط . . يثرب . . رأس الأفعى .

وهكذا صبت البسوس منذ البداية نيران غضبها وأحقادها على وزير ذى اليزن المقرب « يثرب » دون أن يثنيها شىء عن قرارها الذى أصبح يشويها شيا :

– دم حسان .

وشيئا فشيئا واصلت البسوس نفض أيديها من التبع الجديد الذى لم يعد يأخذ برأيها فى الخروج للحرب انتقاما لعمه حسان . حتى إذا ما وجدت بغيتها فى الانتقام وأخذ الثأر الذى يبدو أن لهيبه اشتعل أكثر فى « صنعاء وعدن » ، أضرمت هى المزيد من النار إلى أن دفعت بابن عم حسان الأمير المدعو « عمران القصير » إلى تجهيز حملة من «مائة ألف مقاتل ، إلى بلاد الشام » .

وكان كليب قد استعد للحرب والقتال ، وخرج للقاء « عمران القصير » . والتقى الجيشان واشتعل لهيب المعارك والحرب ،حتى عظمت الأهوال ، فظل كليب يفتك بأفيالهم ،الى أن تمكن من عمران القصير ذاته ، فصرعه على ذلك النحو المشين الذى لطخ حكم حمير وتباعنتها .

– يالها من كارثة لن يمحوها أى ثأر ودم مراق على روابى دمشق ولبنان وأرض السرو وعباد وفلسطين ، مدى الدهر .

تساءلت البسوس مذهولة كمن فقدت وعيها كله وهى تسير عبر ردهات قصرها على غير هدى .

– أى دم ذلك الذى سيشفى غليلى يوما ، ليستقر ابن أخى التبع حسان فى مثواه الأخير . شردت ببصرها عبر الشرفات المحيطة ، متطلعة إلى وفود القبائل شاهرة الرماح والحراب مطالبة بالثأر لدم التبع المغتال . . وابنه – الصحصاح – وابن عمه – أخيرا

–عمران القصير :

–الدم . . الدم . . الثأر . . الثأر .

مدت البسوس كفى يديها وكأنها تستشف وتقرأ ماتخبئه الأيام والليالى الثكلى من أحداث جسام حبلى بالثأر المبيت .

– رأس كليب بن ربيعة .

أرخت فجأة ذراعيها منكسة ، كمن أسقط فى يدها يائسة ، من فداحة الأخبار

الأخيرة التى حملها إليها رسلها وبصاصوها الفارون الذين عادوا أدراجهم إثر الانتصار الأخير الجديد الذى أحرزه كليب بن ربيعة على جيش عدن وصنعاء :

- ياللعار .

اندفعت البسوس من فورها صارخة فى وصيفاتها :

- أين الجثمان ؟

- بالقاعة الغربية يامولاتى .

مضت من فورها متشحة بخبائها الأسود عابرة صفوف المعزين من رجال ونساء . إلى أن وصلت إلى حيث التابوت الحجرى الجرانيتى الذى ووري فيه جثمان الأمير «عمران القصير» مشيرة للحراس برفع الغطاء حتى إذا ما وقعت عينا البسوس على الجثمان المسجى بلا رأس ، تراجعت كالمشدوهة من رهبة المشهد .

- أين الرأس ؟

- سمره كليب على بوابات دمشق إلى جوار رأس التبع حسان .

صرخت من فورها :

- والرجال . . أين الرجال فى حمير . . أين . . أين ؟

عم صمت طويل ، لم يقطعه سوى نهنهة النساء وعويلهن فى خفوت وتحسر .

عادت من فورها إلى مضجعها ، عاقدة العزم على تنفيذ انتقامها المبيت من جميع التغلبيين الفلسطينيين وآل مرة اللبنانيين :

- أشفى غليلى من كليب وتلك الملعونة . . الحية الرقطاء . . الجليلة بنت مرة .

وهكذا بدأت البسوس تخطط لانتقامها المقبل . ومن المعروف أنها كانت تحمل العديد من الأسماء والألقاب منها : سعاد ، وتاخ يخت ، وهند ، والبسوس ، بالإضافة إلى الاسم الذى يرد فى الأدب العربى الكلاسيكى « الهيلة » .

وقد قامت ملاحم التباعنة لتنسج عن البسوس ملاحم كثيرة أضفت عليها هالات

أسطورية وحدتها مع المتنبئة الشاعرة الطروادية « كاساندرا » . مثل قصة حبها وزواجها المشابهة لما وقع بين « أبولو وكاساندرا » وانتهى بزواجهما فى النهاية .

فلقد كانت سعاد أو البسوس منذ مطلع شبابها فاتنة باهرة الجمال فصيحة اللسان شديدة البأس دائمة الترحال :

كانت تركب الخيل فى الميدان وتبارز الفرسان ، واشترطت ألا تتزوج إلا من يقهرها فى ميدان القتال .

وكان أن سمع بخبرها ملك عظيم اسمه – سعد اليمانى – وكا ن ملك بلاد السرو – أى الاردن – فركب إليها وبارزها ، إلى أن اقتلعها من فوق سرجها فأقرت له بالغلبة ، وتزوجها وأقام لها حفلا عظيما لمدة سبعة أيام .

بعدها عاد بها إلى بلاده ، وظلت تحكم معه البلادعشرة أعوام ، إلى أن أصيب «سعد اليمانى » بالعمى وفقدان البصر ، فأصبحت هى الملكة كلمتها هى العليا فى بلاد السرو وعباد .

إلا أنها آثرت العودة بزوجها الضرير إلى بلادها خلال فترة تغيب أخيها التبع أسعد وحروبه فى أقاصى الشرق ، إلى أن وقعت ألاحداث الأخيرة الدامية ، التى دفعت بها إلى التصدى للانتقام بنفسها ، والعودة إلى ربوع بلاد الشام ، التى سبق لها أن عاشت وحكمت فيها سنوات عشرا .

لذا فإن البسوس على دراية واعية دقيقة بمجريات الأمور بالشام وبلاد السرو وفلسطين ، بما يسر لها سبل تحقيق أغراضها من أوسع الطرق وأقصرها للانتقام بشكل رهيب وبشع وبصورة أكيدة لايخالجها أى شك .

فما أن حددت يوم رحيلها سرا ، حتى ركبت هى وبعلها الأعمى وبيتها وبناتها وثمين ممتلكاتها وسارت إلى أن حطت رحالها فى بيروت والبقاع بالقرب من « حلة بنى مرة» .

وعلى الفور أرسلت وفودها بغالى الهدايا للأمير « جساس بن مرة » ، حتى إذا ما

استحسن جساس رفيع هداياها إليه ، طلب مقابلتها ، فسعت إليه - البسوس - وأنشدته أبلغ أشعارها :

«بدوام أيام الأمير جساس بن مرة ، ورفع على ملوك قدرك ومكانك ، ونصرك على حسادك وأعدائك » .

وما أن تعجب جساس من فصاحتها وسألها عن حالها حتى قالت :

- « أنا شاعرة أطوف القبائل والعشائر ، أمدح السادات وذوى الجود والأكابر » .

هنا رحب جساس بها للعيش فى دياره وحمايتها من كل معتد .

وهكذا بلغت البسوس مرادها ، فمضت من فورها تنشر الفتنة بين « البكريين من آل مرة » . وحكامهم التغلبيين أو بنى ربيعة وملكهم المتجبر كليب :

- ذلك الذى حرم عليكم الماء والكلأ .

وعندما بلغت ذروتها فى تحريض القبائل ، ووصل الأمر إلى مسامع أميرهم جساس ابن مرة ، بعدما أوغرت صدره ضد التغلبيين وتعديها على قومه ، طالب بضرورة الاجتماع بزوج أخته الجليلة - كليب - و إعلامه « بتعديات أقوامه وجورهم وجورها » .

إلا أن فتنة البسوس كانت قد استفحلت إلى أن وصلت أسماع الملك كليب ذاته ، وتبنى بنى مرة لها فأرسل إلى جساس يطالبه بإيقاف الفتنة وإخراج العجوز الشاعرة من القبيلة .

وهكذا تحقق الانقسام ، ونمت المخاوف وأزهرت التوجسات بين الطرفين .

حتى إذا ما أقدم كليب يوما على قتل ناقة البسوس المطلسمة - التى كان يدعى أنها من سلالة ناقة النبى صالح والملقبة بسراب ، حين اقتحمت - الناقة - بستانه البهيج وسط غوطات دمشق ، والذى يقال! إنه كان « من أحسن متنزهات الدنيا » مما دفع بكليب إلى إطلاق سهمه نحو ضرع ناقة البسوس - السائبة - « ليستقر معتدلا فى ضرعها وليشخب بـ« الدم واللبن » .

حتى إذا ما أدركت البسوس ماحصل وتلفحت بجلد ناقتها وتخضبت بدمها دخلت

نائحة على جساس بن مرة وألقت بجلد الناقة الذبيحة بين يديه . هنا استبد بجساس الغضب .

حتى إذا ماحاول جساس تهدئة البسوس وتعويضها بها تطلب فداء لناقتها أجابت

- أريد واحداً من ثلاثة أشياء :

إما أن تملأ حجرى بالنجوم

أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم

أو رأس كليب بالدماء يعوم .

وهكذا خرج الأمير جساس قاصدا مقر الملك كليب بدمشق ، وما أن استقبله كليب قادما عليه بكامل عدة حربه . . حتى تعرفه ، إلا أن جساس راوغه زاعما له أنه كان فى طريقه للصيد ، وما أن مر بدمشق حتى جاءه مسلما ومعاتبا لقتل رعيانه لناقة ضيفته ونزيلته « العجوز الشاعرة وبعلها الأعمى » .

حين طيب كليب خاطره ، عارضا عليه أربعمائة ناقة عوضا عن ناقة العجوز الضيفة ، واصل جساس خداعه مغيرا الموضوع قائلا :

- « مرادى ان ألعب معك سباقين بالجريد » .

وضحكا ولعبا طويلا فى صفاء إلى أن تحين جساس لحظة مباغتة لاغتيال الملك من ظهره ، « وهز فى يده الرمح وطعنه فى صدره حتى خرج يلمع من ظهره » .

فسقط كليب يتخبط فى دمه ، فندم جساس وتقدم اليه وقبله فى لحيته وعارضيه ، وضمه إلى صدره ، ووضع رأسه على ركبتيه وقال :

- « سلامتك ياأبا اليمامة ، فقد حلت بى الندامة » .

فطالبه كليب بشربة ماء وأنشد مرثيته متحسرا :

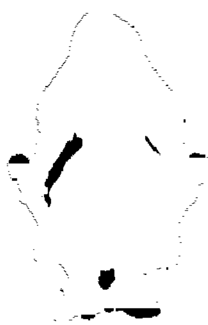
يقول كليب اسمع ياابن عمى

أيا جساس قد أهرقت دمى

أيا غدار تطعننى برمح
ولست أ نت فى الميدان خصمى
على ناقة تقتل ابن عمك
أمير كريم من لحمك ودمك
بيوم الضيق كان يزيل همك
ويردى الضد فى يوم النزال .

وما أن فرغ الملك القتيل - كليب - من شعره الدامى ، حتى ارتعد جساس وذبلت أطرافه وهو يبعده عنه ليسقيه مروعا ، ثم تركه مجندلا هاربا ، لعبد البسوس المختبىء الذى تقدم من الجثمان ليجز الرأس ويعود به إلى سيدته « الهيلة » أو البسوس التى حققت انتقامها من قاتل التبع حسان ، وأشعلت - فتيل - حربها الشهيرة بين آل مرة والتغلبيين ، تلك الحرب القبلية الانتقامية التى استمرت لمدة ٤١ عاما ، والتى اشتهرت باسمها حتى اليوم :

-حرب البسوس !



# 11

## التبع ذو اليزن يحكم حمير

كانت نتيجة احتفاء القبائل والأقوام فى جزيرة العرب بالملك الجديد الشاب « ذو اليزن » وحبهم الجارف له ، هى انخراطه بكل طاقاته فى إعادة بناء مشروعات سدود المياه العملاقة ، التى تتيح للناس الزراعة والرخاء ونشر الاخضرار من بساتين زاهرة وحبوب.

كان الملك يهدف من هذا إلى إعادة بناء واستقامة ما سبق للحرب أن هدمته وذلك لما تتطلبه من رجال ، أجبروا على التخلى عن الزراعة والرعى ، ليساقوا بالآلاف المؤلفة ، أو تحملهم السفن والمراكب إلى ما وراء البحار ، إلى أن تمكن الملك التبع بمساعدة وزيره الحكيم « يثرب » من إعادة بناء سدود « مأرب » التى كانت قد هدمتها السيول ، وتخلى سواعد الرجال عنها انشغالا بالغزو والحرب فى ربوع قارة آسيا وشمال الجزيرة العربية وفى مابين الرافدين . حتى إذا ماعم الرخاء ، ارتفعت الأيدى بالدعاء للملك الشاب ، وتجمعت وفودهم أكثر فأكثر للالتفاف حوله ، وهى تلهج له بالنصر فى كل خطواته .

وتضاعفت فرحة الوزير الأول « يثرب » ، وهو يشهد الجموع على ذلك النحو ، إلا أنه سرعان ماعتراه التغير والاندهاش ، حين تهاوت إلى سمعه الأصوات المرتفعة فى حضرة الملك التبع ، والتى أصبحت تطالبه بالخروج إلى الغزو والفتح ، أسوة بما اتبعه ودرج عليه أسلافه من التباعنة .

وسرعان ماتزايدت الدعوة للغزو والفتح ومواصلة القتال تحت راية التباعنة :

- وحتى لاتنكس سيوف حمير وأذرعها الضاربة .

فلم تقتصر تلك الدعوة مع توالى الأيام والأشهر على العدنيين والصنعانيين ، انتقاما لمصرع أميرهم - المنتقم - عمران القصير ، بل تواترت إلى أسماع الملك ووزيره من كل كيان وموطن وقبيلة والتى علت نبرتها داخل عدن وصنعاء وحضر موت خاصة .

وزاد من عجب الوزير « يثرب » أن التبع الجديد ذا اليزن بدأ يسمع الى دعوة المطالبين بالغزو والطراد يوما بعد يوم ، متخليا عن آرائه السابقة فى التعمير والزراعة ونشر الرخاء .

ولم يمض وقت طويل ، حتى توافدت جماعات المقاتلين وفيالقهم وكتائبهم من كل مكان مشهرة سلاحها ، إلى عاصمة التبع ، بانتظار إشارته بالحركة والخروج للقتال .

وكان كلما تضاعف حماس المحاربين واشتد ، كلما أثنى عليهم الملك التبع مقربا مستبشرا فاتحا لهم ذراعيه وقلاعه وبساتينه ومخازن مؤنه مغدقا عليهم العطاء السخى المشجع لقدوم وفود جديدة من كل قبيلة وموطن تحت حكم « حمير » الشاسع .

حتى إذا ما حاول الوزير « يثرب » مفاتحة الملك الشاب فى هذا الأمر وعواقبه ، قاربه الملك نازلا عن عرشه ، ممسكا فى رفق بذارعه باتجاه شرفات القصر الحاكم مشيرا إلى الناس ، بنفس مافعله سابقا مع عمته البسوس ، قائلا :

« إنما أنا أسير ، حيث تسير جموع الناس » .

تراجع الوزير مفكرا وقد أحاطت به الوساوس من كل جانب ، خاصة عندما أصبحت وفود المحاربين وفيالقهم فى الأيام الأخيرة لاينقطع لها تواصل ، حتى ضاقت مدينة التبع ، على الرغم من رحابتها ، بهم . غمغم الوزير لنفسه فى أسى :

- حقا إنه إرث التباعنة الذى لامهرب منه . . لاحياة بلا حرب أو قتال وأنهار دم .

وتساءل يثرب بينه وبين نفسه فى حسرة :

- ألا يكفى مافعلته البسوس فى إشعال نيران الحرب الضارية فى ربوع الشام ولبنان

وفلسطين ، بعدما أوقعت بينهم بفتنتها التى أصبحت اليوم وبعد مقتل جساس بن مرة لكليب بن ربيعة التغلبى ، تحصد الجميع حصدا . . ألا يكفى ؟

إلا أن التبع سرعان ما انخرط بنفسه بين صفوف جيشه المتعاظم مشرفا ومنظما على تدريباتهم ومؤنهم جالبا السلاح والعتاد من كل مكان .

والوزير الحصيف « يثرب » يستشف ببعد بصيرته نهاية كل ذلك :

- الحرب وأنهار الدم ، تلك التى لامهرب من أوارها وهكذا تحقق حدس الوزير ، بحلول ذلك اليوم المشؤوم الذى أقام فيه الملك ذو اليزن حفلا كبيرا شغل قاعات قصره (الحصن ) واستغرق الإعداد له أياما طوالا .

ودعى إلى هذا الحفل كبار قواده ومستشاريه وشيوخ القبائل والأمراء والحكام ، امتد فيه السمر وتبادل الآراء والمشورة بين الجميع ، حول مايحدث ويجرى داخل مختلف الأقوام المتاخمة لحمير والمناوئة لها ، بما قد يشكل خطرا فى المستقبل .

وفجأة قدم إلى ذلك الحفل شخص غريب ، فى هيئة مسكين أو سائل ، وينم مظهره بكامله - وكما أجمع الجميع - على أنه غريب ، لم تألفه عين من قبل .

وحينما دفعت السماحة بالملك إلى الترحيب بالغريب وسؤاله عن حاله ، أخبره بأنه مجرد سائح جوال فى بلاد الله الشاسعة ، خبر أحوال البلاد والعباد ، مدونا اخبار مايسمعه ويراه . . ولا أكثر .

هنا عاجله الملك بالسؤال :

- وهل صادفك من هم أعلى منزلة منا ؟

صمت السائل ولم يجب :

- إنى أسألك ؟

عندئذ انهمك السائل فى تناول طعامه لائذا بصمته كمن لم يسمع .

وحين تدخل بعض الحاضرين مطالبينه بالرد على التبع ، انتصب واقفا مجيبا :

– أجل

– من إذن ؟

– ملك بعلبك .

– هل سبق لك زيارة بلاده ؟

– أجل .

واجهه الملك ذو اليزن :

– أخبرنى أيها الصديق .

وهنا اندفع ذلك الغريب السائل ، ساردا تاريخه وخصائصه وحصونه وقلاعه وكتائب جيشه – من حراس الأرز – وعن سطوته وثرائه :

– ياللغرابة !

ليلتها لم ينم التبع وظل يفكر وفى النهاية عقد العزم على المسير إلى بعلبك والبقاع مهما كلف الأمر ، لتأمين ذراع حمير الطولى وتحصينها التى أخذ « تباعنتها » على الدوام بمنطق « أن الهجوم خير وسائل الدفاع » .

– أيها الناس ، إن لم تهاجموا الناس هاجموكم ، وإن لم تغزوهم غزوكم .

ولم يطل الوقت كثيرا بطبول « الرجروج » ، حتى سمعت مدوية عالية من كل موطن وقوم ، على طول ملك حمير الشاسع .

واتخذ جيش ذى اليزن طريقه شمالا إلى أن حط رحاله فى موطن يقال له « وادى فزان» على مشارف « بيت الله » فى الكعبة .

وتوقف ذو اليزن منبهرا من الكعبة وبنائها وشموخها ، والآلاف المؤلفة التى قدمت لزيارتها من كل موطن وقوم وكيان .

اما الوزير « يثرب » فقد توجه من فوره للزيارة والحج إلى بيت الله ، مما أوغل صدر التبع ، فحاول مهاجمة بيت الله متجبرا ، وبذل الوزير غاية حكمته محذرا إياه ، الذى

تراجع من فوره متخاذلا ، ثم انسحب واهنا إلى مضاربه فلزم فراشه مكفهرا مريضا ، غير قادر على اتخاذ اى قرار .

ولزم الملك فراشه أياما يعانى من آلامه المبرحة التى ألمت به ، وعجز حكماؤه عن شفائه ، إلى أن ثقل عليه المرض وأصبح يهذى بلا طائل ، طالبا ومستنجدا بوزيره المقرب يثرب شاكيا له :

- أيها الوزير العاقل الخبير يثرب . . أخبرنى بما دهانى ؟

وهنا أخبره الوزير ، بأن مااعتراه من مرض عضال بسبب تطاوله على بيت الله الحرام ، الذى شيده إبراهيم الخليل وبكره إسماعيل - أبو العرب - مزيدا :

- فللبيت رب يحميه . . أيها الملك .

هنا تحامل الملك ذو اليزن ، متخذا طريقه إلى حيث الكعبة فأومأ إليها مثله مثل بقية خلق الله ، إلى أن أتم حجه .

ثم أمر بكسوتها بغالى الديباج وتزيينها بالذهب والفضة ونفيس الأحجار الكريمة التى كانت فى حوزة التباعنة .

وحين عادت إلى الملك عافيته ، وزالت عنه أمراضه وآلامه ، دأب على كسوة الكعبة واستكمال مايلزم من زينتها ومنشآتها .

بينما طاف الوزير الوادى المزهر المتاخم الذى يعبقه رحيق العطور عاقدا العزم على إقناع الملك بالبقاء فى تلك الربوع التى تعيد للنفس صفاءها .

ورجح التبع ذو اليزن ، رأى وزيره بمواصلة البقاء فى رحاب « بيت الله » ، دون استعجال المسير .

أما الوزير « يثرب فقد أخبر الملك مطولا بتاريخ بيت الله ، وماسبق أن تعرض له تباعنة اليمن من أسلافه الذين حاولوا مجرد الاقتراب منه دون خشوع ، ومنهم « يعرب ابن قحطان » .

اما الوزير فقد استغرقه حلم أجهده طويلا ، وهو بناء مدينة تشرف على هذا الوادى البهيج ، ومن فوره عقد العزم ، واجتهد فى تخطيطها وعمارتها ، وشق أساساتها ، ورفع أسوارها وتعمير قصورها ودورها ومضاربها وأسواقها وماأجراه من أنهارها .

وهكذا عمرت المدينة وازدهرت ساحاتها وأروقتها وأسواقها ، ورأى سكانها أن يطلقوا عليها اسم الوزير الحكيم « يثرب » .

وساعد الملك التبع ذو اليزن وزيره فى تعمير المدينة التى أعطاها اسمه ، باذلا كل عون ، إلى أن استقامت « يثرب » زاهرة ، تفيض عمرانا وعطاء .

فلما كان من الوزير إلى أن كتب معلقته الشهيرة للملك ذى اليزن ، التى دونت على رقائق الذهب وعلقت بالكعبة الشريفة ، وفيها يقول الوزير « يثرب » :

- أيـا ملك فـى هـذه الأرض قـد سما

جـللت بيت اللـه خـزا مـزركشـا

يحيـر عيـون النـاظـريـن مـرقمـا

وسـاعـدتنـى حتى بنيت مـدينتـى

يهاجـر إليهـا سيـد الأرض والسمـا

ويظهر - يوما - دين الحق شرقا ومغربا

فلقد كان الوزير « يثرب » ، وعقب نزوله ربوع هذه الأرض ، واختلاطه بأهلها وطوافه على طول بواديها ووديانها ، كمن يستشف أمرا جللا هائلا سيحل يوما بها .

صحيح أنه لم يكن على يقين من أبعاد ذلك الانطباع الذى امتلأ به ، إلا أنه كان وكلما مر به الوقت ، كلما تضاعفت رؤيته ويقينه من تصوره ذاك .

بل إن الغريب هنا أن كثيرين من أصدقائه ومقربيه قد شاركوه ذلك الإحساس .

وأن الملك التبع ذا اليزن ، فاتحه كثيرا فى ذلك التصور حول الإرهاص بمولد شخص كبير منتظر ، قد يغير يوما وجه الأرض ، وسيجىء مولده من بين ربوع هذه البلاد .

وفى البداية تصور الوزير « يثرب » أن الملك ذا اليزن - وعلى عادة ماعرف عنه - إنما

يوافقه فى تصوره هذا ، من باب المجاملة فحسب ، إلا أن الملك كرر على مسامعه كثيرا مشاركته إحساسه ذاك وعبر مناسبات مختلفة ، مما دفع به إلى التيقن من صدق إحساسه .

بل إن حماس التبع فى التعجيل ببناء يثرب واستجلاب مايلزم لبنائها وتخطيطها من خيرة بنائى مصر والعراق والشام وعلى نفقته الخاصة ، قد فاق حماسه ذاته .

ولكم حاول الوزير يثرب ، أن يدفع الملك التبع إلى أن يعطيها – أى يثرب المدينة – اسمه بدلا منه ، إلا أن ذا اليزن رفض مصرا على تكريمه بها .

مما دفع بالوزير إلى مواصلة سهر الليالى بحثا عن شىء – متكافىء – يرد به جميل الملك وحسن صنيعه ، دون جدوى .

حتى إذا ماجاء يوم طالبه فيه الملك ذو اليزن بسماع آخر أشعاره وقصائده ، أمهله الوزير بضعة أيام ليكتب فيها « معلقته » عنه . ولكم عانى الوزير يثرب فى محاولة التعبير عن مدى حبه وتقديره الجارف ، لذلك الملك التبع الذى لايجدوه سوى الخير والعطاء لبسطاء الناس أينما اتجه وقادته قدماه ، إلى أن وصفه فى قصيدة عصماء .





# 12

## البحث عن كتاب النيل ومنابعه

لكم تمنى الوزير الحكيم « يثرب » أن يطول به المقام فى هذه البلاد العاطرة ، على مقربة من « بيت الله » .

فلقد شعر بالارتياح ، الذى شاركه الملك التبع ذو اليزن ، الإحساس به عميقا جارفا ، خاصة وبعدما شفى من بلائه عقب إقدامه على كسوة الكعبة .

بل إن ماضاعف من انشراح قلب الوزير الأول ، هو ذلك النمو المطرد الذى بدت عليه المدينة التى أقدم على تشييدها « يثرب » والتى تلاحق عمرانها وعمرت أسواقها بكل منتجات بلاد العرب والعجم والهند وبلاد الشام ومصر وقرطاج والحبشة .

فأقيمت المبانى وشقت الطرقات وأنشئت الحدائق وملاعب سباق الخيل على ضفاف أنهارها وبساتينها التى اجتذبت الزائرين ووفود الحجيج من كل مكان .

بل إن المدينة وصلت إلى ذروة بهائها وعطائها إلى حد أن الملك التبع نفسه ذا اليزن لم يعد بقادر على فراق – يثرب – وحلو لياليها وسمرها ، ليواصل زحفه على رأس جيشه إلى بقاع لبنان محط آماله عبر رحلة زحفه وفتوحاته ، مرورا ببلاد « السرو وعباد » وأرض فلسطين ووصولا إلى السودان والحبشة .

فلقد كانت تلك الرحلة الشاقة المضنية ، هى الحلم الأزلى للملك منذ صباه :

– البحث عن كتاب النيل .

-كيف ؟

- مصادر النيل .

سأله الوزير ذات مرة :

- أتقصد من أين يجيء النهر ؟

أجابه ذو اليزن ، منكبا بكامله على استكمال مخطوطة دونت صفحاتها على رقائق من جلود الأيائل البرية قائلا :

- المنابع .

ولعل ذلك الاهتمام من قبل الملك بالماء مصدر كل حياة ونمو ، نبت معه - كهواية - ومنذ صباه المبكر ، وكان أيامها فى الحادية عشرة من عمره ، وهو مادفع بالوزير يثرب إلى احتضانه إياه ، وتبنيه منذ تلك السن ، وكما لوكان ابنه أكثر منه معلمه الذى اصطفاه ، وهو ابن عمرو القتيل . .

فلقد كان الماء ومصادره ومكوناته وطرق التحكم فيه وتطويعه لخدمة الناس هو الاهتمام الأول لذى اليزن أينما حل ، فهو موضوعه الذى لايمل الحديث عنه والقراءة فيه :

- فهو ذو اليزن . . أى ابن ماء اليزن .

هو كما لو أنه متحد بالماء ذاته ، باحثا عنه . . مسخرا كل ماتوصل إليه من مصادر قوة ، لإعادة تملكه :

- الماء .

فما من مكان نزل فيه ، إلا وبحث عن مصادر مائه ومصدر حياته ، وإذا لم تتواجد . . « نجدها بسوا عدنا قبل أى شىء » ، كما كان يحلو له القول .

وها هو « يمن » ذى اليزن السعيد ، ينعم بسدوده ومشاريعه التى فجرته - أى اليمن - بالعطاء ، جبلا وسهلا .

بل وها هى « يثرب » التى أرسى الملك بنفسه معالمها تبدو ، كمثل عروس ، عامرة زاخرة بكل ماتشتهيه الأنفس وتستعذبه :

– يثرب . . مدينة النور المنتظر .

وبدا الوزير الأول منتشيا وهو يرقبها – أى المدينة – من مقره المشرف على أعلى روابيها ، كمن لا يطيق فراق حبيبة !

كان الملك التبع ذو اليزن قد عقد العزم على الرحيل ، وكانت قد سمعت طبول «الرجروج » بإيقاعات لها رتابتها المتكاسلة ، تنم عن قرب حدوث الفراق ، مخالفة بذلك إيقاعها المعتاد كالهدير لدى الإعلان عن الحروب والغزوات .

وذلك بعدما طال مكوث الملك ذى اليزن وجيشه طويلا فى ربوع تلك البلاد ووهادها ، مما ساعد على نمو الروابط والعلاقات بين أبناء الجزيرة شمالا وجنوبا .

وهى روابط وعلاقات متشعبة المسالك والأغراض والمنافع ، مابين صداقات ومصاهرات وقصص حب ومصالح تجارية وعمرانية نمت وأثمرت مع بزوغ مدينة يثرب واتساع عمرانها وحوانيتها يوما بعد يوم .

بل لقد وصل الحماس من قبل القبائل والعشائر العربية الشمالية فى نجد والطائف وينبع وعسيران ، إلى حد دفع بشبابهم إلى التطوع والالتحاق بفيالق جيش التبع ذى اليزن ، الذى حل عليهم ونزل حليفا أكثر منه غازيا أوطامعا فى بلدانهم .

وهو مالم يعتادوه مع من سبقوه من جدود وأسلاف – تباعنة – حسان بن أسعد ، وتلك النكبات التى لن تغيب يوما ، والتى أحدثها حسان على طول بلدانهم ومضاربهم، وكما حدث مع قوم « زرقاء اليمامة » وإفناء قبائل جديس ، وتهديم مدينتهم اليمامة إلى حد لم يسبق له مثيل .

من يمكن له تناسى أهوال حسان وسبيه لأميرتها الشاعرة المحبة منفتحة الحس والبصيرة « الزرقاء » مكبلة فى قيودها ، وهى تلعنه وتصفعه بقيودها فى إقدام :

– غدا تسقيك الأيام والليالى الحبالى ياحسان ، من ذات الكأس .

- غدا . . ذلك الذى أراه ، تجز رأسك عن عنقك المتكبر . . بذات أسلوب الغدر.

ولعله هو بذاته ماحدث وانتهى اليه مصير - عمه - الملك التبع حسان .

لكن شتان مابين ذلك الملك السمح البناء ذى اليزن ، وبين عمه حسان .

ومن هنا كان ذلك الحماس الجارف الذى تفجر فجأة ، كمثل نهر جارف مكتسح بين جموع القبائل فى يثرب وما حولها ، حين سمعت طبول الإيذان بالرحيل تجيء دقاتها بطيئة على استحياء وكأنها تود الاستئذان ، لا ستكمال مهام الرحيل والزحف ، وهو ما لم يصدقه أحد من سكان يثرب وتخومها من العرب الشماليين ، حين سرى الخبر سريعا حول إقدام التبع ذى اليزن وجنده على الاستعداد للرحيل عن يثرب وشمال الجزيرة ، لاستكمال رحلة أهدافه فى ربوع الشام ومصر« العدية » حتى أواسط أفريقيا .

وبدت الجموع كمن تستيقظ من غفوتها بعدما توثقت الروابط وازدهرت العلاقات والمصاهرات .

بل إن ما أحزن الجميع لفراق ذى اليزن ، هى تلك المشاريع الجزيلة العطاء والفائدة التى خلفها ذو اليزن ووزيره الحكيم « يثرب » وبقية حاشيته ومقربيه ، من تكريم لبيت الله ، و إنشاء مدينة يثرب ، وشق الأنهار والترع على طول البلاد .

وكانت قد تجمعت الوفود بمشاعلها المتوهجة مودعة ذا اليزن وجيشه معبرة عن مرارة الفراق والغياب .

- تصحبكم السلامة .

وهكذا واصل ذو اليزن على رأس جيشه ، الزحف الذى استغرق أياما إلى أن شارفوا مدينة « بعلبك »، بأسوارها وقلاعها الحصينة التى تقطع بضخامتها الفراغ المحيط ، مشرئبة ببواباتها النحاسية العالية التى يعلوها الحراس المدججون بالسلاح وخوذات الحرب المعدنية اللامعة .

ولم يشأ التبع اليمنى إعلان الحرب أو غزو بعلبك مفضلا الحكمة على العدوان .

كذلك لم يصدر عن ملك بعلبك مبادرة إعلان حرب أو قتال ، حين وصلته أخبار نزول جيش ذى اليزن الجرار بالسهول والتلال البعيدة الغور عن تخوم المدينة .

إلا أن الملك - واسمه أيضا « بعلبك » - وقف مشرفا من أعلى روابى المدينة ، مسلطا عينا لا تخيب بصيرتها على ذلك الزحف الذى لاقبل لمخلوق به ، والمقترب من المدينة ، لكن دون أن يشهر أحد سلاحا :

- هذا ضيفى !

نطق بذلك الملك بعلبك متراجعا قليلا عن جدار النافذة العليا المشرفة على قمة «برج البروج » ، مرتجا من هول الكارثة التى لاقبل له من قبل بمثلها :

- كل هذا الجيش والعتاد .

كان الملك بعلبك قد أمضى يومه بكامله مستطلعا لقطعان الخيول العربية المطهمة والعربات الملكية وقوافل الجمال ، فيالق جيش المشاة ، وقطعان المؤن التى لا تنتهى من رؤوس الأبقار والجمال والماعز

حتى إذا ماقارب دخول الليل التالى وهو مازال مأخوذا بارد الأطراف من هول مايشهد ، ومالم يشهد من قبل ، عاد مؤكدا لنفسه بصوت واضح النبرات لمن حوله من كبار قوداه ومستشاريه وعيونه المسلطة :

- هذا ضيفى !

واستمر الوضع على هذا الحال أياما امتدت إلى أسابيع ، لم يرفع فيها أى سلاح .

- ويلى . . ويلى !

صحيح أن الملك « بعلبك » لم تغفل له عين من هول ما رأى من ضخامة جيش التبع اليمنى ، ومدى حرصهم ، وعدم تحرشهم بأحد ، إلا أن ماأصبح يبحث عنه هو:

- كيف التصرف ؟

وهكذا أمر الملك بعلبك من فوره بإرسال واجبات الضيافة و إعدادها بكثرة تفيض عن حاجة ذلك الجيش ، من رجال ومايليق بهم ومن فى معيتهم من زوجات وأمهات وشيوخ وأطفال .

وما أن انشغلت المدينة عن بكرة بكرة أبيها بإعداد كل ما يلزم من واجبات استضافة جيش التبع الذى لم يبدر منه عدوان إلى الآن « ربما كان يمر مرورا ببلادنا وبلاد جيراننا وغيرنا من أقوام » ، كما أمر الملك ، حتى حمل الحرس المكون من كتيبة مسالمة فى هيئة رسول وآلاف الذبائح المطهية للترحيب بالتبع الملك « ذى اليزن » من قبل الملك «بعلبك » لضيوفه العرب النازلين .

وعادوا من فورهم محملين بشكر التبع ذى اليزن للملك بعلبك . واستمر هذا الحال فى تقديم « العشاء» من قبل ملك بعلبك بضعة أيام ، إلى أن قرر ملك بعلبك الانتقال بنفسه لملاقاة التبع :

- لنعرف ماالخبر . وما يحدث ؟

وهكذا انتقل إليه ملك بعلبك فى حرس بسيط ، فهب الوزير « يثرب » لاستقبالهم الى أن أدخلهم على الملك ذى اليزن الذى رحب به شاكرا حسن ضيافته وهو فى طريقه بحثا عما يشغل باله وفكره عن مصادر الماء . وخاصة :

- كتاب النيل .

غمغم ملكُ بعلبك متحسسا جبهته كمن يمنع نفسه من الإغفاء ، بعد طول عناء :

- النيل .

قاربه الملك ذو اليزن فى مودة وهو يأخذ بيده ليعتلى عرشه إلى جانبه :

-منابع النيل .

وما أن دارت أقداح القهوة العربية ، حتى استجمع ملك بعلبك كامل توهجه ، وكان ضخم البنيان ، كث الشوارب والحاجبين ، محبا للحياة ومباهجها ، وبدا للحظة مفتونا من مشهد الملك التبع ذى اليزن وصفاء ذهنه ومايشغله من موضوع ، هو فى الحقيقة قوام كل حياة فى الوجود من سلمٍ وحربٍ وسياسة :

– الماء . . ومصادره .

اندفع من فوره محييا ذا اليزن .

– ياله من موضوع يليق بالملك .

وامتد الحديث بينهما عذبا يفيض صفاء وتدفقا حول عالم البحار والأنهار وأسراره التى سيظل موضوعها يشغل كل بال .

إلى أن تفهم ملك بعلبك ، حسن غاية التبع ، فعرج بالحديث مستوضحا هدفه من النزول على تخوم بعلبك ، فأخبره الملك ذو اليزن مازحا بصوته العميق الذى يشيع كل طمأنينة فى آذان سامعيه :

– لِمَ لا يعرف كل منا صاحبه ؟

ثم أعاد ذو اليزن طمأنة الملك بعلبك قائلا له :

– ولعلك الآن تعرفت علينا وأدركت حقيقة نوايانا .

هنا فهم ملك بعلبك غرض التبع ومرماه ، وكيف أنه الآن – أى ملك بعلبك – على معرفة بحجم جيش التبع وعتاده .

فبادره ملك بعلبك ممتنا مرحبا :

– هذا مطلب يشرفنا حقا أيها الملك الحكيم التبع .

قال ذو اليزن :

– « مرادى أن أنظر عسكرك » .

– هذا شرف كبير لنا حقا .

وقبل أن يهب ملك بعلبك مودعا التبع ذا اليزن منصرفا ، اتفقا على استعراض عسكر الأول فى اليوم التالى :

فلعلك أيها الملك الكريم . . تبارك جيشنا وترعاه .

# 13

## ملك بعلبك [illegible]

ما أن انصرف التبع ذو اليزن عقب استعراضه لجند وكتائب وعتاد ملك بعلبك الهائلة العدد والعدة ، وذلك التنظيم وحسن المظهر الذى اتسم به أفراد الجيش وقادتهم، حتى أحاطت المخاوف والهواجس من جديد بملك بعلبك ، متسائلا :

- ماذا أفعل . . دلونى !

وعندما لم يسعفه أحد بجواب شاف ، اندفع من فوره ، غارقا فى مشاعره ، مسترجعا تعبيرات وجه ذى اليزن وهو يطل من فوق البناء المشرف على ساحات جنده وكتائبه فى إعجاب وتقدير ملفتين ، وفى بعض الأحيان كان يرفع يده بالتحية لجموعهم :

-ترى ماذا يقول . ولماذا طلب منى هذا المطلب الغريب ، أن يشهد جيشى ومصدر قوتى . لماذا ؟

تساءل مسترجعا لحظة أن أطل بنفسه من أعلى كوة قلاعه مستعرضا جيش ذلك الملك اليمنى التبع ، حالما انشق الأفق البعيد عن عسكره وقواته بملابسهم الغريبة وأجسادهم الناحلة الجافة الدقيقة التكوين وأسلحة حربهم ، ودقة تنظيم صفوفهم :

- لابد أن فى الأمر شيئا ، ستكشف عن وجهه الخبىء الأيام والليالى المقبلة .

من جديد اتجه من فوره إلى جموع مستشاريه طالبا مشاركتهم ومشورتهم الرأى فى مايحدث ويجرى فى بعلبك وبقاعها والذى جاء هكذا دون سابق إنذار .

-أخبرونى ماذا يحدث ، وما الذى يمكن فعله الآن قبل غد . . قبل فوات الأوان ؟

وهكذا فتح الملك على نفسه فاتحة لا حد لها ولأهوالها ، حين حاول كل وزير أو أمير أو قائد من قواده ، الإدلاء برأيه ومشورته وخططه .

فمنهم من رأى الملك التبع - ذا اليزن - يبغى شرا بهذه البلاد ، وإلا فلماذا جاء إلى بعلبك وبقاع لبنان بالذات ، ولماذا لم ييمم وجهته إلى بلاد السرو وعباد ، أى وادى الأردن وفلسطين ؟

وإذا ماكان طريقه وغايته بلاد الحبشة وأواسط قارة « أفريقيا » ، فلماذا لم يتخذ أقصر الطرق من اليمن وجنوب جزيرة العرب ، عبورا إلى القرن الأفريقى ، بدلا من بعلبك وشمال لبنان ؟

وانتهت آراء ذلك البعض الى أهمية الاستعداد للحرب واتخاذ الهجوم كخير وسائل الردع والدفاع ، بدلا من أن يبدأ هو - أى التبع - هجومه ، خاصة بعدما تعرف عن قرب على حجم الجيش وعتاده وأساليب قتاله .

وتزايدت مخاوف « الملك بعلبك » من الاندفاع والأخذ بهذا الرأى ، فمن يدرى . . لعل ذلك التبع اليمنى صادق فى قوله ونواياه ، وأنه حقا يشغله بحثه الذى يركب له كل الصعاب والمخاطر ، بحثا عن :

-كتاب النيل . . ومنابعه .

تساءل ملك بعلبك :

-من يدرى ، فقد نخسر كل شىء فى حربنا مع اليمنيين ، وماعرف عنهم من بأس وجلد على المنازلة والقتال .

وأعاد الجميع إلى الأذهان سيرة تبعهم حسان اليمانى وتجبره فى حروبه مع « آل مرة » والتغلبيين ، وما أقدمت عليه يداه من صلب وقطع رقاب ماتزال تخضب آثارها بوابات دمشق .

ثم ها هى ذى الحرب التى أشعلت فتنتها عمته البسوس ، تلتهم الجميع معا من آل مرة والتغلبيين ، وفى كل عام يتزايد أوارها مستعرا متفاقما :

- حرب البسوس .

غمغم ملك بعلبك ، متجها كالمأخوذ إلى حيث شرفة قصره الشمالية المطلة على فلول مضارب جيش التبع وقبائله النازلة فى سهول البقاع :

- حرب البسوس بين أبناء البيت الواحد ومن يدرى . . لعل لهيبها وشررها سيصلنا هنا فى ربوع هذه البقاع

استدار من جديد عائدا حيث وفد مستشاريه وقواده ، ساترا بكفه جانب وجهه المكفهر عن تلك العيون المحيطة المتطلعة إليه ، وكأنها إنما تتطلع مشدوهة إلى إنسان آخر غيره . فهم لم يعتادوا من قبل ان يروا مليكهم على هذا النحو من الاكفهرار والتخاذل وهو يكرر تساؤله المؤرق :

- من يدرى ؟!

بل إن ماضاعف من شكوك ملك بعلبك أكثر فأكثر هو مجىء التبع بجيوشه إلى البقاع ، بدلا من نزوله وجيشه إلى دمشق وفلسطين لأخذ ثأر عمه من كليب بن ربيعة وآل مرة . ثم انفجر ملك بعلبك غاضبا حين تسرع أصحاب الرأى المتصلب المطالب بالهجوم قبل أن يبدأه اليمنيون صائحا :

- نحن لسنا فى لعبة مراهنة ، فأين نحن - حراس الأرز - من حمير وتباعتها ؟

هب الملك عن كرسيه ، كمن يعانى اختناقا من هول مايحدث ، متذكرا هيئة أمير بنى ربيعة مصلوب الرأس إلى أسفل على مداخل دمشق ، وقد غاب عنه دمه المنحبس فى عروقه ، جاحظ العينين غارقا فى صمته وآلامه المبرحة .

وما أن استرد ملك بعلبك عافيته حتى عاوده صفاء ذهنه ، فطالب نَاصِحِيهِ بالتروى والعمل فى صمت وضبط النفس إلى حين عودة عيونه وبصاصيه المنبثين بين جموع اليمنيين ومضاربهم فى آخر الليل ومعرفة حقيقة مايحدث .

– ماالخبر؟

وفى آخر الليل كان قد تجمع لديه كل ماطلبه من أخبار ، إلا أنه لم يجد فيها أبدا مبتغاه ، وهو ماينبىء عن اقتراب رحيل التبع ذى اليزن عن البقاع بل وعن لبنان والشام بأكمله . صرخ الملك من جديد وقد اعترته النوبة :

– ألم يَطبْ لأولئك البدو الغزاة الإقامة والمقام فى بلاد الله الواسعة . . سوى هنا وعلى عتبات بواباتنا ؟

استدار ضاربا كفا بكف :

– أتكتم أنفاسنا ليل نهار على هذا النحو ؟

– كان ملك بعلبك قد أصدر أوامره لعماله وحكامه بالصمت ، منذ نزول التبع وجيشه فلم يعد يسمع فى كل جنبات المدينة لهوها وصخبها وما اشتهرت به من أفراح ودبكات ورقص وغناء حتى مطلع كل فجر.

لذا بدت المدينة فى الأيام الأخيرة صامتة مترقبة ، يشيع فى جنباتها التوجس المطبق ولا شىء غيره :

– إلى متى ؟

تساءل الملك متفرسا فى وجوه المحيطين منه من وزراء ومستشارين وقواد :

–إنه الحبس . . الأسر بعينه . ماأصبحنا وأمسينا فيه داخل أسوارنا .

مرة أخرى عاوده هدوؤه وتماسكه معاودا التساؤل :

– أما من حيلة ؟

– حفلة على شرف التبع .

تفوه الملك مفكرا :

– مسمومة !

وأخذا بمقولة خير البر عاجله اندفع الملك من فوره معدا كل شىء بدقة وحذر شديدين .

حتى إذا ما أشرف بنفسه على دقائق خدعته الجديدة ، توجه من فوره إلى حيث يربض حرسه عاقدا عزمه على المسير إلى مضارب التبع ذى اليزن لدعوته للحفل ، ودعوة وزرائه وكل قواده وأمرائه وحتى كبار جنده لحفلة العمر التى ستشهدها سهول بعلبك تلك الليلة :

– ليفرح الجميع . . وتتوثق عرى الصداقة والمحبة . . الليلة !

وسريعا ماااستحال ليل روابى ومنحدرات وقصور وبساتين بعلبك ، إلى نهار جلى وواضح ، بعدما انتشرت محارق نيران الشواء والطهى وأضيئت الفوانيس والمشاعل والشمعدانات ذات الثمانية الأفرع ، وعمت البهجة الجموع وانتشرت حلقات الرقص الجماعى العملاقة ( الدبكة ) وعلت الموسيقى وصاحت المغنيات ، ومدت السماطات والأبسطة والموائد الخشبية والنحاسية والمرمرية .

وتوقف ملك بعلبك يشهد بنفسه من كوة أعلى أبراج قلاعه ، غبار موكب الملك التبع فى جبروته محاطا بهوادجه وكواكب فرسانه ، وفى إثره موكب وزيره . . العاقل الحكيم يثرب . .

وهنا تدافعت دقات قلبه مما سيحدث هذه الليلة الليلاء ، التى قرر أن يضع فيها حدا لهواجسه ومخاوفه .

حتى إذا ماقارب موكب الملك التبع ذى اليزن مشارف الحصون الأمامية للمدينة . نزل ملك بعلبك مسرعا متبوعا بحاشيته ومقربيه وقد نشر الزينات والأعلام – اليمانية – شمالا وجنوبا مرحبا بالتبع ذى اليزن :

– شرفت ديارك .

واصطحبه من فوره إلى حيث اعتلى معه عرشه الهائل وأجلسه أعلى منه منزلة .

ومدت موائد الطعام والشراب ، وعذب السمر ، وخلال كل ذلك ازداد الملك بعلبك شحوبا حتى إنه لم يجرؤ على أن يشير للتبع مرحبا إلى حيث موائد الطعام .

وتزايد اكفهراره أكثر ، حين لاحظ أن الملك ذا اليزن ووزيره يثرب أو أيا من مرافقيه لم يقرب أيضا طعاما أو شرابا .

بل إن الوزير « يثرب » نادى أحد مقربيه وأسر له بشىء لم يسمع ، تواتر من فوره إلى جموع الضيوف فى ذات الصمت الحازم .

هنا تزايدت هواجس الملك المضيف ، وهو يرقب ما يحدث ، من دون أن يعرف فحواه ، وتساءل :

- تراهم قد عرفوا بأهوال هذه الوليمة المسمومة !

وحاول دفع الملك ذى اليزن إلى المشاركة فى الغناء والطرب ، جاذبا اهتمامه إلى مهارة حلقات الراقصين وهم يدقون الأرض فى تناسق متناغم عرف عنهم منذ القدم ، وجاءت به الكتب والأسفار القديمة ، وشاركه التبع ذو اليزن مؤكدا ، فى صفاء عن مدى مهارتهم وحسن غنائهم و إيقاعهم .

وعم الحفل لحظة وجوم امتدت ثقيلة إلى أن قطعها سقوط بعض اليمنيين صرعى بعدما تسرعوا وأكلوا الطعام المسموم يعانون فى صمت وأصوات مكبوته ، مما دفع بالتبع ذى اليزن ، إلى مقاربة ملك بعلبك مسراً فى أذنه قائلا :

- مرادى أن أنازلك أيها الملك فى الميدان !

ثم انسحب التبع الملك ووزيره يثرب وبقية المدعوين من أمرائه وقادة جيشه وحاشيته ، بعدما اتفقا على المنازلة فى اليوم التالى على مشارف تلال بعلبك .

وفى اليوم المحدد مع مطلع النهار ، اجتمعت جموع عظيمة لا يحدها بصر من الجانبين مبكرين لمشاهدة النزال بين ذى اليزن وملك بعلبك .

وحين تواجها صالا وجالا فى الميدان طويلا ، بين « صد ورد وطراد ومهارشة » ، حتى انبهر كل من شاهدهما .

وظلا هكذا إلى أن غربت الشمس دون غالب ومغلوب ، فتصافحا وافترقا على اللقاء فى اليوم التالى وجرت المبارزة بعدما داخلها خبرة كل منهم بخصمه ، وظلا يتلاقيان ويتباعدان ، ويكمنان ويفران طيلة اليوم إلى أن حطت الظلمة أعالى جبال بعلبك وروابيها . . وافترقا على لقاء جديد .

وامتدت المنازلة بينهما سبعة أيام .

وفى اليوم الثامن كان ذو اليزن قد داخله الوهن والتعب ، إلا أنه تمكن من ملك بعلبك الهائل الجثة فأرداه قتيلا ، وأشرف بنفسه على دفنه فى مهابة وتكريم .

وبعدها قرر الملك ذو اليزن بمشورة وزيره المقرب « يثرب » الرحيل عن تلك البلاد ، بعدما أخذ عشرين حملا من مال ملك بعلبك وجواهره وذهبه الإبريزى وفضته الفينيقية .

وارتحل ذو اليزن بجيشه طالبا أرض الحبشة وبلاد السودان ، إلى أن نزلوا واديا ذا أشجار .

مقدمة

## الجزء الثانى آخر التباعنة ..

## الملك سيف بن ذى يزن

توقفت بنا أحداث السيرة المندثرة للملوك التباعنة عند رحيل الملك التبع ذى اليزن ، إلى أفريقيا بحثا عن كتاب - أو منابع - النيل ، وإقدامه على بناء مدينته التى شق أنهارها وشيد قلاعها وبنى أسوارها وسماها ، أحمرا أو «الحمراء» .

لحين نشوب ذلك الصراع بينه وبين ملك الأحباش « سيف أرعد » ، الذى أفزعه، إلى حد الجنون ، نزول الملك ذى اليزن بجيشه العربى بالقرب من بلاد الحبشة، وتهديد سطوتها ويدها الطولى المهيمنة على منابع النيل ، وعلى معظم الأقوام والكيانات والقبائل الأفريقية سواء فى شرق أفريقيا المتضمن للقرن الأفريقى ، أو شمالها فى السودان وبلاد النوبة وصعيد مصر والمغرب .

فكيف لملك الحبشة « أرعد » أن يهدأ بالا ، وهو يشهد تعالى سطوة العرب وتبعهم ذا اليزن وازدهار مدينتهم الجديدة التى تضاءلت بجانبها عاصمته أثيوبيا ، كما ورد فى معلقات الوزير الحكيم « يثرب » :

ومن يثرب قد سرنا بعـــد عمارهـا

إلـى بعلبك ابن عمـــى بهـا كبـرا

وسرنا الى أرض الحبوش بجيشنـا

نـزلنـا بـواد عمـه المـاء والزهـــر

مليكنـا ذو اليـزن عمـر أحمـــرا

حصنها بالأسوار وأجـرى الأنهـرا

فما كان من سيف أرعد سوى اللجوء إلى الحيلة والمكائد للتخلص من الملك التبع ذى اليزن الذى عمت شهرته آفاق أفريقيا ، فأرسل بأخلص وأجمل وأذكى جواريه «قمرية» محملة بسمها الزعاف لتقضى عليه .

إلا أن الجارية التى بهرت من روعة وحضور وفروسية الملك ذى اليزن، سرعان ماوقعت فى حبه منذ أول لقاء ، فأفضت إليه بخطتها باكية عند قدميه .

وهنا توطدت الصداقة بين الملك التبع الزاهد المنقطع لأبحاثه العلمية لإنشاء المشروعات المائية من سدود وخزانات هدفها الاخضرار وخير الناس ، وبين الجارية الباهرة الجمال والذكاء التى جاءته لتقتله .

وكان المرض المفاجىء قد بدأ يغزو جسد الملك الكهل ، دون أن يخلف وريثا لحكم التباعنة من بعده فقرر الزواج من قمرية ، ليخلف منها ، وقبل فوات الأوان ، وريثا لحمير:

– هو « هيكل . . وندعوه سيف »

مولد آخر التباعنة

وفى أعماق القارة السوداء ولد « هيكل » أو سيف بن ذى يزن يتيما بعدما فارق والده الملك ذو اليزن الحياة ، مفضيا لزوجته « قمرية » بوصيته التى موجزها أن تعتلى هى عرش التباعنة لحين اشتداد ساعد ولده الوحيد سيف أو هيكل لتسلم سلطاته :

– ليحكم بالعدل بين الأقوام والقبائل .

وكذلك أوصى له الملك الوالد ، بمخطوطاته ومدوناته وأبحاثه حول :

- كتاب النيل .

إلا أن مولد سيف صاحبه الكثير من المخاطر الهائلة التى أضرم لهيبها ملك الأحباش المتجبر سيف أرعد ، ووزيره المعادى للعرب الساميين « سقرديون » ، فما كان من الأم قمرية ، إلا أن ربته فى الخفاء بأحراش وغابات أحد البلدان الموالية سرا للعرب ( من المرجح أن يكون السودان أو الصومال ) وتدعى مملكة « أفراح » .

ونما سيف بن ذى يزن بمنفاه يتيما مطاردا من سيف أرعد وعيونه الموجودة على طول الأقوام والبلدان الأفريقية ، وفى الوقت نفسه بات سيف أرعد مرتعدا خائفا من مولده وعيشه المدهش فى الخفاء :

ومولود يأتيك يمـلك أرضهـم

ويبقى على جميع البرية حاكما

وهكذا واصل ملك الحبشة أرعد مطارداته وحروبه خلال طفولة سيف بن ذى يزن ، فغزت الحبشة اليمن وشمال الجزيرة العربية ، وتوغلت فى صعيد مصر ، حتى هاجر اليمنيون أنفسهم إلى تلمسان تحت حكم عبد الودود والمنذر ، إلى أن اشتد ساعد سيف اليزن ، فجمع كوكبة من أخلص فرسان القبائل المعادية للحبشة وتسلطها وخاض سلسلة من المخاطر والمغامرات على طول البلدان والقلاع المهجورة شرقا وغربا فى أفريقيا ، وأحب بنت ملك افراح « شامة » ، التى اصطحبته بضع سنوات عبر مخاطراته تلك فى ربوع أفريقيا واليمن ، إلى أن تزوج بها عقب إنقاذه لها من بين مخالب ابن ملك الحبشة الذى كان يبغى الزواج بها ، ولعب سيف بن ذى يزن ، أبرز أدواره كبطل شعبى ، حين تسلل بأتباعه وفرسانه إلى داخل بلاد الحبشة ذاتها ، فأقدم مليكها سيف أرعد

على حصار عاصمة التباعنة فى أفريقيا - أحمرا - ذاتها . بهدف تخريبها وأسر ملكتها قمرية .

وتمكن « سيف أو هيكل » من تخريب سدود ومنشآت النيل داخل الحبشة ، إلى حد تمكنه من تخريب الحصار ذاته حول أحمرا ، وفك أسر أمه ، ثم طاردا - معاً . جيش الأحباش وملكهم سيف أرعد إلى أن أوقع به وقتله .

وهنا أصبح سيف بن ذى يزن :

- تبع حمير . . المنتظر .

وعمت الأفراح وتوثق الأمن والأمان فى ربوع اليمن والجزيرة العربية بأسرها ، بالإضافة إلى بقية البلدان التى يجمعها نهر النيل ، وأهمها بالطبع « مصر العدية » ، حيث توافدت الوفود على أحمرا من ربوع مصر ، مطالبة بزيارة الملك سيف - أبو الأمصار - لمصر التى بها استقبل استقبال الأبطال الفاتحين ، بعدما أراح أهل مصر من ملك الحبشة وتهديده لرقابهم وأرضهم نتيجة لتحكمه فى مناسيب النهر الأسمر داخل الحبشة وتخومها . ففى مصر ، التى أعطت لسيف بن ذى يزن ، أقصى طاقات حبها واحتضانها له ولأفكاره ومشاريعه العمرانية ، وجد الملك سيف مبتغاه الأخير ، فأقام بها طويلا ، بعدما أحاطه المصريون بحبهم المتدفق والجارف ، فأطلقوا عليه :

أبو الأمصار .

وحين أنشأ بجبل المقطم القلاع والحصون لجيشه لحمايتها ، خاصة من أخطار الفرس الطامعين ، أطلقوا على الجبل « الجيوشى » وتعارفوا على الملك سيف ذاته بـ :

- أبو الجيوش .

واصطحب الملك سيف بن ذى يزن زوجته ورفيقة صباه ابنة ملك

«أفراح » شامة ، وابنهما الذى سمياه « دمر» ، إلى مصر فأقاموا بها طويلا وبدأ استعداده لحماية مصر من الطامعين ، حتى إذا ماتجددت أطماع الفرس فى حكمها ، واصل حروبه ومطارداته لفلولهم داخل خراسان ، بعدما توغل فى أصفهان بجيشه العربى الذى كان قد أحسن تدريبه بنفسه بالجبل الذى يحمل اسمه الى اليوم ، « جبل الجيوشى » .

وكان يحلو له التنكر ومواصلة أسفاره ومخاطره السرية ، لاستطلاع نوايا الفرس ، بحجة بحثه عن كنوز – جدته – بلقيس ملكة سبأ والملك سليمان .

وعندما كبر ابنه من شامة – دمر – نصبه حاكما لسورية الشمالية ، واتخذ من ميناء بانياس عاصمة له إلا أن غزوات الأقوام الفارسية الطامعة، تمكنت من أسر دمر ، مما أوقع الأحزان الثقيلة بأمه شامة ، إلى حد أفضى بها إلى الجنون .

وهنا لم يجد الملك التبع سيف بن ذى يزن ، مهربا من مطاردة الفرس ومنازلتهم عبر آسيا الصغرى والأناضول وشبه القارة الهندية وهى حروب طويلة ومضنية ، ضد ملك يدعى « الهدهاد » الذى واصل تعقبه إلى « ماوراء نهر بلخ » «وعاد فدخل دلتا مصر عن طريق دمياط مظفرا بالنصر، مخضبا بالدم النازف على جبينه كأرجوان » .

لكن سرعان ماااندلعت من جديد الحرب بينه وبين الملك الفارسى «بهرام » ، إلى أن حقق الملك سيف نصره الأخير ،الذى انتهى بهدنة ، أقدم الملك التبع سيف بن ذى يزن خلالها على الاقتران بابنة بهرام الباهرة الجمال « مهردكار » وعاد بها إلى مصر ، دون إدراك لأبعاد المؤامرة التى دبرها الفرس للتخلص منه بأقل الخسائر ، حيث اضطلعت زوجته «مهردكار » بوضع السم الزعاف فى طعامه خلال رحلة بحرية لهما على

شاطىء النيل ، هربت بعدها عبر أحراش الدلتا ، فلم يعثر لها على إثر.

وفجع المصريون بموت مليكهم المنقذ المحبوب - سيف - فبكوه أياما فى الطرقات والشوارع .

وكفن الملك سيف بن ذى يزن ودفن بمدفنه وكنوزه بالجبل الذى كان قد أعطاه اسمه . . الجيوشى وانتهت فاجعة موته الغادرة وسيرته العاطرة ، « فركب على مصر أربعة ملوك من أرض خراسان العجم . . ووقعت الحروب الطاحنة بينهم وبين دمياط ودمنهور الوحشى ، وهرع لنجدتهم اسيوط ملك إيليا وفلسطين » ، حسب نص مخطوطة السيرة المحفوظة بمكتبة المتحف البريطانى - المرفقة .

**السيرة بين التاريخ والفولكلور :**

ولعل أبرز ماتؤرخ له هذه السيرة الملحمية التى يتعاقب فيها الشعر والنثر ، هو امتداد الصراع بين الساميين والحاميين ، ثم تلك الحروب القبائلية الطاحنة التى اتخذت من الشام ميدانا - وبالتحديد منطقة بعلبك والبقاع بلبنان مرورا بفلسطين ومصر إلى حيث أفريقيا الوسطى والحبشة والسودان ، بالإضافة إلى القرن الأفريقى ، بهدف تعريب هذه الأقوام .

وهنا تنتهى حقيقة حدود مناطق النفوذ العربى الجنوبى ، وهى ماتؤيده النقوش والمدونات التى عثر عليها علماء اللغات السامية ، سواء فى اليمنين ، أو على طول الطريق التجارى الممتد من جنوب الجزيرة العربية إلى شمالها ، مارا بمكة المكرمة ويثرب ومدائن صالح وتيماء وتبوك ومعان حتى دمشق .

كذلك أثبتت الاكتشافات الحفائرية - الأركيولوجية - فى بلاد الحبشة وتخومها ، أن هذه البلاد كانت خاضعة يوما ما للنفوذ التجارى أو الثقافى أو السياسى اليمنى .

فالحروب الطاحنة بين العرب والأحباش أكدتها المصادر التاريخية الإسلامية . فالسيرة فى حديثها عن تلك الحروب : تستطرد فى عرض الحياة وأعمال البطولة ، وهى صادقة فى هذا العرض ، إلى حد كبير . فسيف بن ذى يزن ، الذى ولد لأبيه فى أفريقيا، والذى تربى فى البرارى فى الفلاة ، وأتى منذ صباه بالكثير من أعمال البطولة وبعد النظر، كشخصية تاريخيه ماثلة محققة ، هو التبع اليمنى الذى قاد الجيوش العربية الجنوبية ، وطرد الأحباش وأنهى سطوتهم من بلاده . وقد تحدث «ابن هشام » عنه ، وذكر الكثير من الأشعار والمعلقات التى تنسب إليه أو قيلت عنه . كما تعرض لحروبه ضد الفرس الطامعين ، ودوره وحروبه ومآثره فى شبه القارة الهندية ، وانتساب الكثير من الأسر الحاكمة الآسيوية ـ إليه ، فهو الجد السالف للأسرة الحاكمة فى « بوروناى » . وبطل من أبطال ملاحمهم .

وأخيرا يبدو أن راوى هذه السيرة ، خبير بمصر التى احتفت بسيف بن ذى يزن وخوارقه وبطولاته فى صد أطماع الأحباش من جانب ، والفرس من جانب آخر ، حيث يذكر من جغرافيتها ،ولغتها وعاداتها أدق تفاصيل ملامح بلدانها مثل أسوان و إسنا و إخميم وأسيوط ومنفلوط وملوى وأهناسيا وحلوان والجيزة ، وحارة الوطاويط ،وقلعة الجبل والروضة ، وجبل الجيوشى ، الذى تسمى باسمه « أبو الجيوش » الملك سيف ، ومدفنه به إلى اليوم . وذلك أيضا حسب نص مخطوطة المتحف البريطانى .

# 14

## التعريب داخل أفريقيا

كان الوادى الأخضر هائل الشجر والإثمار الذى استقر رأى التبع ذى اليزن على النزول على رؤوس جباله وروابيه السندسية الحانية ، وضفاف أنهاره العذبة العميقة الزرقة ذات الخرير الشجى .

وكان الوادى بالإضافة إلى جماله الباهر الأليف يفيض ويموج بمختلف أنواع الحيوانات والطيور وقطعان الماشية من جمال وأبقار وأغنام وأيائل برية .

ورغم خلوه من السكان ، سوى من بضعة رعاة فرادى ، فإنهم فروا الأدبار هربا عندما وقعت عيونهم على جيش ذى اليزن الجرار المدجج بالسلاح .

وكان التبع ذو اليزن لا يزال يعانى طيلة الطريق من بعلبك إلى أفريقيا ، مما اضطره ودفعه دفعا إلى تحديات ملك بعلبك ومنازلته إلى أن أراده قتيلا بحسامه على مرأى من أمرائه وأقاربه وذويه . فما فكر على الإطلاق أن ينازله حتى الموت ، إلا أنه ما إن رأى رجاله يهوون صرعى نتيجة أكلهم السم فى تلك الليلة الليلاء ، حتى أدرك الخيانة من قبل ملك بعلبك . فكانت المبادرة بالتحدى والمبارزة معه أسلم الحلول بدلا من رفع السلاح وإحداث مجزرة رهيبة يسيل لها الدم مدرارا على السهول والروابى ويذهب ضحيتها الأبرياء قبل الأعداء .

ولقد حاول الوزير « يثرب » كلما حاول الملك مفاتحته فى أمر ماجرى ، تهوين الأمر عليه ، بأن « البادىء بالشر هو عادة الظالم » .

بل إن التبع ذاته كان ينوى الرحيل بجيشه عن بعلبك بعد أيام معدودة ، دون أدنى أطماع أو نية سيئة تجاه ملكها الكريم الشمائل ، الذى رحب بهم فى البداية خير ترحيب . إلا أنه سرعان ما استهوته هذه البلاد الحارة المتفجرة بالعطاء الذى تفصح عنه طبيعتها السخية .

وتملكه الحماس أكثر حين تبين له مدى كثرة الماء ومجاريه على طول ذلك الوادى ، بما يسهل له ممارسة هوايته وتحقيق أهدافه خاصة بحثه عن « كتاب النيل » الذى يؤرقه البحث عنه وحل طلاسمه وألغازه .

فانشغل الملك ذو اليزن فى أبحاثه وأسفاره وتدوين مايعن له من ملاحظات حول الماء ومصادره ، وكيفية التحكم فيه ، خاصة النهر العظيم . . نهر النيل .

حتى إذا ماانتهى ركب ذى اليزن من حط رحاله فى ربوع تلك البلاد والغابات ، أقيمت المضارب والخيام وبيوت الشعر وبدأ بتشييد قصر التبع ووزيره يثرب على سفوح أعلى الجبال المحيطة بالوادى الفسيح وغاباته الكثيفة .

وانخرط الملك من فوره مستغرقا فى أبحاثه المضنية عن منابع النيل ، حيث سافر المسافات الطويلة بصحبة حراسه ومساعديه ، وسأل كتبته تدوين ملاحظاته وما توصل إليه ، بل بعث بإحضار بعض مراجعه ومخطوطاته ومدوناته السابقة من مأرب وسبأ وصنعاء .

وكان كلما سافر ورحل وبحث ،كلما زاد تفكيره فيما يطمح إليه ، واحتياجه للسنوات الطوال لاستكماله :

- فهو الماء . . الحياة قبل وبعد أى شىء آخر .

إلى أن استقر رأيه الذى فاتح فيه وزيره المقرب « يثرب » ، وهو ضرورة بناء مدينة ، تليق بالملك التبع تقع إلى الجنوب أكثر من المكان الذى نزلوا فيه .

وعلى الفور أمر بإحضار الصناع والمهندسين .فحفروا أساسها وبنو جدرانها وأسوارها وحصونها المنيعة .

وانشغل الملك ذو اليزن بنفسه ، فى كيفية تحويل المياه إليها فأمر بشق أنهارها العذبة، بما يحقق أبحاثه وماهو منشغل به :

-كتاب النيل .

واستغرق العمل والبناء فى إقامة المدينة الجديدة فى أفريقيا الوسطى سنوات .حتى إذا مااكتملت ، أسكن عشائره ومقربيه وسماها بنفسه « أحمرا » .

وجاءت مدينة « أحمرا » منافسة لسابقتها « يثرب » فى اجتذاب التجار والصناع وأرباب الحرف والزائرين من كل صوب : من مصر والسودان وقرطاج والمغرب الكبير وبلاد الحبشة وبلاد « بنط » أوالصوما ل ، إلى أن وصلت أخبار الملك التبع ذى اليزن ومدينته التى على مشارف أرض الحبشة ، إلى مليكها الجبار بالغ السطوة والجاه والذى ترعد له القلوب عند ذكر اسمه :

- الملك سيف أرعد .

وهوالذى يحكم بلاد الحبشة وماحولها من بلدان متضمنة السودان ، حيث تقف حدوده عند مصر العليا :

- ياللغفلة التى لن تغتفر يوما لأحد كيف جاء عرب اليمن وتبعهم الكبير ونزلوا بلادنا واستوطنوها ، وشيدوا مدينتهم ونحن لا نزال غافلين ؟

استشاط ملك الحبشة « سيف أرعد » غضبا وصرخ فى وجوه أعضاء مجلس حربه ، من أمراء وشيوخ قبائل وحكام وقواد ومستشارين :

-كيف حدث هذا ؟!

توقف الملك فجأة ، حين قدم وفد إلى مجلس حربه الذى كان قد دعا إليه ، وكانوا يتوافدون بمراكبهم البحرية ، صاعدين من فورهم إلى حيث قصر الملك سيف أرعد .

وكانت مدينة ذلك الملك يقع نصفها فى البحر ونصفها الآخر فى البر . وكانت حصينة مترامية الأطراف ، فيها القلاع والموانىء والمنشآت البحرية ومصانع صنع مختلف الأسلحة التى اشتهرت بها فى كل بلدان أفريقيا ، والتى لم تكن لتهدأ لها حروب

ومنازعات ، مما جعل تجارة الأسلحة رائجة وضاعف من ثراء مدينة الملك « سيف أرعد» التى اشتهرت أيضا بزرع الفتن بين أقوام القارة السوداء المترامية الأطراف .

وكان ملك الأحباش الذى يرفل فى الذهب الإبريز ومعه كبار تجار المدينة لا هم لهم سوى الثراء ، بغض النظر عن كيفية الحصول عليه . أما أن تصل الغفلة بالجميع إلى حد أن ينزل بلادهم وتخومهم بدو عرب المشرق وتبعهم واسع الشهرة والعلم والشكيمة ذو اليزن ، فتلك كارثة الكوارث ولاشك ، والأدهى أن يجيء نزولهم على هذا النحو ، بلا حرب أو معارك أو قتال أو مقاومة ، إلى أن يهنأ لهم البال فيشيدوا مدنهم وحصونهم، وهاهى « أحمرا» عاصمة التبع ، أصبحت تجتذب ، عاما بعد عام ، كل الأنظار المتطلعة لمصنوعاتها ومنتجاتها ومبانيها وأنهارها و بساتينها .

– إلى هذا الحد تصل الغفلة بالجميع ؟

أهكذا نصل متأخرين جدا على الدوام ، وبعد ما نفذ السهم ليفت من مقتلنا جميعا الصغيرقبل الكبير ، دون استثناء ؟

وحاول بعض الحاضرين تهدئة ثائرة « الملك سيف أرعد » ، بحجة أن التبع اليمنى لم يرفع سلاحا ضد أحد .

عاود الملك صراخه :

تلك هى الكارثة كل الكارثة . .

وتدافعت بعض الأصوات مشيرة إلى أن الملك ذا اليزن منشغل بالمياه وكتاب النيل ، دون غزو أو قتال ، إلا أن الملك أرعد قاطع الجميع قائلا :

– الماء . . النيل . . حياتنا !

هب واقفا موضحا وهو يضع قبضته حول عنقه ، كمن يعانى اختناقا حقيقيا .

–رقابنا . . مقتلنا . . الماء . . النيل .

وكان لدى ذلك الملك – سيف أرعد – حكيمان أو وزيران أحدهم يدعى «سقرديس » أما الوزير الثانى فيدعى « بحر قفقاف الريف » أو « أبو ريفة » .

كان أولهما وهو « سقرديس » يكره العرب - أولاد سام - الذين لايحبون أحدا من ذرية حام أو الحاميين الأفريقيين ، لذا اندفع سقرديس من فوره متحاملا ضد التبع ذى اليزن وجيشه ومآربه فى أفريقيا التى يسترها ببحثه عن « كتاب النيل » ومنابعه .

- إنه مجرد قناع خادع لتغطية أطماعه .

ثم عاد يؤكد :

- ومن الأفضل لنا المبادرة بحربه وقتله وإفناء جيشه العربى الغازى ، الذى استباح بلادنا فى غفلة منا جميعا - على حد قول الملك أرعد - ومن الأفضل لنا القضاء على تلك المدينة - أحمرا - التى شيدها التبع اليمنى ، وجلب إليها الماء من كل مكان . فالخطر، كل الخطر ، من تلك المدينة التى أصبحت مضرب الأمثال فى الأمن والأمان ، حتى اجتذبت التجار والزائرين من مشرق الأرض ومغربها .

هنا قاطعة الملك أرعد مشيرا فى رثاء عبر شرفات قصره :

- ألا ترون ماانتهت إليه مدننا وتجارتنا من جراء إنشاء تلك المدينة - العربية - التى امتلأت ساحاتها فى غمضة عين بورش الحدادة وصهر الحديد وصنع السلاح وتربية الخيول العربية حتى أصبحت اليوم ترسانة وحربة موجهة إلى صدورنا ؟ صرخ الملك أرعد ، وقد احمرت عيناه وتبدلت سحنته عن آخرها ، فجرى إليه خدمه بالماء :

- ألا ترون وتشهدون ؟

وكان الوزير - عدو العرب - سقرديس ، على دراية كاملة بتاريخ التباعنة وحروبهم فى الشرق البعيد . وتجبرهم وفتوحاتهم ، فأعاد إلى الأذهان أساليب التباعنة فى الغزو القائم على الخداع ، مثلما حدث مع التبع حسان اليمانى - عم ذى اليزن - حين اجتاحت جيوشه المتسترة بالأشجار مدينة اليمامة وأسرت أميرتها الزرقاء التى حذرت قومها الغافلين طويلا دون جدوى . . وهو بذاته مايحدث الآن .

اما الوزير الحكيم الثانى للملك سيف أرعد ، وهو « أبو ريفة » فقد رفض ذلك المنطق وآثر التروى وتدبر الأمر قبل الاندفاع بالقتال والحرب مع سليل « تباعنة اليمن » وما عرف عنهم من بأس .

كان « أبو ريفة » وأصله من بلاد الحجاز ، مايزال لسانه عربيا ، وما كان يعبد «زحل » كالأحباش ، وكان محبا للعرب متقربا منهم ، لذا آثر منذ البداية رفع صوته والإدلاء - الهادىء - برأيه للملك أرعد ، محبذا عدم المبادرة بالهجوم والحرب ضد العرب- النازلين - :

- فلعل النازل ، يرحل يوما . . بلا حرب وويلات وأنهار دماء

ولما كان الوزير الحكيم « أبو ريفة » مقربا من الملك أرعد ، فقد أسلم له أذنيه منصتا لمشورته ، فى هذه الظروف العصيبة التى حلت بالأحباش وبلادهم وهيمنتهم على مشارف أفريقيا .

إلا ان الوزير الأول ، لم يطق على نزول العرب صبرا ، واندفع من فوره يزين للملك سرعة الحركة والمبادرة ضد التبع ذى اليزن ، مادامت الحرب هى فى ذاتها خدعة ، فلم لا تلجأ الى المكيدة والخداع ؟ .

- كيف؟

- نرسل له بالجارية « قمر » حليلة .

هنا استكان الملك أرعد لرأى وزيره « سقرديس » منصتا مفكرا :

ولعلك أيها الملك الأقدر على معرفة « قمرية ‧ ‧ سكة الأذية » أكثر من غيرك .

فهى جارية نادرة ، بديعة الجمال باهرة الحضور والغناء والكلام كما أنها داهية الدواهى كمثل أفعى ، بل هى أفعى أودت بحياة الكثيرين بمنقوع سمها الزعاف .

وحين انتشى ملك الأحباش سيف أرعد ، من مكيدة وزيره « سقرديس » ، هب من عرشه مشيرا إلى خدمه بإخلاء طريقه إلى حيث يقيم حريمه للاجتماع بتلك الجارية - المسمومة - قمرية .

وحاول الوزير الثانى أبو ريفة اللحاق بالملك سيف أرعد ،للحيلولة دون تدخل تلك الجارية - الداهية - شديدة الطموح والتلون والناطقة بكل لسان ولهجة . . فى ذلك الأمر الخطر . إلا ان سيف أرعد لم يعطه آذانا مصغية، هاتفا وهو يقارب ديوانها :

- قمرية . . أيتها الأذية .

# 15

## مؤامرة ملك الحبشة لقتل ذى اليزن

ما أن رفع الملك أرعد طرف الستار المفضى إلى مخدع الجارية الباهرة الجمال والمتوقدة الذكاء « قمرية » ، حتى أدركت من فورها ما يشغل فكره ، كما عرفت مرماه من زيارته هذه لها .

هبت قمرية مبتسمة ومرحبة قائلة :

- التبع اليمنى الغازى . . ذو اليزن . . أليس كذلك ؟

وقف الملك أرعد وواجهها مندهشا وسألها :

- من أخبَرَكِ ؟

-عيناكَ .

- أجل ياقمرية إنه ذو اليزن .

قاربها مفاتحا إياها فى مايجول بخاطره مسلطا عينيه فى عينيها السوداوين الواسعتين المتوقدتى الذكاء واللتين تنطقان بالتحدى وتتجلى فيهما الفروسية .

ثم رفع ذراعه المغطى بأكمله بالأساور الذهبية ، فى ذات اللحظة التى أشارت إليه قمرية بالجلوس :

-استرح أيها الملك . . لاتشغل بالك هكذا . . فما من ليل دامس إلا ويعقبه نهار .

أعادت هى هذه المرة مواجهته والغوص فى عينيه المثقلتين اللتين عاداهما النوم منذ زمن :

– لا تشغل بالك كثيرا . . فمن يدرى مايخبئه الغد . . وحسنا فعلت بزيارتى بعد طول غياب .

– كيف ؟

أشارت إلى قارورة سمها الزعاف « ابن ساعته » الخضراء اللون ، التى تخبئها بين جدائل شعرها الطويل الضارب الاحمرار:

– وكأنك كنت معنا ياقمرية !

– أنا دائما معك !

غمغم الملك أرعد شاردا فى استرخاء ، محاولا تبرير ماهو مقدم عليه ولو أدى الأمر إلى التضحية بأجمل وأذكى نسائه المقربات ، موضع سره وشكواه وأدق أسراره وخباياه :

ماذا أفعل ، إن ذلك التبع لا يصطحب معه مجرد جيش ، بل أمة بأكملها وأنا لاقبل لى بمواجهته مفردا وحدى ، بعدما استسلم الجميع على النحو الذى تعرفينه .

قاربها أكثر فى تودد :

– أتسمعيننى . . قمرية ؟!

هب عن كرسيه متوقدا بالحماس الذى ألهبت به قمرية رأسه وأعصابه بمجرد لقائه بها ، وكأنما هى جيش بأكمله قد هب لمساندته وشد أزره فى وحدته المريرة هذه :

– أنا لم أعد أحتمل وحدى ، ذلك الغباء والتكاسل والتخلف الذى تعيشه هذه البلدان والأقوام والقبائل على طول هذه القارة المسترخية السوداء . أبدا لن أحتمل وحدى .

استدار مقاربا قمرية كمثل طفل يبغى هدهدة أمه الحنون الدافئة :

– أن أخرج بجيشى للقاء ذلك التبع اليمنى وجيشه الذى يسد عين الشمس ذاتها . . وحدى ؟

واجهها فى تلصص :

– ولعلك الأقدر على معرفة الأخطار التى جلبها ذو اليزن بنزوله وقبائله بلادنا .

كان الملك أرعد على دراية كاملة بمدى ماتتمتع به « قمرية » من قدرات – سياسية – لاتقف حدودها عند الحبشة والسودان وما حولهما من أقوام وكيانات ، بل إن بصيرة الجارية الأعجمية المولد واهتماماتها ، أكثر تطلعا وطموحا على الدوام . ولعلها ومنذ أن جىء بها من الأناضول إلى أثيوبيا ، تحلم ولا تزال ، باليوم الذى ترى فيه نفسها فى ذروة السلطة والتسلط ، تحيط بها هالات الشهرة والمجد أينما حلت .

وكثير ا ماشاركها سيف أرعد حلمها الكبير هذا فى التطلع ، دون كلل ، إلى ماوراء البحار .

قاربها سيف أرعد :

– ولا منقذ سواك « ياقمريتى » من هذه الكارثة . وأفضى إليها الملك الحبشى بتفاصيل خطته فى التسلل – بقارورتها – إلى التبع ومعها غالى الهدايا وثمينها من كل نوع وصنف : جمال وخيول وقطعان ضأن ، ومال وذهب وفاخر الثياب وأبدع منتجات الحبشة . وختم كلامه لها قائلا :

– ولعلك ستتكفلين بالباقى ، فى الوقت والمكان الذى تحددينه أنت ياقمرية ، ولا أحد سواك .

وقضى الملك أرعد ليلته تلك ، محذرا قمرية من كارثة انكشاف الأمر – المؤامرة – الذى سينتهى حتما بضياع ملكه وملك آبائه وأجداده ، بل وضياع أفريقيا بأكملها .

حذرها الملك مرارا ، من ضراوة انتقام التبع ذى اليزن لو انكشف أمرهما ، كما حدث مع ملك بعلبك الذى مات قتيلا ، حين نازله ذو اليزن وقطع رأسه ، ودفنه بمهابة تليق بملك وصديق ، وظل يبكيه على مرأى من ذويه ومقربيه شهورا .

كما حذرها الملك مطولا – بخاصة – من مدى سحر ومنطق واتساع علم ذلك الملك ذى اليزن ، الذى تلين له الاحجار قبل البشر . فلقد كان الملك على معرفة

بمـدى طموح تلك السيدة القوية ذات الشكيمة التى لا تقف مطامعها عند حد .

بل إن طموحها كثيرا ماتجاوز طموحه ، وهو الملك الحاكم للحبشة والسودان وأفريقيا الوسطى .

–حذار من سحر الكلمات .

فهى – قمرية – التى تتقن عن دراية العربية ولهجاتها المختلفة بدءا من الجعزية – لهجة حضر موت – التى سبق لليمنيين نشرها بالحبشة ، مرورا بالآرامية ، والقحطانية والحميرية والمعينية والسبئية ، وهى لغات أولئك الأعراب الغزاة ، بالإضافة إلى معرفتها ببقية اللهجات الأفريقية ، من نيجرية وأمهرية وهررية .

وفى صبيحة اليوم التالى لاجتماع الملك أرعد بقمرية ، كان قد أعد كل شىء ببالغ السرية والكتمان ، ما بين قوافل الهدايا والعبيد والرسائل التى ستحملها الجارية – السفيرة « قمرية » إلى حيث قصر الملك ذى اليزن بمدينته « أحمرا » ، من قبل ملك الحبشة « سيف أرعد » .

إلا أن قمرية لم يكن يغيب عليها عقد لقاء أكثر سرية بينها وبين الوزير « أبو ريفة » لا ستجلاء أمر مهمتها هذه المحفوفة بالمخاطر .

وهنا لم يقصر الوزير – الحجازى – الحكيم ، كلامه معها عند التحذير والنصائح ، بل دعاها إلى الثقة عن يقين حقيقى بالملك ذى اليزن ، لدرجة دفعت بالجارية – المغتالة أو المحتالة فى ذات الوقت – إلى التروى مفكرة منبهرة من عمق تفكير ذلك الملك وسماحته ، مما دفع بها دفعا الى التعجيل بمهمتها :

– فقط لكى أراه عن قرب ، فلقد أصبحت مبهورة بما أسمعه عنه .

حتى اذا ماحان موعد الرحيل ، ظلت طيلة الطريق الوعر الذى استغرق أياما ، غارقة بكاملها فى تصور شخصية وحضور ذلك الملك الباهر ، الذى ـ وكما يشاع عنه لم يقهر مظلوما ، أو يقف فى صف الظلم والتسلط ، ولم يكن يوما من الضاربين أو الباطشين ، رغم ماعرف عن أسلافه التباعنة من ظلم وتجبر .

حتى إذا ماحطت قافلتها مشرفة على عاصمة التبع ، العالية الأسوار وذات الأبراج والحصون والقصور ، ورأت أنهارها الجارية وبساتينها وقبابها ، تمنت الجارية ، وبعدما استراحت نفسها ، أن تقضى بقية حياتها هنا فى أحمرا .

– ياللروعة . . ياللبهاء !

بدت المدينة العالية الأبراج والحصون ، والتى صيغت قبابها من النحاس الأحمر القانى الاحمرار ، فى نظر قمرية ، كمثل مدن الأساطير القديمة الغابرة التى سمعتها تروى على الشفاه .

وظهر لعينيها الذكيتين كل شىء متناسقا : ألوان الواجهات الناصعة البياض والرسوم الجدارية التى تفيض تعبيرا عن مراحل حياة الملك التبع ذى اليزن والنقوش العربية المدونة على أصلب الأحجار والمعادن والجلود التى تزين الساحات والميادين والبساتين ودور العلم والأعلام ، والأسواق الخاصة بكل ماتشتهيه الأنفس ، من فاخر الديباج مثل أرجوان صور ونفائس فارس والهند ، وتلك الحلى الذهبية والفضية التى تزين جيد النساء ، مع أزيائهن الموشاة النفيسة .

كانت قمرية قد وصل بها الانبهار من مشاهد الحياة اليومية « لأحمرا» ، إلى حد دفع بها إلى استعادة حلمها القديم من الثراء والتملك الذى لايعرف له حد .

– أحمرا . . ياحلمى القديم !

هنا أطلت من خباء هودجها مشيرة إلى رئيس حرسها ، مطالبة بالإبطاء حتى يتاح لها أن ترى كل شىء فى المدينة وأن تملأ عينيها من جمالها ، مستنشقة تلك العطور الذكية التى استرخت لها ملامحها ، إلى حد أنساها كل توتر صاحب مهمتها العسيرة التى قدمت من أجلها وتحملت بسببها كل تلك المشاق .

تحسست قارورة سمومها التى خبأتها بين طيات شعرها العسجدى ، متنهدة مشيحة ببصرها إلى حيث قصر التبع ذى اليزن :

– وصلنا .

إلى أن حانت لحظة لقاء الملك التبع ذى اليزن بجارية ملك الحبشة « سيف أرعد » عقب سلسلة طويلة من لقاءات رجاله بها لمعرفة غرضها من تلك الزيارة ، وأخصهم وزيره الحكيم « يثرب » ، الذى أشار عليه بمقابلتها بعدما أعجب بجمالها الباهر ورجاحة عقلها وفصاحتها :

- أشهد أننى لم ألتق قبلها بأروع وأفصح من تلك السيدة المتعالية المتوقدة الذكاء .

وكان أن أشار الملك ذو اليزن بإدخالها ، حتى إذا ما تصافحا وقدمت إليه - قمرية رسائل ملك الحبشة ، وفضها مسرعا ، قاربها مادا إليها يده فى ثقة ، مما دفع بها إلى التراجع ، وهو يواصل الخطو باتجاهها مبتسما قليلا ، ثم اتجه بيده مشيرا إلى جدائل شعرها العسجدى المنسدل ، مما دفع بقمرية إلى أن ترفع يدها إلى شعرها ، مخرجة من فورها قارورة السم الضاربة الاخضرار من بين جدائل شعرها حيث تخبئها .

- هاهى !

ناولتها له مطرقة مستسلمة فى صمت حط عليها من بالغ انبهارها بالملك التبع ذى اليزن .

- مولاى .

أجلسها الملك على مقربة من فرشه .

-استريحى .

وامتد الحديث بينهما صافحها متوقدا ، دون أى شائبة أو خداع وكأنهما على معرفة وثيقة ببعضهما البعض منذ زمن طويل .

تحادثا فيما يحدث ويجرى على طول القارة السوداء بكياناتها وأقوامها المختلفة فى مصر والمغرب الكبير والقرن الأفريقى ونيجيريا وبلاد الحبشة .

وأفاضت معه قمرية فى حديث عميق عن الماء والتربة والأنهار وأخصها النيل كما استحوذت على إعجاب التبع حين تعرج الحديث بينهما عن تباعنة اليمن

واهتماماتهم بالسدود ومجارى الماء منذ « عبد شمس بن سبأ » وسده الشهير بسد مأرب .

كما تطابق رأيهما على كراهية الحروب والعدوان التى لاتحقق سوى قتل الأبرياء من الناس الآمنين :

-فيكفى الناس ماهم فيه من آلام وتطاحن يومى .

-أجل . . أجل . . فالحياة ذاتها تقتلنا يوما إثر يوم .

إلى أن غيرت قمرية مجرى الحديث وأخذت تتطلع فى عينى الملك فى ثبات قائلة :

- ماقبلت هذه المهمة - القذرة - إلا لكى أراك وأتحقق بنفسى بما سمعته عنك وعن سعة رحمتك .

ابتسم التبع ذو اليزن :

- ماذا سمعتِ ؟

قالت :

- سمعتُ مايبهر أعداءك قبل محبيك .

زفر الملك مستريحا :

- أحقا . . أتصْدقين ؟

اندفعت قمرية من فورها جاثية منكبة عند ركبتيه ، وتتطلع فى انبهار من تواضعه الجم ، فمد ذو اليزن يده إليها :

- اجلسى . . فى بيتك . . فى هذا الكفاية .

وعم صمت ثقيل بينهما ، ارتفعت فيه أصوات عزف موسيقى خافت وغناء من قاعة الطعام فدعاها التبع إلى العشاء مكررا :

- أنت فى بيتك .

كان الملك التبع ذو اليزن قد زاد من معرفته بها بعدما راقت فى عينيه ، محرزة من فورها مكانة فى قلبه لم يسبق لامرأة أن بلغتها من قبل .

وكان الملك ذو اليزن قد أصبح فى الفترات الأخيرة نهبا للوحشة والانعزال ، بعدما أحس مرضا حاول جاهدا كتمانه عن الجميع ، خاصة وهو لم يخلف له وريثا لعرش التباعنة .

لذا آثر كتمان آلامه وأحزانه ، تحسبا لمدى الأخطار التى يمكن أن تتفجر على طول مناطق حكمه ونفوذه المترامى ، إذا ماأشيع وتواتر خبر مرضه المفاجىء وما ألم به .

– كارثة .

ومن هنا جاء وصول تلك السيدة الحكيمة الباهرة الجمال الذى يزينه عقل راجح وبعد بصيرة ، متوافقا كل التوافق لما هو فيه :

– قمرية . . جئتنى فى وقتك .

كان قد عقد العزم على الاقتران بها من دون تردد وقبل فوت الأوان :

– من يدرى مايخبئه الدهر .

حتى إذا ما سنحت الفرصة للملك بعدما انقضى وقت العشاء ، أفضى أثناءها ذو اليزن لوزيره المقرب « يثرب» بإحساسه نحو قمرية ورغبته المتأججة الطاغية للاقتران بها ، رحب الوزير من فوره مباركا فى أقصى حماسه وسعادة .

وهكذا أقدم الملك التبع ذو اليزن على الاقتران بقمرية بسرعة وعجل ليخلف منها وريثا لعرش التباعنة :

– هيكل . . وندعوه : « سيف »

وهو الملك الفاتح سيف بن ذى يزن ، آخر الملوك التباعنة ، الذى سمى بأبى الأمصار ، وحروبه وفتوحاته فى أفريقيا والهند وبلاد الفرس .

وهو ماستطالعنا سيرته . بالجزء الثانى من هذا الكتاب .

# 16

## زواج ذى اليزن من قمرية

منذ اللحظة الأولى التى التقى فيها الملك التبع ذو اليزن بتلك الفتاة الباهرة الجمال المتوقدة الذكاء « قمرية » التى كانت قد جاءته – متسللة – كمغتالة تبغى أولا وقبل كل شىء إزهاق حياته ، عن طريق ترياقها المعجل ، تخلى عن كل شىء ولم يعد يعرف للنوم طعما .

بل إن التبع احتفظ بقارورة السم الزعاف كما هى إلى جانب فراشه . وكان يحلو له فى بعض الليالى تناول تلك القارورة المتناهية الدقة والصغر وتأملها مجددا بعدما استخرجتها – قمرية – خلسة – من بين جدائل شعرها العسجدى الضارب إلى الاحمرار، ثم مدت يدها له فناولتها إياه ، بطريقة تلقائية منذ لحظة لقائهما داخل قاعة عرشه ومن دون أن تنطق ببنت شفة .

ـ استريحى !

إلى درجة دفعت بالملك ذى اليزن إلى عدم مفاتحتها فى الأمر رغم تعدد لقاءاتهما ، وتعرف أبعاد تلك المؤامرة التى تهدف إلى اغتياله فى فراشه . كل ذلك من تدبير ملك الحبشة « سيف أرعد » الذى بدأ علاقته معه على هذا النحو الغادر الأثيم بل إن ذا اليزن تعمد من جانبه تغيير الموضوع بكامله بسؤاله لقمرية عن الملك سيف أرعد قائلا :

-كنت أنوى من جانبى الرد على هداياه بأفضل منها . [ أطرق مبتعدا ] لكن ما باليد حيلة .

ألجمت « قمرية » بدورها ، دون أن يسعفها ذكاؤها الذى اشتهر عنها ، أمام نبل شمائل ذلك الملك العربى الراجح العقل إلا أنها تململت مطرقة مغمغمة :

- ما أنا سوى رسول أيها الملك .

- أعرف .

قالت :

- ولعل هذا لم يكن قرارى منذ البداية .

هبت من فورها مقاومة انفعالاتها متجهة فى معاناة إلى حيث الشرفات الفسيحة المشرفة على السهل الذى شيد على أعلى قممه المطلة على مدينة « أحمرا » وقصر الملك التبع الحصين .

- أبدا . . لم يكن هذا قرارى .

- تقصدين اغتيالى ؟

- لم أقصد شيئا سوى أن أراك يوما .

قاربها التبع منبهرا من جمالها الطاغى :

لحظتها تدفقت الدموع السخية من عينى قمرية :

- أنالم أبك أبدا من قبل .

- أعرف .

اندفعت تتأمله فى أقصى حالات انبهارها ، كما لو كانت على معرفة سابقة كاملة ودقيقة بمعالم وقسمات وجهه :

- ابدا . . لم أعرف للنحيب طعما وإحساسا .

- أجل . . أعرف .

سألته فى عفوية طفولية طاغية وهى تقاربه أكثر متأملة إياه من تحت أهدابها المبللة :

– حما أتعرف . . كيف ؟

– مثلك لايبكى أبدا ياقمرية .

ضاحكها :

ـ الأذية .

هنا لم تتمالك قمرية السيطرة على مشاعرها فاندفعت تضحك من أعماقها ، كما لم تضحك أبدا فى حياتها ، إلى درجة أسقطت عنها كل أسلحتها ، لتعاود براءتها الأولى التى عاشتها يوما فى طفولتها « الأعجمية » . وقبل أن تأخذ طريقها –كجارية مملوكية – ذائعة الصيت تتقاذفها القصور والمؤامرات ودسائس الحكم والسياسة ، وحياة الترف والثراء وشهوات التسلط على أعناق ومصائر أعتى الملوك والأمراء ، إلى أن انتهى بها المطاف فى أعلى الذرى لدى ملك الأحباش « سيف أرعد » الذى بعث بها إلى ذى اليزن .

وهكذا لم تصدقها عيناها ، وهى تقف يوما فى مواجهة ملك هذه البقعة الشاسعة من الأرض ذى اليزن بوجهه السمح الآسر العميق المشاعر :

– لعلنى مازلت أحلم سابحة فى أغوار هذه اللحظة الدهر . . يا مليكى التبع .

أشار ذو اليزن بذراعه عبر شرفات قصره :

– نحن مازلنا فى وضح النهار . . أيتها الأميرة قمرية .

ومرة أخرى انهمرت عينا قمرية الباهرتا الجمال دموعا مدرارة ، متسائلة مدهَشَة :

– أميرة ؟

هنا علا رنين جرس الاستئذان بالدخول ، وانفتح باب قاعة عرش التباعنة على مصراعيه ، واندفع الوزير الأول « يثرب » داخلا فى مهابته ، إلا أنه توقف وقد أدهشه مشهدها المفصح دون كثير عناء عن الكثير من الأمور الجليلة :

– ماذا يحدث ؟

غمغم يثرب متسائلا لنفسه ، وقد جمد فى مكانه حيث يقف ، إلى أن أشار الملك التبع له بالدخول :

– صديقى الوفى . . يثرب .

تقدم الوزير يثرب مسرا للملك بموعد الحفل :

– وصلت مواكب الوفود .

تطلع الملك إلى السماء وكأنه يقرأ الوقت :

– وصلوا . أشار الملك لمساعديه منسحبا مربتا على يدى قمرية ، وأحاط على الفور أربعة من مساعديه فألبسوه تاجه وعباءته وطيلسانه ، وحين انتهوا من مهمتهم ، اتجه ذو اليزن إلى حيث تقف « قمرية » مادا لها ذراعه فى استئذان نبيل :

–لم لا تحضرين هذا الحفل معنا الليلة يا قمرية ؟

ارتعدت قمرية من الرأس حتى القدم من هول مفاجأة الملك التبع لها على هذا النحو ، وحاولت بسرعة السيطرة على حواسها وهى تمسك بيد الملك التى مدت لها .

أما الوزير يثرب فقد غالب اندهاشه معلقا قائلا :

– إنه حفل الأسلاف التباعنة الذى يحل موعده الموافق لهذا الشهر القمرى من كل عام ، ويحضره الملوك والأمراء والسفراء من سبأ وحضر موت ويثرب ومصر وبلاد النبط وفارس وبلاد بنط ودمشق والمغرب الكبير .

ولم يكمل الوزير يثرب حديثه عن الحفل ، إذ طغت موسيقى تتخللها الهتافات المدوية بحياة الملك التبع ، فى ذات اللحظة التى انفتحت فيها قاعات القصر ، التى بدت وكما لوكانت قاعات دائرية مسحورة تدور فى بطء وديع مهدهد مع اتجاه حركة الشمس فى الأفق البعيد التى بدت حمراء قانية .

وبدت القاعات الفسيحة المتناهية الروعة غاصة بالوفود المشرئبة بأعناقها باتجاه الملك

ذى اليزن ، وقمرية إلى جانبه متأبطة ذراعه غير مصدقة مايُحدث ولكنها أدركت فى النهاية مغزى اصطحاب الملك التبع لها جهارا على هذا النحو ، إلى درجة دفعت بها إلى القول فى جدية بالغة :

– إذا تخليت عنى بعد اليوم . . سأتجرع سمومى !

ـ لن يحدث .

وحين بدأ الملك النزول عن أولى درجات عرشه . انحنت هامات الوفود رجالا ونساء وصدحت الموسيقى ، ودارت أطباق الطعام وكؤوس الشراب وتقدم الملك ذو اليزن محييا مرحبا بالجميع ممازحا إياهم فى حنو بالغ معلنا تقديمه « لقمرية » فى بساطة وهو يضاحكها على مرأى من الجميع قبل أن يطلب يدها بعفوية بالغة :

– أتقبلينني زوجا ؟

فما كان من قمرية إلا أن تراجعت منزوية خجلا من روعة وصفاء ذلك الملك البهى الطلعة الذى لم يدرك أبعاد الصدمات المتتالية التى أحدثتها هذه الليلة العاتية المتلاحقة الأحداث «لقمرية » التى تمتمت بخجل بالغ قائلة :

– يبدو أنك أنت أيها الملك الذى ستعجل باغتيالى الليلة . . قبل الأوان .

أجابها ذو اليزن مازحا :

– واحدة بواحدة .

إلى أن واجهها بغتة فى جدية :

– أتقبلينني ؟

– أقبلك !

ثم أطرقت خجلا .

قال موجها حديثه هذه المرة لكبار مدعويه من مختلف بقاع الأرض ، بأزيائهم الغريبة الشديدة الاختلاف والتنوع المتضاربة الألوان والمجوهرات :

– أتمنى أن يتحقق أملى يوما . . لأخلف من قمرية وريثاً لعرش التباعنة . . مجرد أمنية .

تنهد الملك جانبا مخفيا ماعترى وجهه من تعبير يفيض بالأسى ثم أردف قائلا :

–قبل فوات الأوان .

صفق المدعوون ، وعلت الموسيقى والغناء وتبارى الشعراء فى تمجيد الملك التبع ، بينما اندفعت قمرية تبذل أقصى طاقاتها للسيطرة على مشاعرها إلى أن أخرجها الملك من أحلامها :

–لعلنى أخلف منك يوماً وريثى . « هيكل » .

هنا سرى الاسم بين الجموع متلاحقا من مجموعة إلى أخرى ومن فم إلى آخر إلى أن عم الصالات الواسعة الغاصة بالشموع والمشاعل وموائد الطعام والشراب والشواء ، ومختلف الفرق الموسيقية والأكداس المكدسة من ثمين الهدايا النادرة والمجوهرات :

– هيكل . . هيكل .

قال الملك ذو اليزن موضحاً :

– هو« هيكل » . . وسأدعوه « سيف » .

وتدافعت الوفود أكثر من كل حدب وصوب وهى تتطلع مرة إلى وجه الملك التبع ، ومرة إلى قمرية وقد اعتراها الذهول الذى أفصحت عنه الملامح اللاغطة المحبة لذلك الملك الذى لم يعهدوه أبدا يخطو بمعزل عن الخير : – هيكل . . سيف . أحقا مانسمع ونرى . . هيكل . . سيف !

تساءل الجميع فى همس هنا وهناك :

ـ أحقا مايحدث ؟!

إلا أن قمرية اعتراها حزن غريب عميق الأغوار لم تعهده أبدا ، وهى التى قضت حياتها بكاملها داخل ساحات ومحارم قصور مشابهة دون أن تصدم يوما من الأيام بمثقال ذرة كما صدمتها هذه الليلة المتلاحقة الأحداث .

– ما الذى اعترى الملك الليلة ، ليصدم الجميع على هذا النحو منّ الغرابة التى قد تفضى إلى توقف القلب عن نبضاته والدم عن سريانه ، وتؤدى إلى الموت الزؤام . . الموت اندهاشا . . لماذا ؟

لقد مشت تشد على يد الملك حيث يتوجه قلبها ، أو لعله سيقفز منخلعا من بين جوانحها . لقد جاءته منذ أيام معدودات متآمرة مغتالة تتأبط سمها الزعاف لترديه قتيلا فى غمضة عين ، ثم هاهى الآن أميرة ممسكة يده التى لو حدث وتخلت عنها ، لفارقت الحياة بأسرها من فورها :

– ما معنى هذا . . الليلة !

ـ هيكل . . وسأدعوه : سيف !

تساءلت :

– من جاريتك . . قمرية ؟

أجاب دون تردد ممسكا يدها برفق :

– أجل .

شردت ببصرها :

لو أن الشمس الغاربة لتوها أعادت إشراقها الآن حالا لما تساءلت . . لماذا ، ولما كانت عثرت على جواب شاف .

حتى اذا ما سنحت لحظة قاربها فيها وزيره وصفيه المقرب « يثرب» اتجهت اليه قمرية بسؤالها الأزلى معبرة بكل وجهها وخلجاتها :

– لماذا ؟

أجابها الوزير يثرب :

– لأنه ذو اليزن .

استكانت لحظة مطلقة عنان أفكارها لذلك الحب الطاغى المكبل الذى اعتراها فجأة ودون سابق إنذار من الرأس حتى القدمين مرددة بعده :

- ذو اليزن .

هنا تدافعت الوفود المتطلعة إليهما من كل جنبات القاعة العملاقة مهنئة مهللة وهى تلقى بنادر الهدايا تحت أقدامها ، النساء قبل الرجال يخلعن عنهن أساورهن وأقراطهن الذهبية المرصعة بالياقوت والزمرد والرجال خناجرهم الإبريزية وما يحملونه من ثمين الأحجار الكريمة مهنئين :

- حان الوقت . . وحل الأوان . . مبروك ياأميرتنا . وعلى الفور علا اسمها :

-قمرية . . قمرية !



# 17

## جنون ملك الحبشة

جن جنون ملك الأحباش « سيف أرعد » حين تنامى إلى سمعه الكيفية التى انتهت إليها مهمة تلك الجارية التى كانت تغل سيما « قمرية » ، والتى بلغت ذروتها القصوى منذ لحظة وصولها إلى مدينة التبع اليمنى الغازى ذى اليزن ، « أحمرا » فبدلا من أن ترديه قتيلا بسمها الزعاف الناقع ، أوقعته فى حبائلها إلى حد إقدامه على الزواج منها :

-أحقا ماأسمع . . يالها من كارثة .

اربد وجه الملك وهو يسمع ويقرأ تقارير عيونه وبصاصيه ، مقارنا الواحد بالآخر ، وأزعجه أنها جميعها تلتقى على الزواج من قمرية ، ليخلف منها وريثا « لعرش التباعنة العظام » .

تساءل الملك محطما من فوره كل ماتقع عليه يداه فى غضب مندفع جارف :

– عرش التباعنة العظام . . هنا فى قلب أفريقيا هنا . . على مقربة منا . . من أثيوبيا !

لحق به وزيره المقرب الذى يمقت العرب ملهوفا محاولا تهدئة ما ألم به من ثورة غاضبة ، حين استدار إليه الملك دافعا إليه بكومة ماتلقاه من تقارير :

– إنها مشورتك . . اقرأ ياسقرديون !

– قرأتها بكاملها حرفاً حرفاً .

رفع الملك ذراعه المغطى بالأختام والأساور المصاغة من الذهب الإبريزى الأحمر صارخا :

- سيتزوجها التبع تصور . يتزوج من قمرية .

رفع صولجانه مشهرا مهددا :

- ليخلف منها وريثا لعرش التباعنة . وهنا . . هنا عند أعتابنا . . على أعتاب أسعد يهوذا .

أعاد مسرعا قراءة أحد التقارير :

- لقد حدد اسمه وهو لايزال فى بطن أمه « الأذية » . . « هيكل » . . وسيدعونه «سيف » ، ليشهره فى وجهى . . فى مقتلى أنا وليس أحد سواى . . بالطبع من هو غيرى أنا .

وعلى الفور تصور الملك أرعد ، مائدة ملك بعلبك المسمومة ، وماانتهت إليه ، صارخا فى وجه وزيره المأخوذ سقرديون :

- هى بذاتها الحكاية القديمة ، تطل برأسها من جديد تماما . . مثلما حدث مع ملك بعلبك وانتهى بقطع رأسه .

تهاوى من فوره جالسا على عرشه - عرش أسد يهوذا - آخذا رأسه بين ساعديه :

- الحكاية القديمة . . هه . . والآن جاء دورى أنا . . هنا .

غمغم ساخرا :

- فالتبع لايبغى حربا . . بل انتقاما .

وكما لو أن أطماع وأحلام ملك الأحباش قد تهاوت كلها دفعة واحدة ، كما لوكانت مجرد أضغاث أحلام ، استحالت فجأة إلى كوابيس محاصرة مروعة لامهرب له ولا فكاك منها :

- إلى أين ؟

كانت أحلامه وأطماعه لاتقف فقط عند مجرد حكم أثيوبيا وتوابعها ، بل كان قد ورث بدوره عن أسلافه السيطرة على النيل ومنابعه حتى مصبه ، فكان يمد بصره إلى السودان والقرن الأفريقى والصوما ل وأريتريا ومراكش بل والمغرب الكبير بكامله وبلاد النوبة ومصر العليا ، لتنتهى تلك الأطماع مؤمنة حدوده على مشارف البحر الأبيض المتوسط ومنارته « فاروس » ، التى أصبحت الاسكندرية فيما بعد .

بل هى لم تكن أبدا مجرد أحلام وأطماع ، توارثها الملك « سيف أرعد » عن أجداده وأسلافه جيلا إثر جيل ، بل كانت أطماعا شخصية أيضا عمل فعلا على تحقيقها ، وزاد عليها أطماعه الأسيوية فى بلاد التبع ذاته فى جنوب جزيرة العرب منبت ومنبع ذلك الخطر الجاثم دوما على بلاده وأمنها .

لذا واصل الملك أرعد على الدوام إعداد فيالقه المحاربة الزاحفة التى لم يكن ينقطع هجومها وغاراتها الخاطفة على حدود ومدن تلك البلاد ، ثم العودة من جديد الى أثيوبيا ، بالأسلاب والأسرى والغنائم من « ذوى البشرة البيضاء » ، تمهيدا لإعداد العدة للزحف الكبير وإحكام قبضة الحبشة عليها شمالا وغربا .

وكان يرجىء ذلك الزحف دوما بانتظار الانتهاء من أقوى وأصلب أعدائه ، وهو ذلك التبع اليمنى ذو اليزن ، الذى بدد منذ نزوله بجيشه وقبائله ، أحلامه وأطماعه .

وها هو أخيرا - أى التبع - قد سد عليه كل المنافذ باكتشافه لأبعاد خطة اغتياله الخسيسة المغلفة بثمين الهدايا ورسائل المودة وحسن الجوار ، حين أرسل اليه - بسفيرته - قمرية .

انتفض سيف أرعد من جديد منتصبا متحركا على طول جنبات وردهات قصره ، ووزيره المتنمر سقرديون فى إثره ، يتحين لحظة تهدئة ثائرته ، ليفضى إليه بخطته الجديدة حول كيفية التخلص بأسرع الطرق وأنجعها من أولئك العرب الغزاة وشرورهم .

اتجه الملك أرعد من فوره إلى حيث خلوته ، عابرا الجسر الموصل بين مقره وقلعته

الواقعة داخل الميناء المطوق من ثلاث جهات ، والذى حوله إلى شبه جزيرة حصينة، إلى أن توقف مستديرا لوزيره سقرديون مفضيا إليه بهواجسه :

– لابد أنه عرف بخطتنا .

أجابه الوزير باقتضاب :

– من قمرية . . الحبيبة الجديدة التى أصبح الطريق إليها مفتوحا لتعتلى عرش التباعنة .

نظر الملك أرعد إلى الماء مغموما :

– لاتقف أطماعها أبدا عند حد . . تلك الجارية البيضاء .

– حية رقطاء . . أعجمية .

غمغم الملك مهموما بمرارة بالغة .

– أما من مهرب أبدا من هذا العالم الملىء بالجنس الأبيض . . وشروره . . هه . . ها هى قمرية وبعد كل ماقدمته لها زاحفا عند أقدامها .

عاتبه وزيره :

– حين أهملت كل تحذيراتى عنها .

–لننس مامضى . . لتذره الرياح .

علا صوت الملك مهددا :

– نحن هنا الآن . . وفى هذا المكان . التبع لاينسى ثأره . . لحظة ، مهما تظاهر بالسماحة ، وهو أنه لايبدأ حربا ولايمشى أبدا إلى حيث الخراب .

عبرا ممشى جانبيا يقود إلى « ذهبية » عائمة إلى أن أصبحا وسط البحر الملبد بالغيوم المتعانقة مع سفوح الجبال الشاهقة المحيطة . . وغابا طويلا داخل أغوار البحر المحيط :

– جحيم التبع اليمنى . . وانتظاره . . جحيم .

أما التبع ذو اليزن ، فقد أرجأ على عادته السمحة انتقامه من ملك الأحباش الذى بدأ علاقته به على ذلك النحو الغادر ، منشغلا بحبه الجديد من تلك الفتاة - قمرية - التى جاءته قاتلة ومغتالة ، فتملكت من فورها أعماق قلبه ، حين ذرفت أمامه دموعها مدرارا ندما على ما أقدمت عليه فى البداية ، وانتهى إليه أمرها إلى حب عميق ضارب الجذور والأبعاد للملك الضحية البهى الطلعة الذى أسرها أسرا بسماحته وفروسيته .

ومن هنا تلاقيا معا منذ البداية - التبع وقمرية - على أرض صلبة من المكاشفة والصراحة ، فكانا أن رسخا جذور الحب بدلا من البغضاء والتآمر .

وكان كلما مر يوم جديد ، تكشف للتبع مدى طاقات وقدرات - قمرية - نتيجة عميق معرفتها الواسعة بالكثير من الأمور والمعارف والأحداث ، سواء منها ما كان غابرا مندثرا ، أو ماثلا يواصل جريانه وسريانه اليومى ليصل يوما إلى مثواه ومنتهاه الأخير .

كانت على معرفة واسعة بجزيرة العرب شمالا وجنوبا ، ومايعتمل فيها من أحداث وصراعات وهجرات قارية وحروب ومنازعات قبائلية وعرقية وعشائرية .

بل هى استفاضت معه الليالى إثر الليالى ، أو خلال رحلاتهما معا للصيد والقنص والتريض واللهو عبر بساتين وقلاع وحصون « أحمرا » ، وما بدأ يستجد حولها من مدن ومضارب وليدة ، يتحادثان معا حول تاريخ جدوده التباعنة وسيرهم وأخص سماتهم وحروبهم وغزواتهم وشعائرهم ومآثرهم وماقيل فيهم من أشعار ومراث أو قبوريات ، بدءا من جدهم السالف « يعرب » الذى ينسب اليه أنه كان أول من تكلم العربية ، «قبل حادث بناء مدينة بابل وبرجها الكبير ، وتبلبل الألسنة بها » ، وبها - أى بالعربية - نطقت بقية القبائل مثل : عاد وثمود وطسم وجديس - قوم زرقاء اليمامة - والعماليق ورائش .

واستفاضت معه - قمرية مطولا خاصة عن مدينتى عاد وثمود ، اللتين يسميهما الأحباش مدينتى مرقسيا وبرجيسيا ، وكيف أنهما كانتا عامرتين إذ كان لكل مدينة عشرة آلاف باب .

وكانت قمرية على دراية معجزة بالأنساب العربية - بل وغير العربية من أعجمية -

بدءا من أبناء يعرب ملوك سبأ ، وكان أولهم الملك التبع عبد شمس بن سبأ ، الذى سمى سبأ ، لأنه كان يسبى أعداءه ، ومن نسله انحدر ملوك حمير وكهلان ، ومن كهلان جاءت أشهر بطونها ، قبائل الأزد - الذين تفرقوا عقب خراب سدود اليمن ، وكان أهمها سد مأرب ، وسد الخانق بصعده وسد ريعان الذى أعاد بناءه الملك ذو اليزن قبل مجيئه إلى هذه البلاد ، وسد سنان وعنس وجيرة ، بالإضافة إلى بقية السدود التى أعاد الملك ذو اليزن بناءها أو تعليتها أو مضاعفة منسوباتها من المياه ، مثل سدود :

« سحر » وذى سمال ، وذى رعين ، ولحج ، ومفاضة . . وهران ، والشبعانى ، والمنهاد ، ولطاف » .

كان أكثر مايثير إعجاب الملك التبع ذى اليزن فى قمرية ، هو قدرتها الخارقة على حفظها الدقيق للمراحل التاريخية الغابرة ، لمثل هذه السدود والمنشآت المائية التى أسهم فى بنائها أو ترميمها ذو اليزن ، مضيفة الكثير من المعارف والمعلومات التى غابت عنه - كبناء - قبل أن يكون متبحرا بخلفيتها التاريخية .

وهكذا أفاضت معه قمرية فى الحديث حول ثلاثة وثلاثين سدا ، لدرجة دفعت به إلى إعادة الاهتمام والتحقق من كلامها بإرسال رسله لاستكمال العمل فى بعضها حتى إنه أطلق على أحدها سد قمرية .

حتى إذا ماتعرج الحديث بينهما حول منحىً آخر جديد ، تزايد إعجاب الملك بها ، خاصة فى مخزون معلوماتها ومعارفها عن معتقدات العرب الغابرة او المندثرة مثل الموحدين وغيرهم ، وأهمهم الشاعر أمية بن أبى الصلت وخالد بن سنان العبسى ، والشاعرة طريفة ، والشق بن أنمار ، وإسماعيل بن ثابت بن قيدار ، والحارس بن معاف ، والأخير هو القائل عقب هزيمة قبائل جرهم أو الجراهمة لقومه :

وكنـا ولاة البيت مـن بعـد ثابت
نطوف بذاك البيت والعز ظاهـر
وصرنـا أحـاديث وكنـا بغبطـة
كذلك عصتنـا السنـون الغوابـر

فسحت دموع العين تجرى لبلدة

بها الأمن أمن الله فيهـا المشاعـر

ولكم تمنت قمرية على الملك ذى اليزن أن ييسر لها زيارة « البيت » فى مكة المكرمة ، فوعدها ذو اليزن بذلك ، حالما الانتهاء من إتمام مراسيم زواجه منها ، وهو الزواج الذى أصبح يتعجله بصبر نافد ، إلى حد الاستعجال الواضح .

وهو ماكان يدفع بقمرية إلى التساؤل ، و إطالة التفكير وحدها فى لحظات خلوتها دون التوصل إلى جواب تشفى به تعطشها :

– لماذا العجلة بالزواج ؟

بل إن الملك بدأ فى أيامه الأخيرة يستفيض معها فى الكيفية المثلى لمواصلة حكم حمير والبلاد المفتوحة ، مشددا على أهمية سيادة العدل والحكمة ، وكأنه إنما يوصيها هى بذلك قبل غيرها

– لماذا هى بالذات . . وما الذى يبغيه ؟

لقد أصبحت ، ومنذ لحظة لقائهما الأول ، لاتفكر فى مخلوق آخر سواه ، فما هو – ذو اليزن سوى الماء الحى الذى يروى صحراءها العطشى المجدبة ، وفى انقطاعه عنها ، موتها المحقق كما سبق أن ذكرت :

– إذا ابتعدت عنى بعد اليوم . . سأتجرع سمومى .

تساءلت أمام مراياها العاكسة كالمذهولة :

– تراه يتصورنى طامعة فى ملكه .

أضافت :

– أنا حقا طامعة فيه ولاشىء آخر فى هذا العالم الفانى يغنينى عنه ، وسواء أكان ذا اليزن أو صيادا معدما فهو عالمى الوحيد . . جلى . . وفى هذا الكفاية لشفاء ظمئى المتحرق منذ لحظة اللقاء الأول التى لن أنساها ماحييت .

حتى إذا ماضاق بها الخناق يوما دون أن تعثر على جواب شاف لتساؤلاتها هذه التى

لا جواب لها ، اتجهت يوما إلى وزيره الأول وصفيه « يثرب » ، مختلية به سائلة :

- كثيرا مايراودنى التساؤل ، حول سوء فهم الملك لى . وكأننى إنما جئته طامعة فى ملكه . أقول لك الحق . . أنا فعلا طامعة . . لكن فيه هو ذاته ، وما عداه سراب .

عندئذ هدأ الوزير يثرب من روعها ، إلا أنه ولدهشتها أعاد إليها ذات التساؤل

- أنا حقا لا أعرف . . ماالذى اعترى التبع فى هذه الأيام ؟ تطلعت إلى الوزير فى أقصى دهشتها :

- أنت أيضا !

قال فى غموض :

- لا أعرف . !

- كيف لاتعرف ؟

أضاف أكثر غموضا :

- يخيل إلى أنه يخفى شيئا عنا جميعا .

قاربته قمرية مناشدة :

- ماهو هذا الشىء الذى يخفيه عنا ؟

أضاف يثرب :

-أصبح فى الآونة الاخيرة كثير الحديث عن وريث لملكه المترامى .

شردت قمرية غائبة فى تفكيرها :

-فعلا . أصبح لاحديث له . . سوى . . أجهشت بالبكاء فجأة وهى تدق فى عصبية الجدار المواجه :

- يالنكبتى . . يالنكبتى .

قاربها الوزير يثرب فى حنو :

- هدئى يا أميرتى من روعك وحاولى ما استطعت إبعاد مثل هذا الخاطر .

لاشىء سيحدث سوى كل خير . . والملك شديد الاستبشار بك منذ حللت فى حياته التى كانت موحشة ، فأنت أعرف الناس بزهده عن النساء .

مضى يجفف لها دموعها الغزيرة بمنديله قائلا :

– حاولى مااستطعت إسعاد الملك التبع الذى أعطى كل حياته للناس ولم يفكر لحظة فى نفسه هو . . حاولى .

اتجهت اليه معاودة التساؤل من خلف دموعها التى انهمرت مجددا :

– كيف ؟

– فكرى فى عرسكما معا قالت .

– أنا رهن إشارته . ولا أريد أى عرس لا أريد سواه فى هذا العالم المظلم . .

واصلت البكاء والنحيب فى حدة :

– لماذا . . لماذا ؟

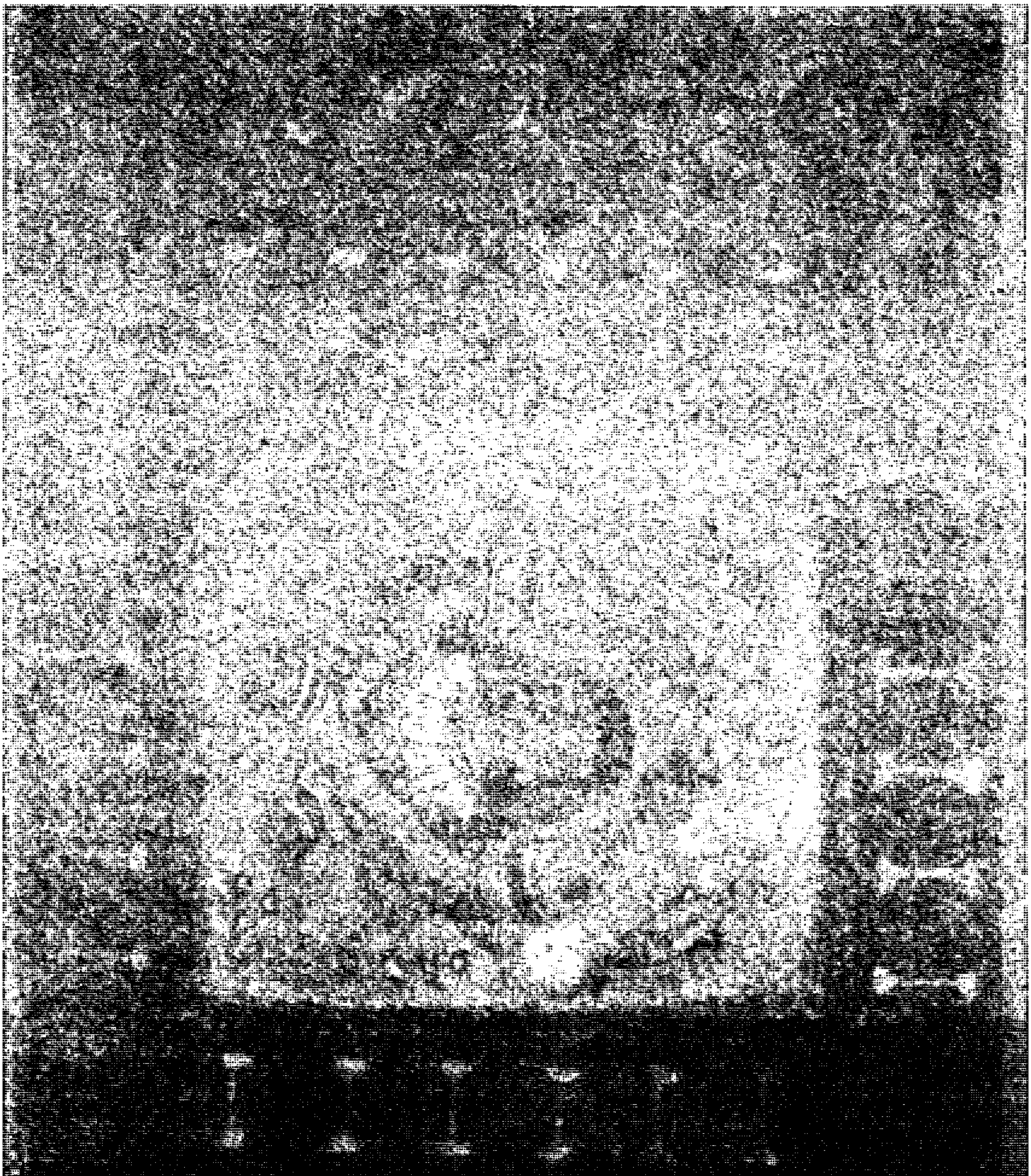
فتح الباب فجأة وتوقف الملك ذو اليزن قائلا بصوته الهادىء النبرات :

– ماذا . . اتبكياننى من الآن ؟

تقدم منها ممازحا :

– هأنا الآن مازلت فى هذا الجسد .

أدارت قمرية وجهها ثانية غارقة فى دموعها .



## 18

## مراسم عرس التبع

ما أن وصلت وفود المهنئين أفواجا إثر أفواج إلى عاصمة التباعنة الجديدة - أحمرا - محملين بثمين الهدايا والكنوز للمشاركة فى حفل عرس الملك التبع ذى اليزن ، حتى أشرف الوزير الأول « يثرب » على نزولهم بقصور الضيافة التى أعدت لهم ، والملحقة بقصر التبع .

وجاءت الوفود المشاركة من الملوك والأمراء والحكام وشيوخ القبائل من اليمن والجنوب العربى وشمال جزيرة العرب والشام ومصر والعراق والمغرب الكبير .

وابتهج الجميع بهذا الحدث الكبير ، استبشارا بأن يخلف التبع ذو اليزن من زوجته قمرية التى وقع اختياره عليها وريثا لعرش التباعنة ، كما سبق للملك أن تمنى :

هيكل . . وكنيته : سيف .

وهكذا ارتفعت الدعوات وعلت الأمانى بأن ينال ذلك الملك الرحيم العفوف - ذو اليزن - يوما مبتغاه ، خاصة وقد تكاثرت أطماع الأحباش وملكهم المتآمر المعادى للعرب « سيف أرعد » ووزيره الشرير « سقرديون » .

لذا استبشر الجميع فى ربوع اليمن والجزيرة ومصر ومابين النهرين والمغرب الكبيربتلك الخطوة التى أقدم عليها التبع ، بعد طول زهد فى التفكير فى الزواج والإنجاب ، ولو من مدخل الحفاظ على ذلك الرمز الذى استقر تحته الجميع كمظلة آمنة تشد أزرهم ضد أى عدوان مبيت .

فالملك ذو اليزن ذاته بدا فى سنواته الأخيرة رافضا للحرب والعدوان ، لايشغله شىء سوى إنشاء مشاريع شق الأنهار واختزان الماء بتشييد السدود والخزانات والمنشآت التى تتيح لتلك الأفواه الجائعة الحياة والنمو والازدهار ، بالإضافة إلى أحلامه فى نشر العدل والأمن للجميع ، حتى لهجت الأفواه من أقاصى الأرض بالحب والثناء له :

– شدد الله ساعد ذى اليزن الرحيم الضارب وجرت مراسيم عرس التبع باحتفالات باهرة على طول مدينة – أحمرا– وعرضها ، وكان أكثر الجميع حبورا ومباركه . . لما يحدث، وزيره المقرب « يثرب » عقب تيقنه من حب « قمرية » للتبع ومدى فصاحتها وعمق بصيرتها وعلمها ومعارفها ورجاحة عقلها . إلا أن قمرية ظلت نهبا لأحزان ثقيلة مخيمة تتصل جميعها بزواجها من التبع ولا تعرف لها أصلا ولاسببا واحدا :

– لماذا ؟

وكانت كلما اجتمعت بالملك ذى اليزن وامتد بينهما الحديث وتعرج ، يعاود الملك تأكيد وصاياه لها ، سواء بالنسبة إلى شئون حكم البلدان المترامية وكيفية تسييسها وإدارة دفتها ، أو بالنسبة إلى ذريته المرتقبة منها – ذكرا كان أو أنثى – أو فيما يتصل بحماية مشاريعه المائية والزراعية ، أو فى التشدد معها فى نصرة المظلوم وتسييد العقل والحكمة . وكانت هذه الأحداث تعيدها إلى أحزانها الغامضة الدفينة التى لا تعرف لها سببا .

كانت تسائل نفسها فى وحدتها :

– لماذا يتعمد الملك إثارة أحزانى ودموعى التى أصبحت لاتنقطع . إلى درجة أنها أصبحت تمقت هذا الضعف فى نفسها ، وهى التى لم تكن تعرف للبكاء ونزف الدموع طعما – كعادة النساء – قبل حبها ذلك الجارف المتفجر .

وسألت فى هذا ، الكثير من مقربيه من أمراء وحكماء وشيوخ القبائل حتى وزيره «يثرب » ، فلم يزدها الأمر سوى إلى التيه والافتقاد فى بحر الغموض الذى تعيشه .

حتى عندما انتهت مراسيم الزواج ، حاولت التسلل إلى مكنونات قلبه لمعرفة مابه ، لكن هيهات ! .

فلقد كان كل ما يتعجله منها ، هو الخلفة والذرية ، مما دفع بها أكثر إلى التوتر ومعاودة التساؤل حول غرابة أطوار ذلك الملك الزوج الذى لا يكبرها كثيرا ، والذى أصبح كمن ينتظر مجهولا لا قبل لأحد بانتظاره .

فكانت كلما مرت بهما الأيام والليالى ، كلما تضاعفت لهفته بانتظار مولودهما :

– سيف . . درعى القادم . . أين ؟

ويمضى يتفوه بتلك الكلمات التى عرفت عن تباعنة اليمن وحكمائهم إزاء شعورهم باقتراب الأجل مثل الحكيم لقمان بن عاد صاحب النسور أو لقمان « ذى النسور » الذى ربط بين موته وفناء آخر نسوره السبعة وكانت أسماء تلك النسور على التوالى هى : المصون ، وعوض ، وخلف ومغبغب ، واليسر – أو الميسرة – وإنسى ، لذا كان يتسمى بلقمان الأنسى ، وكان سابعها هو النسر « لبد »

وحين وافت المنية ذلك النسر السابع « لبد » فسقط مشرفا على الموت ، ولم يقدر أن ينهض ، و « تفسخ ريشه » كما يقولون ، ناداه لقمان :

– انهض لبد . . أنت الأبد .

ولما لم ينهض ويطير من جديد محلقا بجناحيه ، أنشد لقمان يبكى نفسه :

موتى إنى أموت اليوم يالبد

واحسرتى أن قد تعرم الأبد .

فَطِرْ كما كنت سالما أبدا .

تحيا ونحيا معا ونحتفد

فكثيرا ماتندر لها ذو اليزن بأشعار التباعنة – الدهريين – فى وحدتيهما ، كما ذكر لها ماقاله امرؤ القيس بن حجر المقصور بن الحرث آكل المرار الكندى وهو يرثى ذا القرنين الصعب بن ذى مراثد الحميرى :

ألم يخبرك أن الدهر غول

ختور العهد يلتهم الرجالا .

ثم ينشد متغنيا :

يقولون لاتبعد وهم يدفنوننى

وأين مكان البعد إلا مكانيا .

بل إن ماآلم قمرية وهى ماتزال بعد عروسا وضاعف من تمزقها وأحزانها وعذاباتها ، هو التحول السريع المتلاحق الذى حل بالملك ، وزهده فى الحكم موكلا أمر العسير من قرارته الجوهرية ، إليها هى وحدها :

– عليكم بالأميرة .

وكانت كلما واجهته متعثرة نهبا لمشاعرها الحزينة الآسية ، بعدم معرفتها بأصول الحكم أجابها :

– ولِمَ لا . . أنتِ زوجتى تعلمِى . تمرسىِ . أنا لست بخَالدِ .

صحيح أنها كانت تلجأ فى مثل هذه الحالات إلى منجدها ، وهو الوزير الأو ل يثرب ، ولكن أين لها بقرارات تتصل بالحرب والسلم وعقد المعاهدات وتسيير الجيوش وشق الطرق والسدود فى شمال الهند ، وأندونسيا والتركستان ومصر والمغرب الكبير ووادى الرافدين وحضر موت ويثرب ودمشق ؟

أين هى من كل هذا لِتحكُمَ وتنهى ، وهى التى جاءته يوما تحت أستارها وأقنعتها محملة بسمومها المعجلة . . ساعيه للقتل والاغتيال .

إلى أن تحقق حدث « قمرية » وحل وهن المرض بالملك ذى اليزن ، فلم يمهله طويلا ، إذ ألزمه فراشه لايبرحه .

وجاء توقيته متوافقا وكأنه على موعد مع تحرك ابنه – كجنين – فى أحشاء أمه قمرية .

وكم كانت فرحته الكبرى وهو معلول ذابل الوجه على فراشه ، حين قاربته زوجته ،

وهى تسعى إليه على ركبتها وهو راقد على فراشه آخذة يده الحنونة الرحيمة لاثمة قبل أن تضعها على بطنها :

- ماذا ياقمرية ؟

-ابنك .

-أحقا ماتقولين ؟

- هيكل . . سيف . . هاهو يلهو معاتبا ويود لو يلثم جبهتك الأبية .

علت وجهه ابتسامة واهنة وهو يعانى من آلامه المبرحة مجاهدا على نفسه لتقبل لحظة فرح :

- ابنى . . ليتنى فقط يمتد بى العمر إلى أن أراه ، آهٍ . . سيف . . وحيدى !

أغمض عينيه مستسلما فى أحلامه قبل أن يأخذه النوم العميق .

بعدها لم تعرف قمرية كيف تتصرف ، وهى تشهد بعينيها انزواء الملك واكفهراره تحت ثقل علته العاتية التى حيرت جميع حكماء ومطببى الأرض .

استقدموا له حكماء مصر والشام واليمن والهند ، الذين تزاحموا على قصره من كل صوب ، ولكن لا من دواء شافٍ .

وظل ذو اليزن تائها عبر غيبوبة مرضه العضال الأيام والشهور الثقيلة لايسأل عن شىء إلا عن ابنه المنتظر :

- لن أموت قبل أن تكتحل عيناى برؤيته بين أحضانك ياقمرية .

وهذا الجواب لم يكن يسعف قمرية أو يروى أحزانها فكانت تلجأ للدموع :

- هاهو يضحك لك من أعماقى .

ابتسم الملك فى وهن :

- سيف . . سيف . . متى ؟

اكفهرت قمرية وغاب عنها لونها وهى تشهد الملك الذى أحبته من أعماق

قلبها يعانى آلامه المبرحة على هذا النحو خاصة بعدما سمعته يتعجل رؤية وحيده على هذا الشكل الملح .

- متى ؟

قاربته محتضنة فى انفعال ، وهى تمسح عنه بكف يدها الحانية ، خيوط عرقه النازف على وجهه وجبهته العالية المشرئبة فى سمو ، قائلة وهى تضاحكه مخفية عنه آلامها ومعاناتها مما سمعته وأصبحت لاتقدر على الإفصاح عنه :

- أتقول متى . تراهننى على أنك ستشفى حالا من آلامك العابرة هذه ، وفى عزك ومجدك سيتربى سيف وينمو .

غمغم ذو اليزن بفروسيته المعهودة متقبلا تحديها له :

- أجل . أراهنك . . بعرشى كله .

- أنا لاأبغى عرشا ولا مجدا فى هذا العالم سوى أن أنمو إلى جانبك . . مجرد نبتة ، ويمكن القول زهرة برية فى أحضان سنديانة . . أرزة تعادى الفناء .

- الفناء . . الفناء .

تساءل معاودا تحسس بطنها وذلك النابض فى أحشائها :

- ومن قدر له قبل الإفلات من قبضتيه الفناء الدهر . . ذلك الغول الختور الذى يلتهم الرجال .

عندئذ استدارت عنه قمرية برأسها متجهة إلى حيث مدخل القاعة الشرقية وحيث كان يقف منكمشا الوزير « يثرب » ومن خلفه كوكبة من الأمراء والسفراء والرسل الذين كانوا فى انتظارها على أحر من الجمر .

واصلت تحسس جبهته ، وتحسست بيدها الأخرى تلك الرسالة المطوية بين طيات ملابسها ، كمثل حية :

- الجميع بانتظارك من كل صوب .

أغلق الملك التبع عينيه مشيحا ، لايعرف له جوابا .

عندئذ حاولت قمرية استجماع شجاعتها وماعرف عنها من إقدام لتفضى إليه بمحصلة تلك الأنباء الخطيرة التى حملها الرسل :

لا منقذ لشعبك ورعيتك . . سواك

- أنا . . كيف . . على هذا النحو . . أهٍ . . ليتنى بقادر ياقمرية .

وحين أسلم جفنيه للنعاس . . انسلت قمرية فى نعومة مبتعدة عن الفراش :

- نام .

أرخت من فورها ستائر الشرفات ، وأشارت بيدها دون صوت إلى جوقات الموسيقيين والمنشدين ، الذين يتغنون بمآثر الملك فى تنسيق رتيب أصبح فى أيامه الأخيرة لايخلو من الحزن الذى تحول إلى إيقاعات المراثى والبكائيات ، فأخفتوا من فورهم من غنائهم الجماعى وإنشادهم . . حتى تلاشت أصواتهم تماما .

واندفعت قمرية مغلقة باب قاعة مخدع الملك التبع ، متجهة من فورها الى حيث يقف يثرب وكبار رجالات البلاط والأمراء ، ورهط هائل من رسل البلدان والأقوام التابعة والحكماء وشيوخ القبائل والعشائر ، وقد حط على رؤوسهم الطير جميعهم بانتظار ردها .

استخرجت المكتوب المطوى من بين طيات ملابسها مشيرة له فى أقصى كمدها وحيرتها :

- لم أقدر .

- وما العمل ؟

قاربها يثرب :

لن ينقذ الملك وينقذنا جميعا سوى التحدى .

اختلى بها باتجاه الشرفات الجنوبية للقصر - القلعة مشيرا مهددا :

- من هنا يمكن أن تشهدى بعينيك مانحن فيه . . بيارق الأحباش .

زفرت فى أقصى حنقها وتمزقها :

– ذلك الخسيس . . أرعد .

رفعت ذراعيها عاليا صارخة فى أقصى حالات غيظها :– ذلك المتسلق . . الطحلب .

تمالكت قمرية نفسها وهى تكبت آلامها مشيرة باستقبال الرسل ، وتلقى جديد معلوماتهم ، وكيف أن جيوش ملك الأحباش « سيف أرعد » لاتكتفى بمحاصرة مدينة « أحمرا » بل إن طلائعها وصلت أعالى النيل متوغلة فى ربوع السودان وبلاد النوبة إلى أن شارفت مصر العليا .

وتزاحم الرسل حولها بالتقارير وجديد المعلومات عن توغلهم فى المغرب الكبير ونزولهم « تلمسان » ، بعدما أشاعوا فيما بينهم خبر موت الملك ذى اليزن .

صرخت من أعماقها :

– ياللغدر الدنىء . . الملك التبع معاف وفى أحسن حال .

وفى الغد سيمتطى ظهر – الشهباء – ويغيبهم عن هذه الأرض

كانت تعرف أنها إنما تكذب بادعائها هذا . . فما كان منها إلا أن أنسلت لاتلوى على شىء ، وفى أعقابها الوزير يثرب ، إلى أن وصلت جناحها نازعة عنها ملابسها ، مرتدية عدة حرب ذى اليزن وهيئته بل ولحيته ودروعه متمثلة مشيته ، منسلة من جديد إلى حيث مخدعه ، فانتزعت سيفه المعلق ، خارجة على الجموع المذهلة التى جثت داعية للملك التبع . .

ومن فورها أشارت بدق طبول الحرب « الرجوج » واستعد الجميع للخروج من خلفها ، بعد أن سرى خبر شفاء التبع وحلول المعجزة واستعد الجيش للخروج من – خلفه – لملاقاة عدوان الأحباش وملكهم سيف أرعد الجبار المعتدى .

# 19

## قمرية تأخذ مكان ذى اليزن

ظهرت شجاعة الأميرة « قمرية » فى تلك الحملة الانتقامية الضارية التى قادتها فجأة ودون سابق إعداد أو حتى مجرد التفكير فى عواقبها . وذلك حين شاهدت بعينها مدى الخسة أو العدوان الأسود الذى استحال إليه ملك الأحباش « سيف أرعد » ، حين سنحت فرصته بالانتقام مستغلا ماحط على الملك التبع ذى اليزن من مرض ألزمه فراشه .

فما كان من ذلك « الأرعد » ، إلا المبادرة بالشر والعدوان ، إلى رفع راياته وبيارقه وإشهار سهامه فى محاولة لإطباق الحصار على عاصمة التباعنة - « أحمرا » .

هنا لم يكن أمام قمرية سوى ارتداء عدة حرب ذى اليزن ووضع تاجه ودروعه وشاراته ، وحمل حسامه ، بعدما اتخذت كامل هيئته متنكرة وخروجها بالجيش لرد العدوان - الحبشى - ومايمثله من خطر محدق .

وحالف الحظ قمرية فى مكيدتها الانتقامية تلك ، ذلك أن عيون وبصاصى سيف أرعد ، ماإن وقعت أبصارهم عليها على ذلك النحو ، حتى تراجعوا من فورهم مندحرين ، فارين بجلدهم مشيعين عبر كل مدينة ووطن وكيان ، كيف أن التبع اليمنى :

- لم يمت . . وهو يتقدم فيالق جيشه محاربا وعلى رأسه تاج التباعنة .

وسرعان ماسرى الخبر متواترا من كل مدينة إلى مايتاخمها بأسرع من سريان النار فى الهشيم :

- الملك التبع معاف يعتلى صهوة جواده . الشهباء - ويتقدم جيشه فاتحا محاربا .

وساد الذعر والفزع أول ماساد فيالق وكتائب جيش الأحباش ، فركضت فلولهم تسابق الرياح عائدة باتجاه أثيوبيا .

إلا أن « قمرية » واصلت زحفها موقعة الرعب والموت والدمار بهم ، حتى إذا ماتراجعت جيوش الأحباش عابرة النيل ، واصلت تعقبها لها على طول غاباته وجباله المشرفة مستخدمة فرق - النشابة - التى كان يوليها الملك ذو اليزن رعايته الخاصة ، بل وكثيرا ما أوصاها هى ذاتها بهم .

- النشابة هم درعى الحامى .

فمضوا يمطرون جيش الأحباش الفارين المذعورين من أعلى قمم سفوح الجبال المحيطة دون رحمة ، فلم يفلت منهم سوى القلة التى عادت بالخبر والهزيمة المروعة إلى عاصمة ( سيف أرعد ) « أثيوبيا » معلنة خداع الملك - أرعد - وافتراءه بادعائه موت التبع . . وهاهو الملك التبع يواصل بجيشه الباسل تقدمه إلى هنا :

- التبع اليمنى لم يمت . . ها هو على ظهر الشهباء بعدما قتل وأسر معظم جيش الحبشة .

كانت الأميرة « قمرية » تحارب بضراوة فائقة مواصلة تقدمها مسرعة إلى أقصى حد . ذلك أنها كانت نهبا للعديد من التوجسات العنيفة والمخاوف ، سواء منها مايتصل بصحة الملك ذى اليزن الطريح الفراش ، أو مايتصل بحملها وما فى أحشائها منه ، أو مايتصل باتخاذها لقرار مصيرى مثل قرار الحرب دون استشارته ، ثم مدى ماسيحدثه مثل هذا القرار ، حين يسمع به - ذو اليزن - فجأة ويعلم باختفائها عنه بضعة أيام قد تصل إلى أسابيع ، دون مراعاة لآلام حملها ومايمكن أن يشكله هذا فعلا من أخطار تتصل بوحيده الذى ينتظره ببالغ الصبر ونفاده :

- هيكل . . سيف .

لذا ، ماأن قاربت الانتهاء من مهمتها ، إلى حد إجهادها ، ثم انتصارها واقتحامها بجيشها حدود الحبشة وتوابعها ذاتها ، حتى تملكها الإعياء الشديد :

- لتضع حدا للعدوان المبيت علينا من سيف أرعد الجبان .

إلا أن الوزير « يثرب » آثر الاكتفاء هذه المرة بما تحقق من انتصار ، تخوفا مما هى عليه من حمل ، وقبل أن تودى الحرب وعنفوانها بما فى بطنها ، وتخوفا بالطبع على حياة التبع المريض المتردية :

- ففى هذا الكفاية للأحباش وملكهم .

وكان حقا مانطق به الوزير الحكيم « يثرب » ، ذلك أن ( سيف أرعد ) ماأن وصلته الأخبار بعدم صحة موت التبع ذى اليزن ، وخروجه لإفناء جيشه وضراوة المعارك التى قاربت حدود بلاده ذاتها ، حتى تولاه الجنون ، فمضى يصرخ من أعماقه ، لوزيره - سقرديون - وبقية وزرائه ومستشاريه وحلفائه على طول غرب وجنوب أفريقيا ، غير مصدق مايحدث و يجرى ويقع من هزائم واندحارات .

وكالعادة صب سيف أرعد ، حمم غضبه وسبابه على رأس وزيره - الشرير - سقرديون ومشورته :

- الحقوا . . مات التبع اليمنى . . ياللأكاذيب !

أعاد صراخه وثورته فى وجه سقرديون :

- ها هو التبع اليمنى يدق الأبواب . . أبوابنا ذاتها . مخادعنا . . أثيوبيا ياسقرديون .

واجهه محتدا :

- على هذا النحو يصل خداعك حتى لى أنا . كأنك إنما تود إفناء جيشى وتودى بعرش آبائى وأجدادى ذاتهم المنحدرين من صلب يهوذا .

واصل تحديه على مرأى من الجميع :

- أخرج إليه . . أخرج لمواجهته ياسقرديون العجوز . . أخرج إذن لملاقاة ذى اليزن . . أخرج !

ومن جانبه حاول الوزير العاقل - الحجازى المولد - المدعو « أبو الريف » ، التدخل لتهدئة ثائرة الملك ( سيف أرعد ) قائلا :

- من المفيد فى مثل هذه المواقف العسيرة ضبط النفس ، والأكثر إفادة هو الاستفادة من أخطائنا فالكذب لاقوام له .

وناشد وزير - الميمنة - « أبو الريف » الملك وجميع حلفائه التروى وضبط النفس ، بدلا من الافتراء والكذب والعدوان .

ثم مضى فطمأن الجميع بعودة الجيش العربى إلى العاصمة - أحمرا - ، بحسب ماتلقاه من تقارير رجاله الأخيرة .

ولم يكن الوزير أبو الريف كاذبا فيما ادعاه ودفع به إلى ( سيف أرعد ) فى محاولة لإعادة الاطمئنان إلى الجميع .

ذلك أن قمرية آثرت العودة مسرعة ماأمكنها إلى أحمرا ، بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه سواء بالنسبة إلى ملازمتها لزوجها ذى اليزن المريض ، أو حفاظا على ما فى أحشائها منه .

لذا جدت السير ما أمكنها بصحبة الوزير يثرب وكوكبة من أخلص الحراس مسرعين متلهفين عبر طريق العودة للاطمئنان على صحة التبع وما حدث له فى غيبتهم خلال الأسابيع الأخيرة ، التى استغرقتها هذه الحملة التأديبية ، التى لم يكن هناك من مهرب من القيام بها .

ولكم ودت « قمرية » من أعماق قلبها مواصلة التقدم وملاحقة انتصارها لاقتحام بلاد الأحباش ذاتها وعاصمتها والتخلص من ذلك الطور الشرير - سيف أرعد - الذى لم تكن تحمل له يوما سوى الكره ، ولكم ودت أيضا من قلبها أن تذيقه هو ذاته سمها

الزعاف ، بدلا من الملك ذى اليزن الذى أسرها أسرا لافلات منه منذ لحظة لقائها به .

كانت وهى لا تزال تقطع الطريق عائدة إلى أحمرا نهبا للعديد من الأحاسيس والهواجس العاصفة التى تعتمل دون هوادة فى مخيلتها .

وكانت كلما بالغت أكثر فى الإسراع ، تضاعفت مخاوف الوزير « يثرب » على جنينها، فما من شيء سيضاعف من مرض وآلام التبع ذى اليزن ، سوى سماعه بفقدانها وليدها وهو يعانى على فراشه أقرب الى المحتضر منه إلى المريض .

أما قمرية ، فلم تكن على أقل وعى ودراية بذلك الانتصار الساحق الذى أحدثته على جيش الأحباش ، لتأمين حدود عاصمة التباعنة ،ودرء كل الأخطار عن الملك المسجى الذى صرعه ذلك الداء العضال الذى ألم به وهو لم يتخط بعد مرحلة شبابه ونضوج عطائه :

-ذلك الطحلب المتسلق الشرير . . أرعد .

تساءلت وهى مشرفة على تخوم ( أحمرا) :

- الغريب أن ذا اليزن لم يتحرك حتى لمجرد الانتقام منها عقب اكتشافه لمؤامرة اغتياله ، حين اتخذ منها - سيف أرعد - مجرد أداة ومخلب نمر لتنفيذ أطماعه وأحقاده السوداء .

بصقت معاينه وهى تطلق العنان لحصانها الشهباء :

- لامكان يقف فيه ذلك الأرعد الخسيس . . سوى العتمة والتآمر.

مضت تتوعده :

-لكن سيجيء يومه القريب ، إن لم يكن من ذى اليزن . . فمنى أنا . أجل ياأرعد سيجيء يومك

مضت رغم معاناتها الثقيلة ، تقطع الروابى والسهول والجبال ، عابرة الأنهار ، مقتحمة أعتى الغابات التى لم تطرقها قبل قدم ، لاختصار طريق العودة الى حيث

الملك المريض مطلقة من جانب آخر العنان لأفكارها وأمانيها فى كسر شوكة سيف أرعد المشهرة على الدوام ضد العرب والعجم على السواء .

فلكم تمنت أن تمكنها الأيام منه لتشرب من دمه :

ـ هل سيجىء هذا اليوم ياأرعد ؟

وكانت خطتها تتركز فى قطع الطريق على جيوشه وأذرعه الطويلة التى توصلت اليوم إلى صعيد مصر العدية والسودان والمغرب الكبير والقرن الأفريقى وكل أواسط أفريقية ، فى غيبة عن ذى اليزن بسبب كارثة مرضه الأخيرة التى استغلها أرعد حتى العظم .

ووصل بقمرية الفرح مداه ، حين توقفت لتتجرع رشفة لبن وبضع ثمرات ، فأحست بمولودها يتحرك فى أحشائها :

- سيف . . ولدى !

وتصورت من فورها فرح التبع حين يصغى لها وهى تسرد عليه تفاصيل ماحدث ، حتى إذا ماسألها عن وحيده ، أجابت :

- هاهو قوى معاف مثلك . . ويمكن لك أن تسمعه بأذنيك . . اسمع . . اسمع .

وما أن قاربها يثرب ، حتى حادثته من فورها بهذا الخاطر ، وكيف أن جنينها الذى أكمل شهره السادس اليوم . لايزال حيا معافا فى بطنها ، غمغم الوزير هاتفا فى فرح :

ـ هيكل .

ضحكت من أعماقها :

ـ سيف .

ومإإن أشرفا على مدينة - أحمرا - مع الغروب حتى فتحت المدينة عن آخرها أبوابها النحاسية ، ووصلها هتاف وتكبير الآلآف المؤلفة ، عاليا يصم الآذان تمجيدا لاستقبال « الملك » الفاتح المنتصر وعودته مظفرا .

وما إن جاست خيولها عابرة أبواب النصر المزدانة بالورود والرياحين ، والجماهير على الجانبين تجثوا إلى حيث يخطو « الملك » المنتصر، حتى تحسست « قمرية » لحيتها معتدلة على ظهر الشهباء ، متخذة هيئة ذى اليزن تحت دروعه وخوذته ، تحيط بها أعلامه وبيارقه المسدلة . . بينما العيون المبتهجة المهللة بالنصر والظفر لاتصدق ماتشهده وهى تدعو للملك التبع ذى اليزن ، بطول العمر والنصر أبد الدهر .

واندفعت هى - متنكرة - محيية الجميع من كل جانب وصوب باتجاه القصر الحصين، وقد أدار النصر رأسها .

حتى إذا ماشارفت ساحات القصر ذاته ، تعمدت أن تكمل دورها فى اتخاذها هيئة الملك ذى اليزن ، عابرة الساحات الجانبية والمداخل الخلفية للقصر . مدعية للجميع إرهاقها وحاجتها إلى الراحة ، مستعينة بإشارات اليد بدلا من النطق والكلام ، إلى أن انفلتت مسرعة داخلة من سراديب القصر الخفية ، متجهة من فورها بكامل هيئتها وتنكرها صوب جناح مخدعها ومالإن انفتح باب المخدع ، حتى توقفت فى إعياء، مستندة على أحد الأعمدة المرمرية ،ثم جثت على ركبتيها وهى تخفى مابها ، مرجعة ماتناولته من طعام ، ولحقت بها جواريها فى محاولة لمساعدتها :

- ذو اليزن . . حبى .

نهضت فى تراخٍ طويل ، لاتدرى مابها إلى أن تتهالك نفسها فخطت مسرعة إلى حيث جناح الملكً . وقبل أن تجرؤ على فتح باب المخدع الغربى ، تصفحت الوجوه المحيطة من حولها مستطلعة :

- ماالخبر ؟

وتقدمت قمرية فى صمت ثقيل من الفراش فى محاولة لعدم إيقاظ ذى اليزن من سباته وغفوته .

وما أن امتدت يدها فى حرص كاشفة الغطاء عن وجه الملك التبع ذى اليزن ، ومالت عليه لاثمة متحسسة أنفاسه حتى استدارت باحثة عن الوزير يثرب ،الذى سرعان ماقاربها بدوره مذهولا ممتقع الوجه :

– نائم ؟

وماأن كشفا من جديد الغطاء معا عن وجه الملك المستكين الهادىء الصافى الملامح، حتى صرخت قمرية :

–مات !

– مات . . ذو اليزن !

# 20

## ذو اليزن التبع المنتصر

أصبح الموقف عسيرا مربكا على « قمرية» والوزير « يثرب » داخل مخدع الملك التبع ذى اليزن بعدما وافته المنية ولفظ آخر أنفاسه فى غيبتها ،لرد عداون ملك الأحباش سيف أرعد .

إذ بينما اشتعلت مدينة - أحمرا - حماسا وتكبيرا وهتافا محيطة بقصر الملك الحصين من كل الجوانب مغلقة ساحاته ومنافذه تمجيدا للملك التبع العائد المنتصر فى ذلك الوقت كان الملك - الحقيقى - قد فارق الحياة .

وما أن امتدت يد قمرية وهى متنكرة تحت عدة حربه ودروعه ولحيته ، لتمازحه معيدة الابتسامة الصافية إلى وجهه المسجى السمح ، حاكية له من فورها ماأقدمت عليه خلال فترة غيابها عنه ، وقاربته لاثمة حتى اكتشفت من فورها انقطاع أنفاسه ومفارقته الحياة ، فما كان منها إلا أن شقت ثيابها صارخة :

- مات !

ولم يتمالك الوزير الحكيم يثرب نفسه سوى الارتماء عليها وكتم أنفاسها ، بينما تكبير الجماهير وهتافاتهم تصم كل الآذان مدوية من كل جهة استبشارا بالنصر الذى حققه مليكهم الرحيم المنتصر المعافى.

بل إن الوزير أسرع من فوره مشيرا لأقرب الجوارى بالإسراع بإغلاق كل الشرفات

والمنافذ والأبواب ، خشية تسرب - كارثة - موت التبع ذى اليزن دون أن تغفل عيناه عن قمرية التى أخرجتها فاجعة زوجها وحبيبها عن كل طور ، فمضت ناشبة أظافرها فى كل ماصادفها ، وجهها المجهد . . شعرها دروعها التى هى دروع الملك ذاته ولحيته ، هنا صرخ يثرب فى حذر :

- الناس . . مشاعر الناس .

فالوزير الحكيم هو الأقدر على معرفة مشاعر الجموع التى أسكرها النصر الساحق على ذلك الملك الحبشى - أرعد - المعتدى المتحين لكل ثغرة ضعف تلحق بالعرب .

إلا أن قمرية التى تقمصت وأدت بمهارة دور الملك ، دافعة بأعدائه الطامعين إلى الدمار المحقق ، لم تع من فورها تصرف الوزير يثرب واندفعت كالمخبولة لاتبقى على شىء وهى تحتضن الجثمان المسجى الذى أغرقته بدموعها لاهثة مشيرة إلى بطنها :

- ألم تعدنى بالانتظار إلى أن ترى وليدنا ؟ ها هو يتحرك فى أحشائى . ضع يدك . ها هو سيف . . وحيدك . . اليتيم !

وكان كلما ارتفع صوتها ، كلما حاول الوزير إعادة تعقيلها وتبصيرها مشيرا إلى دوى تكبير الجماهير وجنونها بالنصر .

- المهم أحزان قمرية وثورتها دفعت بها إلى إزاحة الوزير العجوز يثرب ، إلى حد إسقاطه أرضا ، فجلس مكانه منتحبا باكيا .

- هكذا .

قاربته قمرية ملتاعة ، وهى تسقط إلى جانبه نادبة ، فما كان منه سوى احتضانها فى أبوة مهدئا مستوضحا :

- ليس هذا أوانه . أنا أكثر منك معرفة بهم . وهذا تصرفك أنت بملابسك ولحية التبع هذه . . هذه . تحسست قمرية وجهها ، كمن أفاقت فجأة من غفوتها ، وما أن حل الصمت ، حتى صمت آذانها الهتافات المدوية العاتية التى ترددت أصداؤها فى أرجاء المدينة الواسعة .

- أتسمعين ياابنتى ؟!

- أسمع !

نطقت بتخاذل وهى تسند نفسها محاولة الوقوف ، واضعة وجهها بكامله بين إحيتها :

- أهكذا تمضى بنا الحياة ، حتى أحزانى على أن أقتلها بداخلى .

أردف يثرب :

- حفاظا على الملك . . حبيبك . . ذكراه . . الآن . . الآن فقط ، مجرد ساعات لاغير . . ساعات معدودة اسمعينى . . لاغير .

هنا أسلمت قمرية مقاليدها للوزير يثرب وجلست على فراش الملك آخذة رأسه مهدهدة بين ساعديها ، تندب مابها بلا صوت .

ثم هبت فجأة فخلعت عنها دروعها وتاج الملك ولحيته متخففة ، وتمددت إلى جواره ، تنعيه فى إعياء واضح .

بينما اتجه الوزير يثرب منسلا ، إلى الشرفة البحرية ، لمواجهة الجموع والأقوام المطالبة برؤية الملك ، فناشدهم الهدوء نظرا لمرض الملك التبع ، الذى خلد من فوره للنوم ، نظرا إلى مرضه .

- كما تعلمون جميعكم . فمن أحب ذا اليزن دعى له بالشفاء . . ولزم الهدوء .

ومرت بضعة أيام ثقيلة على قمرية ، ارتدت فيها ثياب الحداد ، ولزمت جثمان التبع لاتفارقه نادبة فى همس ، إلى أن تسرب خبر موت التبع ذى اليزن الى أقرب مقربيه فى تكتم وفق فى الإبقاء عليه الوزير ، يثرب ، حتى لا يتسرب الخبر إلى الأحباش وملكهم الطامع .

إلى أن حان موعد دفن الجثمان سرا بمقابر التباعنة ، حسب وصية ذى اليزن ذاته الذى ركز فيها على أن تعتلى قمرية العرش مكانه فى حكم حمير وتوابعها ، لحين تسلم « ماقى بطنها مقاليد الحكم » .

ويبدو أن أخبار ماحدث لم تغب هذه المرة عن أذن الوزير المعادى للعرب سقرديون ، فحانت فرصة استرداد مكانته - المهتزة - داخل بلاط ( سيف أرعد ) الذى وجدها بدوره فرصة سانحة ، للانتقام والتخلص من « قمرية الأذية » ومافى أحشائها ، خاصة وقد أشار عليه كهنته ومقربوه بضرورة قتل التبع المنتظر - سيف - منذ المهد وقبل أن يستفحل خطره ضد بلاد الأحباش وتوابعها .

وذلك حين أنشده الشعراء والمتنبئون :

ومولود يأتيك يملك أرضهم

ويبقى على جميع البرية حاكما

فى عصره تخرب مدينة أحمرا

وأسوارها تدمى جميعا وتهدما

وظل الملك أرعد فترة طويلة مرتعدا لا يعرف كيف يتصرف ، فربما كان ما يسمعه مجرد خدعة تالية من جانب تلك - الأذية - قمرية ، للقضاء على ماتبقى من جيشه وملكه ، كما حدث فى السابق .

ومن هنا استقر رأى سيف أرعد ، على أهمية التروى قبل اتخاذ قرار متعجل بالحرب ودون أن تغفل عيناه على رصد مايجرى ويحتدم داخل عاصمة التبع - أحمرا - عبر عيونه وبصاصيه المنبثين فى كل مكان .

حتى إذا ماأجمعت الأخبار والمعلومات من كل صوب على حقيقة موت التبع ذى اليزن ودفنه ، وانفراد قمرية بوراثة ملكه المترامى الأطراف لحين وضعها لابنه ووريثه ، غمغم لنفسه :

- هى بعينها النبوءة .

إلا أنه عاد من جديد يندب حظه العاثر ، بتبديده لمعظم جيشه وقواته ، خلال تلك المهمة التى اضطلعت بها ، بنجاح فاق كل توقع ، قمرية عن طريق خدعتها الدامية حين تنكرت متخذة هيئته ودروعه وسيفه وحتى لحيته الكهرمانية اللون

وانقضت كمثل نمر على قواته مطاردة ، إلى أن أفنتهم عن آخرهم ، وأشرفت وهى على ظهر الشهباء التى لاتخطئها عين ، وهى فرس ذى اليزن على أسوار أثيوبيا ، فخلعت أبوابها بحرابها إلى حد دفعه هو - سيف أرعد - إلى الهرب بقواته الخاصة ، بعدما رسخت فى أذهان الجميع أن :

- التبع اليمنى . . لم يمت . . وها هو يتحدى الجميع .

ومن هنا تزايدت مكانة وزيره المقرب « سقرديون » بعدما علم بتفاصيل الخدعة ، إلى حد دفع بالملك إلى الاعتذار له علنا ، بعدما رد إليه الاعتبار وأصبح لا يسمع سواه :

- والآن ماذا ترى ياسقرديون الحكيم ؟

- أرى أن فرصتنا الذهبية قد حان أوان قطافها اليوم قبل غد . تساءل الملك :

- وجيشنا على هذا الوضع من الضعف والتشتت .

- لمَ لانسترجع كتائبنا من أعالى النيل والنوبة والمغرب الكبير ولو إلى حين ؟

هب الملك أرعد عن عرشه خائفا مفكرا :

- نتخلى إذن عن حكم هذه البقع ، ونستسلم لثوارتها المؤيدة للعرب .

واجه الوزير سقرديون الملك فى ثبات :

- هدفنا الآن هو قتل أو اغتيال أو اختطاف قمرية وإجهاض التبع مهما كلف الأمر.

اندفع سقرديون يواصل الطواف حول الملك وهو يصب الكلام فى أذنيه ، بعدما استسلم له كفريسة مستكينة هذه المرة :

- قمرية الآن حامل فى شهورها الأخيرة ، ومن هنا فهى أضعف مخلوق يمكن تصوره ، هى أضعف من فراشة .

أردف سقرديون ممازحا :

- تلك الحية .

مضى سقرديون يشرح للملك وكأنه يشرح له معادلة معقدة أشبه بالمعضلة :

- هى حية رقطاء ، استحالت تحت حملها ومافى أحشائها . . إلى فراشة ، وعلينا تصيدها . . هكذا .

-كيف ؟

ضحك سقرديون طويلا ، حتى استلقى على قفاه ، من مشهد الملك المحبط المستسلم له :

- أقول كيف ؟ دع الأمر لى .

حتى إذا ماأحبطت قمرية ثلاث مؤامرات متتالية من جانب سيف أرعد ، لاختطافها ، وعلى أسوا الأحوال إجهاضها ، فى أسبوع واحد فقط ، غمغمت فى سخط وغل دفين من خسة ( سيف أرعد ) ووزيره سقرديون قائلة لنفسها :

- أنا لست فراشة ضوء هشة كما يدعون .

ومن هنا بدأت وهى تعبر شهر حملها الثامن تحسب لكل خطوة وفعل وقرار ألف حساب ، ليس خوفا على حياتها ، بل ولا على مافى أحشائها . . بل على وصية الملك التبع الراحل الذى أحبته ولم تمكنها الأيام والليالى ، من أن تسعد إلى جواره .

وبحسب وصية ذى اليزن ، تملكت قمرية كل السلطة ، بل وكثيرا ما كانت توقع مكاتباتها ومراسلاتها باسمه وخاتم ملكه ، لحكام وشيوخ قبائل وأمراء وقادة جند البلدان التابعة لحكم حمير أو الخليفة ، فى دلتا مصر ، والسودان وبلاد النوبة وبعلبك وفلسطين وصور ، ومجمل كيانات جزيرة العرب شمالا وجنوبا ، والكثير من البلدان الأسيوية حتى الشرق الأقصى وتخوم الصين .

وكانت فى كل خطواتها تجرى استشاراتها مع وزراء الملك - الراحل - وأخصهم وأقربهم إلى قلبها الوزير الحكيم يثرب .

وأحاطت قمرية قرراتها الكبرى والمصيرية بالكثير من السرية والحرص ، حتى ولو

تطلب الأمر عقد اجتماعاتها داخل مخدع التبع الراحل ، وهى ممددة على فراشها .

ومما دفع بها إلى اللجوء إلى ذلك الأسلوب من السرية والتكتم ، حرصها الشديد على إتمام شهور حملها ، خاصة وأن بعض العناصر الحاقدة بدأت تظهر على المسرح والتى رفضت أن تحكم حمير امرأة .

وقد حاولت الرد على ادعاءاتهم لاجئة إلى محصلتها التاريخية التى اشتهرت عنها ، معيدة إلى الأذهان حكم شهيرات النساء لحمير ، من بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل وحكمها المترامى لحمير وتوابعها . وانتهاء بالملكة « تدمر » ابنة التبع حسان بن أسعد ، الذى اغتاله ليلة عرسه الدامى - بالحيلة - كليب بن ربيعة ، وخطيبته الجليلة بنت مرة بقولها :

- وها هى حرب البسوس الانتقامية التى نشبت بسبب ذلك الاغتيال ، تدور رحاها على مشارف الشام وفلسطين والبقاع .

بل هى كثيرا ماأشهرت وصية التبع ذى اليزن ذاته ، التى يوصى فيها بأن تحكم «امراتى الأميرة قمرية لحين أن تسلم الحكم مافى أحشائها » .

وكم من مرة أيضا أعادت إلى الأذهان حكم الملكة « سميراميس » لبابل وآشور معا ، أى فى وادى الرافدين . . وآسيا الصغرى بكاملها . وفى بعض الأحيان ، تصل بها ثورتها إلى حد المطالبة بإحلالها من وصية التبع الراحل ، لتصبح فى حل من كل هذا .

كانت تعرف - من طرف خفى - أن تلك الفتن والمكائد والمنغصات التى أصبحت تثار ضدها حتى داخل بلاطها الحاكم نفسه ، مصدرها أثيوبيا وملكها ( سيف أرعد ) ووزيره ( سقرديون ) ، لإجهاضها والإيقاع بها عن طريق استخدام مختلف الطرق والمصائد .

وكل ذلك يجرى لها وهى حامل فى أيام معاناتها الأخيرة ، دون رحمة ودون تفهم لإبعاد مايحاك ضد عاصمة التباعنة الجديدة - أحمرا - من مؤامرات . يستعر أوارها ليل نهار دون هوادة ، أو حتى خجل إزاء مايقع وينكشف أمره تباعا من خداع لقتلها

واغتيالها ، او إجهاض مافى داخل أحشائها بينما هى تحرص عليه حرصها على عينيها ذاتها لكى تسلم الأمانة كاملة غير منقوصة .

وكان الوزير يثرب أحرص الجميع على قمرية وسلامة حملها ، لذا أوصد عليها بنفسه دواوين القصر ، الواحد بعد الآخر ، عن طريق بث عيونه وأخلص جنده وأشجع فرسان حمير وقحطان فى الأماكن الحساسة لرصدها .

إلى أن جاء اليوم الموعود ، فتزايدت آلام قمرية بسبب محاولة المولود الخروج ورؤية النور ، ووضع حد لمعاناتها .

حتى إذا ماحل مساء اليوم التالى ، ومع انبلاج الفجر ، تجدد الطلق الشديد على قمرية ، لدرجة كادت أن تودى بحياتها ذاتها ، وهى محاطة بالوصيفات و« الدايات » من كل جانب فى حين ملأ صراخها جنبات القصر .

إلى أن علا صراخ المولود الذى غطى على صراخها فعلت الزغاريد طاغية من كل جانب إلا أن قمرية أشارت إلى حاجتها الشديدة إلى النوم .

واستسلمت من فورها إلى نوم عميق بعدما وضعت أمانتها .

وحين استيقظت فى ضحى اليوم التالى ، استدارت فى لهفة لترى وليدها للمرة الأولى، ولكنها لم تجده .

صرخت :

– ابنى وحيدى . . سيف !

# 21

## الحرب الضروس فى القرن الأفريقى

اندلعت نيران الحرب الضارية المستعرة بين ( سيف أرعد ) وأرملة الملك التبع ذى اليزن « قمرية » .

وهى الحرب التى امتدت رحاها على طول أواسط أفريقية وقرنها الموصل إلى اليمن والجنوب العربى .

كما أنها حرب كانت قد تأجلت طويلا ، نظرا إلى الظروف والملابسات الفاجعة التى مرجعها المرض المفاجىء للتبع ذى اليزن ، عشية زواجه من قمرية التى كانت قد انشغلت بدورها بحملها المتعثر بابنه سيف - الذى دفعت به إلى الوجود يتيما بعد حدث موت ذى اليزن الفاجع فى غيبتها وهى تدفع فلول الأحباش الذين شارفت كتائبهم المتربصة المخربة أسوار « أحمرا » ذاتها .

وهكذا نجحت قمرية فى إجهاض عدوان سيف أرعد المبيت بعد إشاعته - الكاذبة - لموت ذى اليزن ، متصورا هو ووزيره المتآمر المعادى للعرب « سقرديون » أن الطريق قد أصبح أمامهما مفتوحا لتقويض عاصمة التباعنة بوسط القارة السوداء التى نبتت كمثل شوكة ترمى إلى تعريب أفريقيا مبكرا .

إلا أن سيف أرعد ، لم تغفل عيناه عن مرماه بتخريب - أحمرا - ، والانتقام الأسود المبيت من جاريته ـ أو مملوكته ـ قمرية التى خانته قبل أن تخون الملك ذا اليزن ، حينما جاءته مغتالة ، فاستحالت إلى محبة أنهت مهمتها بالاقتران به :

ترنم أرعد فى حقد :

- تلك الذئبة . . صحيح لأن أباك « ديب » .

حتى إذا مااستوثق سيف أرعد من مواراة التبع اليمنى - كما كان يدعوه - الثرى ، بذل المستحيل باتجاه إعادة تكوين نواة جيشه ، مشجعا وداعيا قومه إلى الإكثار من النسل والإنجاب ، ومستقدما بعض فلول كتائبه من البلاد التى كان يحدوه حلم أسلافه « أسود يهوذا » بتملكها بدلا من أن تسقط فى أيدى العرب - الساميين - بدءا من مصر العليا ، والسودان وبلاد النوبة ، وانتهاء بالمغرب الكبير ، وبخاصة تلمسان التى كانت - شبه - خاضعة لسيطرته وتمدد نفوذه السرطانى .

فى تلك الأثناء ، لم تخمد نيران مؤامرته المتكررة هو وزيره الشرير سقرديون ، لاختطاف أو قتل أو اغتيال سيف بن ذى يزن الطفل والرضيع ثم الشبل .

إلى أن تراءى لقومه ، أن الحكمة تقتضى رعايته وتربيته فى الخفاء بعيدا عن العيون حتى أمه ذاتها ، متنقلا من موطن وكيان ، وقبيلة ومدينة إلى أخرى ، بمأمن عن أذرع سيف أرعد السرطانية الطويلة المتوغلة فى تلك القارة السوداء الغارقة فى سباتها . . أفريقيا .

وهى الأيدى التى تمددت كأخطبوط ، وكان على قمرية مواجهتها - إن لم يكن اليوم فغدا - لإعادة استئصالها ، وإلا لضاع كل شىء من ميراث التباعنة ، سواء فى أفريقيا ، أو فى ربوع جزيزة العرب جنوبا وشمالا على السواء .

ومن هنا أهابت بجميع الأقوام التابعة ، ضرورة الصحوة وجمع الشمل ونبذ الأحقاد، مسافرة متنقلة محرضة بنفسها :

فزارت سبأ وحضر موت وصنعاء وعدن وعمان والبحرين ويثرب وإخميم - ومصر - وقرطاج - وتونس - وبعلبك - ولبنان - محذرة من سيف أرعد وأطماعه ، جامعة فلول جيش التباعنة والمبادرة بالحرب دون غفلة .

حتى إذا مانشبت الحرب ، أبلت قمرية البلاء الحسن إلى حد الاستبسال الذى

أخرس كل الألسنة الطامعة فى النيل منها كامرأة أنثى ، وهى الأقرب إلى أن تكون «أعجمية » ، منها إلى أن تكون عربية رغم اقترانها بالتبع الراحل وخلفها منه .

بالإضافة طبعا إلى التصورات الغيبية التى ربطت بين دخولها على ملكهم الحكيم الحبيب ذى اليزن ، وبين – قضاء – التعجيل بمنيته ، تحت ثقل مرضه العضال . ومن هنا كان ولابد من مواجهه خطر الأحباش المعادين للعرب جنسا ولغة وحضارة – باعتبارهم ساميين طامعين فى جيرانهم ومتاخميهم الحاميين :

– « ذوى البشرة السوداء . أبناء اللعنة » !

ومن هنا حقق سيف أرعد نجاحاته فى جمع شمل أقوامه الأفارقة ، مثيرا ومذريا مشاكل وقضايا ، عنصرية وعرقية ، تتصل باللون واللغة وركام مخلفات العصور – الأسطورية والخرافية – القديمة المتأججة تحت الجلد منذ الأزل . وساعد ملك الأحباش أرعد ، فى هذا وزيره – العنصرى – الحاقد سقرديون ، نظرا إلى ثقافته الهلينية اليونانية الدخيلة على العرب والأفارقة معا .

كما أن هذا المدخل المستنفر للدعوات ( العنصرية واللونية ) قد ساعد بالفعل سيف أرعد فى تدعيم حشوده ضد العرب والتعريب . وأضاف إلى هذا ادعاءاته لأقوامه وحلفائه أن هدف ذى اليزن واهتمامه بمصادر الماء مصدر الزرع والاخضرار وكل حياة ، من سدود ومجارى الماء و « كيميا » التربة وكيفية تخزين وتصريف المياه . مرجعها رغبته فى السيطرة على شريان أفريقيا بأسرها وهو نهر النيل :

ومن هنا كان تستره – أى التبع الراحل ذى اليزن – وراء بحثه وكتاباته – الخفية السرية عن :

– كتاب النيل .

ودعم سيف أرعد دعوته العدوانية هذه ، مرسيا قوائمها ، مستثيرا حمية الأقوام وقبائل أفريقيا السوداء وتجميعها تحت راياته فى أثيوبيا ، مواصلا حملاته على عاصمة التباعنة ذاتها .

واستخدم أرعد فى هذا كل وسائل الإسراع المعجل لتقويضها ، بالحرب وقطع

شرايين أنهارها وتخريب سدودها و إضرام النار فى منشآتها وحصونها التى كان قد عانى ذو اليزن فى إيجادها وتأمينها حتى آخر لحظات عمره القصير . ومن هنا أيضا جاءت معاناة الملكة قمرية فى الصمود والدفاع عن حصون العرب التباعنة فى وجه ملك الأحباش المدجج بكل وسائل القوة والخداع والتآمر باللجوء إلى وسائل الحرب الخاطفة واختراق كل ثغرة تتيح للأحباش إحداث الخدوش الدامية - بأحمرا - والفرار دون مواجهة . مما دفع بقمرية إلى وصف تلك الحرب المخادعة بأنها :

- شبحية :

ورغم ذلك نجحت قمرية فى تغيير أساليب حربها بدورها ، وردع أعدائها بقدرة فائقة لم تكن تخلو من خداع - أنثوى -ماهر ، كثيرا مادفع بسيف أرعد إلى الغليان ، إلى حد الهذيان وملازمة الفراش واستدعاء حكمائه ومطببيه دون انقطاع ، صارخا فى وجوه الجميع ،حتى وزيره سقرديون :

- أنا لست مريضاً . . أنا فقط مسقوم من حية أحمرا . . الرقطاء ، التى ربيتها ورعيتها هنا بنفسى فى أثيوبيا . . فاستدارت اليوم مغيرة جلدها ، لتلدغنى أنا فى المقتل :

يالسمومها المستشرية

كانت قمرية تعرف كيف تلدغه فى المقتل ، وأينما يوجع ، كلما عَنَّ لَهُ الهجوم الغادر - واقعة بواقعة .

وكثيرا ما كان - ابنها - سيف اليزن ، يضطلع هو بنفسه بإطباق الفك الثانى للكماشة القاتلة على سيف أرعد ، من داخل بلاد الحبشة ذاتها ، وكأنه إنما يستكمل لأمه قمرية - دون أن يعرفها - إحكام و إطباق خططها دون علم منه أو منها ومن دون أية اتصالات جارية بينهما سوى أن كلا منهما ، إنما يسدد سهامه وخططه فى جسد - ومقتل - عدو واحد .

فكان كلما أقدم الملك سيف أرعد على استخدام سلاح قطع مياه النيل عن أحمرا

وتوابعها ، كلما أجهض - سيف اليزن - من الداخل محاولاته ، سواء بإعادة تلك المياه إلى مجاريها ، أو بإغراق بعض مناطق الحبشة ذاتها .

وهو ما ضاعف من جنون أرعد وتوجسسه أكثر فأكثر ، عقب كل واقعة تحدث :

- ياللخيانة المستشرية . يا للدناءة !

كما أن كليهما - أى سيف وأمه قمرية كانا على دراية ومعرفة أكثر بالنيل ومنابعه ومناطق فيضه وشحه وانقطاعاته ، نتيجة لاطلاعهما معا على مشاغل وأبحاث الملك التبع الراحل ذى اليزن ، التى استغرقته السنين الطوال منكبا بالأبحاث والقراءات والأسفار الطويلة والمخاطر الهائلة للوقوف على أدق أسرار ذلك الشريان العظيم :

- النيل . . بدءا من منابعه فى الحبشة وأواسط أفريقيا وحتى منتهاه ومصبه على ساحل « فاروس » ومناراتها التى أصبحت الاسكندرية فيما بعد .

كانت قمرية تحفظ للملك الراحل ذى اليزن وصاياه بالحرص على مدوناته وكتاباته التى سبق أن أفنى فيها عمره وخيرة سنوات شبابه .

وذلك منذ أن تربى ذو اليزن - بدوره يتيما فى ربوع سبأ ومأرب وسدودهما التى كانت أعجوبة العالم القديم ، وحققت لليمن حضارتها التى أوصلتها إلى ربوع آسيا ومابين الرافدين وحتى مجاهل الشرق البعيد أو الأقصى .

وكان يحلو لقمرية . خاصة عقب الموت المعجل الذى أودى بحياة ذى اليزن ، استخراج كتاباته ورسوماته التخطيطية الملونة على خرائط من جلود الأيائل البرية ، والمنقوشة على العاج ورقائق الذهب ، لتعاود فك طلاسمها وملغزاتها قارئة فى استغراق وتلهف .

كما كان يحلو لها أن تنقل معارفها هذه موصلة بين الأب وابنه الوحيد - سيف - عندما كان لا يزال فى كنفها قبل منفاه .

بل وكثيرا ما اقتادت سيف - الطفل - الى حيث مخازن وكنوز وخزائن الملك التبع التى كانت تخفيها عن العيون فى أعمق أعماق قلاعه السرية ، حيث أودع ومنذ أن داهمه المرض :

- كتاب النيل :

فتروح قمرية تلاعب ابنها - سيف - بقلائده وسواراته الذهبية وأحجار والده القيمة التى جمعها أسلافه وأضاف إليها هو الكثير ، خاصة حجره القاتم الزرقة الذى اشتهر باسمه فى التاريخ « لابس لازلى » وهو حجر ذى اليزن الذى قد يفوق الياقوت والزمرد قيمة .

- إلى أن تجذب قمرية اهتمام ابنها سيف - وقبل أن تدفع به إلى المنفى - إلى كتابات الملك وخرائطه ومدوناته عن الماء والتربة . . ونهر النيل .

وكان سيف الطفل بدوره يبدو سعيدا فرحا متوقد الذكاء منفتحا على المعرفة والاستزادة ، بل وكثيرا ما طالب هو أمه الانسلال معا ، وبعد أن ينام كل من فى القصر والمدينة وحتى أقرب المقربين إليهما ، إلى حيث يحفظ كتاب النيل .

فكانت قمرية تحرص بالذات على مخطوطات ذى اليزن ، حول النيل ومكوناته وأسراره حرصها على حدقتى عينيها هى ، فلم تطلع أحدا على خزائنها حتى وزيرها الأول « يثرب » حفاظا على وصية الملك بإيصالها إلى ما فى بطنها حسب أمنيته :

- هيكل . . سيف . . ولدى .

حتى إذا ماشب الغلام - سيف - وأصبح قادرا على القراءة ، بدأت قراءاتها معه لمدونات والده الخطية ، وهى تصب الكلام فى أذنيه صبا ليحفظه ميسرا عن ظهر قلب .

كانت فى كل حالاتها تتحسب لذلك اليوم المرتقب الذى سينتزع الطفل فيها من بين أحضان صدرها ، ليربى فى الخفاء بعيدا عن بطش سيف أرعد وأذرعه الطولى على طول غابات أفريقيا ومنافيها .

وكان كثيرا مايستبد بها الشوق والحنين إلى رؤية وليدها التى حرمت منه منذ طفولته وصباه ، كأى أم بسيطة :

- سيف . . وحيدى .

وكان يشتد بها ذلك الحنين الطاغى ، خاصة فى أيام الشدة والضيق بسبب عدوان

ملك الأحباش ، وذلك التحدى الكبير الذى فرضه عليها فرضا ، بسبب الانتقام – الشخصى – منها :

– حية أحمرا الرقطاء :

وفى مثل تلك اللحظات العصيبة ، لم تكن قمرية تجد مخرجها سوى بإعادة السؤال – لوزيرها – يثرب – عن ولدها ومصيره وأخباره المنقطعة عنها منذ سنين :

– سيف . . أمازال حيا يرزق .

– هنا يقاربها يثرب بهدوئه وماعرف عنه من حكمة وبعد نظر قائلا :

– اهدئى أيتها الملكة . . اهدئى فالأمير سيف يحيا فى أحسن حال .

– أين ؟

هنا يستبد الصمت بالوزير الحكيم فلا يقدر على الإفصاح حتى لها هى . . أمه بمكانه ومخبئه :

– أين ؟ !



22

# حروب النيل

كان ملك الأجباش سيف أرعد ، قد وصل به التوجس مما أصبح يحدثُ له فى معاركه المستعرة مع قمرية إلى حد الجنون بعينه ، فما يكاد يشتد ساعده وساعد أبنائه الكثيرين من زيجاته – السياسية – المتعددة داخل مختلف أقطار القارة السوداء ، حتى يصبح على باب قوسين أو أدنى من وضع يده على أصل الداء ، بتقويض – أحمرا – وإعادة مليكتها أسيرته .

هنا تداهمه الأحداث الخطرة غير المتوقعة ، حتى من داخل حدود بلاده ذاتها الحبشة وتخومها ، التى لا يعرف لها مصدرا .

والغريب أنها أحداث قد تصل بخطورتها إلى حد إغراق عاصمته ذاتها « أثيوبيا » وتكشف لكل ذى عينين وبصيرة عن مدى تفوق أعدائه من داخل الحبشة ذاتها ، وكيفية قدرتهم المتعاظمة على الإلمام والمعرفة بأسرار النيل ودقائق قنواته وشرايينه .

هنا لايملك سوى الإسراع بالتراجع المشبع بالهلع والهوس ، مما يحصل دون أدنى توقع مما يحدث من خلف ظهره ، فيتزايد تساؤله وصراخه مما يسمع ويتسبب فى إشاعة الرعب بين رجاله :

– هكذا . . إن للحرباء أكثر من جلد ولون ووجه وكان يقصد بالحرباء – طبعا – الملكة قمرية وابنها – الغامض –سيف .

وبالطبع لم يخطىء سيف أرعد فى ذلك كثيرا ، ذلك أنه كان لسيف بن ذى يزن أكثر من وجه وجلد ولون . إذ كان يملك قدرات متعددة ، منها قدرته على تغيير مواقعه داخل حدود الحبشة ذاتها وماجاورها من بلدان وأقوام بأسرع من هبوب رياح الخماسين الشيطانية .

كما انه كان متملكا لقدرات إخفاء نفسه وتغيير لونه ، والتخفى تحت مختلف الأشكال والهيئات والسحن والوجوه ، مضافا إلى هذا قدرته على النطق باللهجات المختلفة ، بل وتغيير إيقاعه بكامله متحركا مواصلا طوافه داخل مختلف الأقوام والقبائل الأفريقية ، مبشرا بالأمن والعدل ، أينما حل ، هو وأتباعه الكثيرون الخارجون على سلطان سيف أرعد وبطشه وظلمه .

فزار مصر العليا والسودان مرارا ، وزار الشمال الأفريقى ، وزار موطنه ذاته فى اليمن وجزيرة العرب ، مواصلا تجميعه لقواته ومؤنه وقلاعه ومصادر قوته التى تمكنه من إحباط كل محاولات ملك الأحباش المتوعد بتقويض عاصمة التباعنة العرب داخل أفريقية .

ومن هنا لم تسه عينه الساهرة لحظة واحدة عن - أحمرا - وما أصبحت تعانيه ملكتها من جهد مضن خارق للصمود فى وجه سيف أرعد ، وأطماعه الداعية إلى تقويض وإحراق وإغراق تلك العاصمة العربية ، مهما كلف الثمن .

حتى إذا ما وضع ملك الأحباش خططه وزحفه بمساعدة وزيره سقرديون للوصول إلى أسوار أحمرا وتطويقها التف هو - وجيشه - من جانبه بتطويق عاصمة الأحباش أثيوبيا ، لتصبح مجرد فريسة تعانى آخر أنفاسها عند قدميه .

هنا يمضى الملك أرعد يمزق جلد وجهه ألما مما يحدث ويسمع وينشر الفزع بين قادته وأبنائه وجنوده ، ولا يملك سوى التقهقر المزرى عائدا ، لإنقاذ مايمكن إنقاذه من غرق وحرائق ، متوعدا بالإمساك بأعدائه من الداخل دون طائل :

- التبع الجديد وأعوانه . . ولا أحد غيرهم .

وكان أقرب أولئك الأعوان بالطبع « ملك مدينة أفراح » الذى تربى فيها - سيف - وأمضى طفولته ومطلع صباه .

وكان وزير الملك المقرب « سقرديون » يضرم فى كل مناسبة . . وعقب كل واقعة نيران حقد أرعد أكثر فأكثر على ملك أفراح وابنته العاشقة للتبع « شامة » إلى حد رفضها الزواج بيانا جهارا من ابن الملك سيف أرعد الأكبر ، الذى يحبها بدوره إلى حد الجنون .

وهنا توافق قرار الملك سيف أرعد مع وزيره سقرديون ، فى أهمية التأنى فى تخريب عاصمة التباعنة - أحمرا - وأسر ملكتها قمرية ، إلى حين الانتهاء من تطهير بلاد الحبشة ذاتها من - الجيوب - المقوضة والمتآمرة ، والتى تحسن الطعن فى الظهور إلى حد القتل .

- خونة .

وأولهم هنا ملك أفراح وابنته التى قد تقودهما إلى موطن « التبع الخفى » :

- سيف .

هنا سأل الملك ممرورا وزيره سقرديون وهو ينهض ليواجه أمواج النيل المتلاطمة أمامه :

- ومالعمل . . أنعاود من جديد قطع الماء عن أفراح . ؟

أجابه سقرديون فى حزم :

- ليعيده من جديد التبع ويتزايد حب الناس فى تلك البلاد لمنقذهم من العطش والجفاف . . وبالتالى ستتزايد شعبيته أكثر فأكثر .

واجهه الملك منفعلا :

- إذن . . ماذا ترى ياسقرديون ؟

- أرى اقتطاع شامة ذاتها .

- كيف ؟

- اختطافها لمعرفة أسراره ومكمنه بكل الوسائل .

وكانت شامة ابنة ملك أفراح قد قللت فى الأيام الأخيرة من اتصالاتها بسيف بن ذى يزن ، كما اعتادت فى السابق ، وذلك استجابة لطلب ومخاوف أبيها الذى تضاعفت عليه مؤامرات سقرديون وملك الأحباش ، خاصة عقب رفضها الزواج من ابن ( سيف أرعد ) ووريثه .

ووصل بها الغضب إلى حد إعلانها الانضمام إلى سيف ورجاله عيانا جهارا . إذ لم يكف والدها عن مطالبتها بالرضوخ والزواج الأقرب إلى الأسر من ابن ملك الأحباش . مما قد يدفع بها أيضا إلى حرق نفسها :

– فسياط النيران ستكون أكثر رحمة على بدنى وروحى من ذلك الزوج المدلل . . الفاجر .

وإزاء هذا التهديد الذى يعرفه الأب عن ابنته – شامة – كما يعرف قدرتها على تنفيذه، لم يملك سوى التراجع ، وإبلاغ سقرديون برفضها .

ولما كانت شامة مدركة لأبعاد ومخاطر رفضها لمثل هذا الزواج ، ومدى ماسيجلبه تعنتها هذا من أحداث انتقامية بشعة ستحط بكاملها على كاهل والدها المثقل . بل المدينة جميعها عن بكرة أبيها ، فقد حطت عليها الأحزان الثقيلة السوداء ، وهى التى تنتظر دون طائل أو حتى بصيص أمل الزواج يوما بمن يهفو إليه قلبها ، منذ أن تفتحت عيناها عليه :

– سيف اليزن

إلا أن عين سيف بن ذى يزن ، لم تغفل يوما عن إحاطة شامة بكل حماية ورعاية .

فلم تنقطع عنها رسله ورسائله إليها ، يخبرها بمكامنه ومخابئه المتغيرة الجديدة أولا بأول ، وبحنينه الجارف إليها :

« فمن أجل عينيك ياشامة ، أحارب الشر » .

مجددا على الدوام عهده لها بالزواج منها قائلا :

– « عقب خلاصنا من أرعد وعدوانه معا » .

وكانت شامة فى وحدتها الجديدة التى فرضتها على نفسها ، تحلم طويلا باليوم الذى يحقق فيه حبيبها - سيف - انتصاره على ذلك الكابوس الشرير الظالم سيف أرعد ، لكى يصبح لحبهما مكان فى هذا العالم الواسع :

« فكيف لأزهار الحب ووروده أن تنبت وتينع فى مستنقع سيف أرعد وإذلاله وظلمه»

تساءلت ممددة على فراشها تعانى آلامها وحسرتها مما يحدث ويجرى :

- حقا . . كيف لأى نبت أن يزهر مع ناشر الجوع والعطش ذا ك . إلا أن « شامة » سرعان ماكانت تعاود تفاؤلها واستبشارها ، كلما وصلتها أخبار الانتصارات المتواترة التى أصبح يحرزها سيف بن ذى يزن ضد سيف أرعد ووزيره العجوز المتآمر سقرديون .

وكانت تشارك جماهير مدينتها السرية من أرعد ورعونته وجنونه الذى يصل به إلى حد ضرب وزيره « بالنعال » ، كلما تفوق عليه سيف ورجاله من داخل حدود الحبشة ذاتها ، وهو ما أحاله إلى معجزة ومنارة أمل أصبح ينشدها الجميع فى كل مكان وموطن .

فكانت شامة تراسله ناقلة إليه مدى حب واستبشار الناس - بسيف وأتباعه - رافعة من معنوياته مشددة من ساعده الضارب ، متشوقة لرؤياه .

هنا كان يبعث إليها سيف ، بكتيبة من رجاله ، تنقلها إليه إلى أقرب مخابئه من مدينة أفراح ، ليلتقى بها مسرعا ، فيمضيان معا، لحظات خاطفة تعود هى بعدها منشدة لنفسها :

« يامظنى الشوق انا قلبى صبح عن الدم آدى سنه حول ، وانا اللى عيشتى على الدم، جانى طبيبى وسمعنى الكلام ع الدم وإن أذن الله ، طابت منى أنا الجروح حا البس ثياب الهنا تشع منه الروح ، وإن جا عزولى أقوللو : من هنا قوم روح فتحت لجروح وكانت كاتمة ع الدم » .

وتنشد لنفسها :

حبيت جميل زين وسبونى العوازل فيه وكتروا من الفتن لجل أتركه وأنفيه .

وكيف أنا أتركه وأنفيه وانا عقلى وروحى فيه . شيَّع حبيبى وقاللى :

اناعبدك وسيد غيرك .

عينك على الكرم إذا خطروا العوازل فيه

وتغنى وكما لو كانت فى لوعتها تبعد عنها حسادها والعزول

يجازيك ( ياالايم ) عليه فى الغرام يجازيك

إياك تلومنى فيه

داالحب له نار والعه

فى المهجة وشاعلة فيه

يا زارع السنط هيا ودادى فيه

دا السنط كله منافع

أما الأرد نرميه

والمركب اللى انخرق

إياك تعدى فيه .

إلا أن عين سقرديون المشعة بالشر دوما لم تغفل عن تدبير الانتقام الدامى من ملك أفراح وابنته شامة ، التى سبق أن تجاسرت على رفض ابن الملك أرعد ووريثه فى اعتلاء عرش « ليوث يهوذا » .

فتوعد ابن الملك بتحقيق آماله من شامة ، فقط حين يحين موعد أعياد :

« وفاء النيل » .

حتى إذا ماحان أوان موسم العيد ، أوعز لمساعديه وكهنته بإيقاع « قرعتهم » لهذا العام على أميرة أفراح « شامة » مردفا :

– وهى رغبة الملك سيف أرعد ، كما تعلمون ، قبل أن تكون رغبتى .

حتى إذا ماوقع الاختيار على « شامة » ، واستعدت مدن الحبشة وأفراح وتوابعها لذلك الاحتفال - الشعائرى - الذى كان يجرى حدوثه فى وقت واحد من كل عام ، فى كل موقع وكيان يواصل نهر النيل عبرهما جريانه كالحبشة وأوغندا والسودان وبلاد النوبة ومصر .

وتجمعت الجماهير من كل صوب احتفالا بعيد ذلك العام ، متجهة مشرئبة صاعدة إلى تلك القلعة المهجورة فوق أعلى جبال المدينة التى ازدانت بالزينات والأعلام وفرق الموسيقى والطرب والألعاب الشعبية ونحر الذبائح .

ووصلت مع الغروب كوكبة من فرسان الملك سيف أرعد مدججة بالسلاح ، يعقبها وفد الكهنة والمنجمين إلى قصر ملك أفراح ، وهم يسوقون إليه - بشارتهم - بوقوع اختيار « القرعة » ثلاث مرات متتالية على أميرة البلاد الجميلة :

- صاحبة الصون . . أفراح .

هنا سقط الوالد من طوله مغشيا عليه ، بينما صعدت كتيبة الجند لاتلوى على شىء، الى حيث جناح « شامة » فأحاطوا بها من كل جانب وهى تقاوم وتبصق فى وجوههم :

- ابعدوا ياقتلة . . يالصوص الظلام والخرافة .

وعم الصمت جماهير المدينة عن آخرهم وهم يشهدون مشدوهين كيفية أسر أميرتهم، وهم يصعدون بها الجبل الشاهق المشرف على النهر ، إلى أن اختفوا بها وهى صارخة مقاومة :

- قتله . . لصوص . . عصابات .

حتى إذا ماألقوا بها مقيدة عند قدمى ابن ملك الحبشة سيف أرعد العاشق لها والذى سبق لها رفضه ، خلع من فوره قناعه ـ هائل الحجم ـ عن وجهه ضاحكا من أعماقه مقهقها :

- شامة . . حبى !

هنا هوت ذراع ضاربة على أعلى عنقه ، ففصلت رأسه عن ذلك الجسد « الخرافى » المتهتك .

# 23

## سيف أرعد يصرخ : ولدى جثة بلا رأس

لم تكن اليد التى هوت فجأة على عنق – مقلقل – ابن ملك الاحباش سيف أرعد بحسامها ، لحظة احتضانه « لعروس النيل » – شامة – التى وقع عليها الاختيار سوى يد سيف بن ذى يزن الضاربة :

– شامة . . هس .

استدارت شامة فى أقصى فزعها مماحدث فجأة وبشكل خاطف ، فى اللحظة ذاتها التى رفع فيها سيف قناعه عن وجهه ملقيا به ، ثم جذبها إليه ، وانسلا خارجين عبر ردهات ومسالك وأطلال تلك القلعة المهجورة الخلفية مسرعين لايلويان على شىء .

بينما دوت أصوات الغناء والموسيقى والاحتفالات الماجنة – السنوية أو الموسمية – بعروس النيل عالية صاخبة من حولهما تصم الآذان .

نزعت – العروس – شامة غطاء رأسها الحريرى الملون على شكل تاج هائل الحجم أعاقها عن الحركة والجرى بأقصى سرعة ، مسلمة ذراعها لسيف ، وهما يقفزان ويدوران حول السراديب المظلمة باحثين عن منفذ للإفلات عبره .

إلى أن اعترضتهما فجأة شلة من حرس ابن ملك الأحباش – مقلقل – وعندما أحاطت بهما كتيبة الجند من كل جانب ، دون دراية أو إدراك منهم لما حدث ، أعمل –سيف اليزن – حسامه فى رقابهم الواحد بعد الآخر ، ملقيا ببعضهم من فوق أسوار القلعة – الخربة .

حتى اذا ما انتهى سيف بن ذى يزن منهم وكانوا قرابة سبعة جنود ، مدججين بالسيوف والحراب ، أعاد من جديد اجتذاب حبيبته - شامة - من يدها مواصلين عدوهما ، باتجاه السراديب الخلفية للقلعة التى كان - سيف - قد درس مسالكها المتعددة ، بهدف تضليل كتيبة الجند الرابضة فوق أبراج الحصن الواقعة فى أعلى أسوارها .

إلا أنه توقف مستديرا مسرعا حيث اعترضته كتيبة أخرى من الجند محيطة بهما هذه المرة من كل جانب مشددة حصارها ، فواصل قتاله لهم الواحد بعد الآخر ، إلى أن تمكن بحسامه من ثلاثة منهم ، وفر الباقون عدوا عبر البرارى والهول .

وسرعان مااختطفت شامة بدورها خنجر سيف من غمده ، وكلما قاربها أحدهم محاولا إعادة اختطافها ، أردته بخنجرها صريعا .

وما أن نزلا عدوا الدرجات الحجرية للقلعة ، حتى توقف سيف من فوره مستخرجا رقعة صغيرة من الجلد متأملا فى لهفة ، بينما شامة تمسح عنه عرقه وجبينه بأناملها الحانية وهى تشرئب ببصرها إليه دون صوت ، حتى أعاد جذبها من معصمها :

- من هنا . . يمينا يمينا . . هيا أسرعى .

وما أن انسلا خارجين من سرداب القلعة الموصل إلى أسوارها الجنوبية حتى تنفس سيف اليزن بعمق وهو يواصل عدوه إلى حيث تقف كوكبة من جنده وحراسه بعيدا بانتظارهما وسريعا ما ألقوا إليهما بحبل ساعدهما على تسلق أسوار القلعة الجنوبية فى نفس اللحظة ذاتها التى وصل إلى أسماعهما جلبة صادرة عن مجموعة أخرى من حراس ابن ملك الاحباش - القتيل - وبأيديهم المشاعل الضخمة والسيوف اللامعة المشهرة، وهم يحاولون اللحاق بهما دائرين من فوق أسطح القلعة للإمساك بهما :

- هاهم . . يمينا . . يمينا .

لحظتها كان سيف اليزن قد أنزل شامة التى ألقت بنفسها بين أحضانه ، وامتطى الجميع ظهور خيولهم ، وغابوا عدوا وسط أشجار الغابات الكثيفة العملاقة ، إلى أن شارفوا مرفأ « جانبيا » على النيل ، قادهما الحراس إليه ، فنزل سيف اليزن عن حصانه ،

متجها إلى شامة فحملها بين ذراعيه ، إلى أن دلفا إلى مركب صغير مختبيء بين الأحراش بينما واصل حرسه الركض باتجاه حرس ابن ملك الأحباش لإعاقتهم عن اللحاق بهما .

ودارت معركة حامية بين الجانبين حيث التحما وسط الغابات والأحراش ، أعطت المزيد من الوقت الكافى لتحرك مركبتهما - سيف وشامة - وسط مياه النيل الفضية إلى أن اختفيا فى الأفق البعيد :

- أخيرا . . عبرنا النيل العظيم ياشامة .

امتطيا ظهرى جوادين عربيين كانا بانتظارهما بصحبة مجموعة أخرى من الحرس ، وتسلقا بضع تلال باتجاه احدى القرى ، وسيف اليزن مايزال يداعبها بقوله

- اتقبليننى خطيبا بدلا منه ؟

تساءلت بصوت عال :

- من ؟

- النيل !

ضحكا طويلا وهما يواصلان عدوهما فى مرح أبدل من تعبهما وما بذلاه من جهد خارق للإفلات من تلك المكيدة التى كادت أن تودى بحياة شامة هذه الليلة .

- عروس النيل . . أم عروس ذلك « الفحل » الأبله - مقلقل - ابن أرعد .

قالت :

- النيل . . أرحم !

وضاحكها سيف وهما يتوقفان فى الخلاء الفسيح المحيط بهما لحظة كافية « لتغيير ريقهما » بتناول التمر واللبن قائلا :

- هل يمكن تصور ماحدث ياشامة .

واصل :

- أن ننجح معا فى تخليص ربوع هذه البلاد من وريث سيف أرعد .

ألقت برأسها بين أحضانه مسبلة عينيها كمن تحلم طويلا :

- متى نتخلص من أرعد ذاته . . متى ؟

واستبدت بها المخاوف من ذلك المصير المظلم الذى سينتظر والدها الشيخ من انتقامات ملك الأحباش لمصرع ولده ووريثه . . مقلقل . . ذلك « الفحل » المتهتك .

وطمأنها سيف بن ذى يزن قائلا بأنه قد وضع لكل شىء حسابه والمهم الآن هو أمنهما هما معا من ذلك الجنون الذى سيستبد بالأحباش وملكهم ، على طول أفريقيا مشرقا ومغربا :

- المهم هو مواصلة الطريق ، حتى المرفأ الآمن . المهم هو اليقظة . . هيا .

- واصلا عدوهما من جديد ، باتجاه مدينة ضخمة غاصة بالأضواء والفرح ، تسد الأفق البعيد ، إلى أن وصلاها مع الغسق ، فدوت الأبواق معلنة قدومهما وانفتحت البوابات على اتساعها واحتوتهما وفى أعقابهما جوقة الحرس داخلة . حتى إذا ما أصبح سيف بن ذى يزن وسط أفسح ساحاتها . شهر من فوره رأس ابن سيف أرعد :

- رأس مقلقل .

هنا دوت المدينة بالفرح والتكبير والدعاء والهتافات للملك التبع المنتصر من كل جانب :

- سيف اليزن . . سيف اليزن !

أما ملك الحبشة سيف أرعد ، فقد غابت الدنيا على اتساعها أمام عينيه ، حين حملت إليه الاخبار مصرع ابنه ووريثه داخل تلك القلعة الحصينة التى جرى فيها احتفال هذا العام ، بعروس النيل :

- بأيدى خارج أثيم . . مجهول .

صرخ سيف أرعد من أعماقه ، وهو يدق عمدان قصره :

- مجهول . . أتقولون مجهول ؟؟

اتجه من فوره كالمخبول ممسكا بخناق وزيره المرتعد ، كمن يحاول إزهاق روحه عن ..بدنه :

- وأنت أيضا ياسقرديون اللعين . . أتقول مجهول ؟

أردف سقرديون شاحب الوجه :

- بل معلوم . . معلوم . . لا أحد سواه !

ألقى به الملك على أريكة جانبية فى أقصى حالات هياجه ، وهو يدق كفا بكف قائلا :

- أجل معلوم . إنه التبع الجديد سيف بن ذى يزن . . ياسقرديون . . وليس غيره .
استدار من جديد إلى وزيره المأخوذ المرتعد :

- تلك مشورتك الجديدة . إذن فلم يعد سواى . لتراهن عليه . . أليس كذلك ؟

جرى كالمجنون صاعدا درجات سلالم عرشه المصاغ من الذهب الخالص صارخا وهو يتأمله مبهورا :

- لينتهى كل شىء . ليقضى العرب اليمانية على كل شىء . . حتى عرش يهوذا هذا . . هذا .

انحط جالسا فى حسرة على كرسى عرشه مطوقا رأسه بذراعيه :

- أليس كذلك ياسقرديون . . ياصاحب المشورة ؟

حتى إذا ماتدافعت مجموعة من الحراس مرتدين ثياب الحداد ، محاطين بجوقات النساء والنادبات ، وهم يحملون الجثمان المسجى لولده مقلقل ، هب أرعد عن عرشه مذعورا باكيا :

- ولدى . . وريثى . . لحمى وما أن تقدم بخطا بطيئة من التابوت الذهبى المطعم المحلي بالرسوم ، كاشفا غطاءه ، حتى جرى مذعورا من هول مارأى :

- ولدى . . جثة بلا رأس !

اندفع صاخبا هائجا عبر ساحات قصره وهو يصرخ بالثأر والانتقام والدمار

- رأس ابنى . . جثة بلا رأس ، ابن سيف أرعد . . هكذا على هذا النحو جثة بلا أس . . منين نعرف لها أساس .

أهاب باكيا بقومه وقبائله وأمرائه وأبنائه الكثيرين ناديا محرضا :

- تعالوا . . تعالوا اشهدوا جميعا ابنى مقلقل جثة نزعت عنها رأسها .

تدافعت الوفود والأقوام وشيوخ القبائل والأمراء ومن خلفهم جوقات النساء النادبات النائحات فى السواد ، وقد لطخن وجوههن بالنيلة الزرقاء « يصرخون ويتوعدون »

- جثة بلا رأس : منين نعرف لها « أساس »

والملك يصرخ ويرعد ويمزق ثيابه وينتزع شعيرات ذقنه فى جنون :

- ابنى وريثى . . أسد يهوذا . . تعالوا قربوا . . اشهدوا .

وخلال كل ذلك الجو الملبد بالحزن وبكائيات النادبات وعويل النساء ، انسل لوزير سقرديون متخاذلا منزويا عن العيون المتطلعة المشيرة إليه بكل اتهام ، فهو وحده صاحب ومدبر المكيدة الأخيرة ، نكاية بملك «أفراح » وابنته - شامة - التى رفضت الزواج من الإبن القتيل ، بما يشير ويعنى وقوفها فى صف العرب الطامعين الغزاة ، ولو لم يجهرا علنا بوقفهما ذاك .

بل إن انزواء سقرديون ومحاولة اختفائه من هول مشهد مايحدث ، تضاعف أكثر حيرة ، ووقعت عيناه بين الجموع ، على وزير - الميسرة - الحجازى « أبو الريف » الذى تقدم فى ثيابه فافسح له الجميع طريقه إلى حيث التابوت الملكى المغطى برقائق الذهب، فأعاد غلق غطائه ، مانعا فى هدوء الوفود المتدافعة كالهدير من حول التابوت :

- لتهدأ روح الميت فى مثواه الأخير .

صرخ الملك سيف أرعد :

- لن تهدأ . . إلا بالثار .

وعلى الفور تعالت دقات طبول الحرب العاتية من داخل القصر وخارجه ، مترددة من كيان إلى آخر ، ومن مدينة إلى مايجاورها ، بإيقاع رتيب ، تهيب بالكتائب ووحدات الجنود والمحاربين التجمع والتأهب للحروب .

وانسل سقرديون منسحبا إلى حيث الساحة الخارجية للقصر مصدرا تعليماته لقادة الوحدات والكتائب فى محاولة للتغلب على ذلك الإحباط الذى لم يخل من إحساس دفين بالذنب مما حدث ، وهو يوحى للجميع بأن الخطر كل الخطر من العرب - اليمانية - وعاصمتهم :

- الموت والدمار لأحمرا .

وسريعا ما دوت الهتافات من كل جانب ، مطالبة بالتوجه - الآن وليس غدا - لمدينة التبع ذى اليزن ، والمطالبة برأس ابنه :

سيف اليزن . . ولا أحد غيره .

وهكذا وجدها سقرديون فرصته سانحة لإلهاب المشاعر ، وتجميع كل الجهود للتخلص من النفوذ العربى ، بحسب خطته السابقة التى لم يولها الملك سيف أرعد اعتبارا وهى تدمير أحمرا أولا وقبل كل شىء ولو استدعى الأمر التخلى عن حاميات الحبشة فى الشمال الأفريقى . . فى تلمسان وصعيد مصر والسودان وبلاد النوبة الآن :

- وقبل إطفاء النيران المتوقدة بدفن الجثمان .

وهنا عارضه الوزير - الحكيم - أبو الريف فى إعطاء الأولوية لدفن جثمان ابن الملك ، وعدم التسرع قبل أخذ المشورة ، بدلا من الانفراد بالرأى الواحد الذى وكما تأكد للجميع :

- هو السبب الأول والأخير فى تلك الكوارث التى أصبحت تحل بالبلاد .

وكان الوزير أبو الريف ، يقصد من وراء ذلك كسر جماح الرغبات المستعرة بالشر من جانب زميله سقرديون .

ولما كان سقرديون ، أضعف حالا هذه الجولة من فرض تصوره - السياسى - بالحرب ، فقد آثر مهادنة الوزير أبو الريف مشيرا :

- لكم ماترونه .

حتى إذا ماانتهت الحبشة من دفن جثمان - ولى العهد - وهدأت طبول الحرب والعدوان إلى حين . أعاد سقرديون إذكاء لهيبها فى أذنى سيف أرعد :

- الحرب والدمار للعرب المعتدين .

وعلى الفور انتظمت صفوف جيش الأحباش للانتقام والعدوان ، آخذة طريقها إلى حيث أسوار المدينة العربية - أحمرا - وملكتها « قمرية » وابنها سيف بن ذى يزن :

- التبع الغازى . . الجديد .

# 24

## مهد التباعنة

ما إن حقق سيف بن ذى يزن انتصاره بقتله لمقلقل بن سيف أرعد ملك الأحباش ، وإنقاذه لحبيبته رفيقة طفولته وصباه « شامة» من بين براثنه ، حتى عبر النيل باتجاه القرن الأفريقى ، مواصلا هروبه بها من جنود وحلفاء وعيون سيف أرعد .

وهو الذى جن جنونه مما حدث وانتهى بقطع رأس ابنه ووريثه فى حكم أفريقية . على ذلك النحو السافر من الغدر .

ثم هى الرأس التى شهرها سيف اليزن من فوره حين حط رحاله وشامة وسط الأقوام والقبائل الموالية للعرب والتباعنة ، فأثارت الحمية بين الجميع ، من الذين عانوا الأمرين من عدوان وتجبر الأحباش وملكهم ، وبخاصة منذ أن وافت المنية ـ والد ـ الملك التبع ذى اليزن .

وهكذا تدفق من جديد الحماس للعرب فى أفريقيا وبخاصة غربها وشمالها المتاخم للجنوب العربى ، فتواترت أخبار ما حدث من كيان إلى آخر ، إلى أن وصلت ربوع اليمن ذاته ، بل جزيرة العرب بأسرها .

إلا أن إجماع المشورة بين الأقوام العربية وحليفاتها استقر على ضرورة وأهمية إسراع سيف اليزن بالزحف وخطيته وكتائبه القليلة العدد ، باتجاه اليمن والجنوب العربى ، هربا من عيون سيف أرعد وبطشه وأذرعه الطويلة التى لن تهدأ أو تهادن فيما حدث ، وبعد أن وصله جثمان ابنه المسجى . . بلا رأس :

ـ جثة بلا رأس .

ـ منين نعرف لها أساس .

لذا آثر سيف بن ذى يزن ، الامتثال لإجماع المشورة العربية ، مواصلا زحفه السرى من مخبأ إلى آخر ، إلى أن حط رحاله وبرفقته خطيبته شامة ابنه ملك أفراح فى ربوع اليمن حيث دفء الأهل والعشائر .

## مهد التباعنة

وجرى استقباله بين قبائله وعشائره مجللا بالنصر والظفر اللذين حققهما عبر جهاده الطويل ، لتثبيت حكم التباعنة فى مجاهل القارة السوداء ، وهو الذى ولد وتربى يتيما عبر المنافى والمخابىء تحسبا من ذلك العدوان المبيت ضده من جانب الأحباش وملكهم سيف أرعد ، الذى كان قد اختطفه بالفعل عن طريق الدايات ـ أو القابلات منذ اللحظة التى فارق فيها رحم أمه ـ قمرية ـ .

وها هو سيف بن ذى يزن الآن وبطولاته التى أصبحت مضرب الأمثال، تلهج بها الشفاه والجباه المتعطشة للنصر العربى ، الذى كان قد شحب وهجه بموت والده ذى اليزن االذى أودى به المرض العضال قبل الأوان ،وقبل أن تكتحل عيناه برؤية ولده الوحيد .

## هيكل .. سيف

حتى إذا ما دخل قصر أبيه ذى اليزن وجده ـ عمرو بن مزيقيا ـ الذبيح بيد أخيه التبع حسان ، تدفقت مشاعره والتهبت من جديد بمواصلة الكفاح . وعلى الفور سرى وانتشر نبأ وصول ابن ذى يزن . المجلل بالنصر الذى اقتنصه اقتناصا ولو عن طريق الخداع فى مواجهة الحبشة وأطماعها فى عرش التباعنة وأحلافهم ،سواء فى أفريقيا ، أو فيما بين الرافدين ، أو فى غرب آسيا .

وتدفقت وفود القبائل من أمراء وشيوخ قبائل من حمير وقحطان ، من كل صوب وقوم وكيان ، إلى سبأ للتهنئة بالنصر :

ـ سيف بن ذى يزن . . يالها من معجزة . . يالها من صحوة انتظرها الجميع طويلا . . طويلا .

وعلى هذا النحو وصل سيف بن ذى يزن ووطأت قدماه أرض أجداده محملا برأس وريث « عرش يهوذا » ابن ملك الأحباش .

وسرى الحماس متدفقا بين الجميع إلى حد المطالبة بتنصيبه تبعا على عرش أجداده .

إلا أن سيف بن ذى يزن رفض المثول لهذا المطلب المتعجل ، إلى أن يحين أوانه ، معطياً الأولوية لتجميع فلول جيش حمير معلياً من ذراعها الضارب ، فى مواجهة العدوان والبطش الحبشى المتزايد ضد عاصمة التباعنة فى أفريقيا ـ أحمرا ـ وهو العدوان الذى لابد وأن يصل الجميع هنا فى اليمن وتوابعها .

إن لم يكن اليوم . . فغدا .

وهكذا استطاع ـ سيف ـ إعطاء الأولوية للتجمع والاستعداد للقتال منذ لحظة أن وطأت أقدامه عاصمة التباعنة ، دون تردد أو إبطاء :

ـ فسيف أرعد . . يطرق الآن كل الأبواب ، ولن يهدأ له جفن إلى أن يحط برحاله على حصون التباعنة ليدكها دكا .

ودعم سيف اليزن دعواه ، مشهرا من فوره محصلة الأخبار والمعلومات التى وصلته حول ضخامة ذلك الجيش المدجج الجرار الذى استدعى الملك أرعد فيالقه وكتائبه من السودان ومصر العليا وتلمسان وبلاد النوبة ، وحشده فى أثيوبيا تمهيدا للمسير والعدوان مواصلا تساؤلاته .

ـ لمن ؟ . . لصدورنا هنا . . فى أحمرا العربية ، ولا أحد غيرنا .

وهكذا نجح سيف باستخدام مهارته الخطابية والسياسية فى إلهاب المشاعر العربية وتجميع طاقاتها التى كانت قد تبددت طويلا .

وهو ما دفع بشامة إلى أقصى حالات اندهاشها وانبهارها معا . من سرعة وصول الإمدادات والفيالق العربية ، من الشباب المتطوعين ، بخيولهم وسيوفهم المشهرة ، وتدفق ذلك الحماس العربى من كل صوب وكيان ، حول سيف بن ذى يزن ، إلى درجة دفعت

بشامة ، إلى تناسى هواجسها ومخاوفها من ذلك الخطر المحقق الذى لن يفلت منه والدها ـ ملك أفراح ـ وقومها . وذلك من جراء قيام حبيبها سيف بقتل ابن أرعد ليلة اختطافها من قبله لإجراء طقوس سفك دمائها دون أدنى شعور بالذنب أو الحياء .

ومن هنا جاءت استجابتها لدعوى سيف اليزن بأن الحل والخلاص لن يتحقق إلا بالجهاد للقضاء على أصل الداء ، وقبل استشرائه فى أفريقيا وما يتاخمها من أقوام .

ومن هنا توارت أحزانها ومخاوفها ، وهى تشهد بعينيها تشكيل نواة ذلك الجيش العربى ، الذى تعالت قرقعة سلاحه وتدريباته اليومية على طول عاصمة التباعنة وبقية المدن والمعالم العربية ، التى تنقلت فيها وزارتها شامة بصحبة ـ التبع المنتظر ـ سيف بن ذى يزن .

فزارت برفقته ، حضرموت ، وصعدة ، وذى رعين ، وعدن ، وإرم ـ ذات العماد ـ وصنعاء ، والبحرين ، وصرواح ، ومأرب ، ومدائن صالح ويثرب واليمامة محرضة إلى جانبه على ضرورة التأهب والصحوة للقتال الذى حان أوان اندلاعه إن لم يكن قد تأخر كثيرا على حد تعبيرها .

إلى أن تحقق حدسها الذى كانت قد تناسته فى غمرة تجميع الجهود والطاقات العربية .

وذلك حين وصلتها الأخبار يوما بما حل بوالدها ـ ملك أفراح ـ الذى بدأ سيف أرعد انتقامه منه باقتحام عاصمة بلاده ومحاصرة قصره مطالبا بتسليمها هى ـ شامة ـ حية أو ميتة .

إلى أن تحقق من فرارها مع قاتل ابنه ووريثه ولم يشف غليله إلا بسياق والدها أسيرا عارى القدمين مقيدا عبر شوارع وميادين أثيوبيا ، على مشهد من الجميع ، وصلبه على بواباتها :

ـ ذلك الأرعن شراب الدم !

صرخت شامة من أعماقها ،ودون أن تذرف دمعة واحدة على عادة النساء ،فى مواجهة سيف اليزن ، الذى تضاعف حبه و إكباره لها ، وهو يضمها إلى صدره ،عاقدا من فوره قرانه عليها فى اجتماع بسيط هادىء ودون عرس أو صخب قائلا :

ـ فى القريب العاجل سيحل عرسنا الحقيقى يا شامة . . ياحبيبتى .

وكان يقصد بهذا . . يوم انتصاره على ملك الأحباش سيف أرعد :

ـ حين يحين اليوم المنشود !

ولم تترك الأخبار الدامية لسيف بن ذى يزن وعروسه شامة ،متسعا من الوقت للارتواء من نهر حبهما القديم وزواجهما ، بل سرعان ما تواترت أنباء توجه حشود جيش الأحباش ، وعلى رأسه أرعد بنفسه ووزيره سقرديون ، باتجاه العاصمة العربية ـ أحمرا ـ للانقضاض عليها وحصارها لحين استسلام ملكتها قمرية .

هنا زفرت شامة من أعماقها لسيف اليزن ، وهما يتأهبان بدورهما إلى المسير والعودة إلى أفريقيا قائلة فى غل :

ـ وقبل أن تستسلم تلك الملكة قمرية ليسوقها أسيرة عارية القدمين والرأس فى سلاسله وقيوده عبر شوارع أثيوبيا بنفس ما فعله مع أبى .

عندئذ رمقها سيف اليزن بنظرة غائرة الأعماق والأبعاد ،محاولا تفهم غرضها الأخير، فلم يكن قد سبق له أن حدثها قط عن ملكة أحمرا قمرية .

بل إن توالى الأحداث وصخبها استعدادا للحظة تجمع قرار المسير بنواة جيش حديث التكوين ،دفعهم للزحف سريعاً باتجاه شرق أفريقيا وأواسطها ،ومواجهة جيش الحبشة وملكها :

ـ وريث عرش يهوذا .

وهو قرار كان سيف بن ذى اليزن قد عقد الرأى على تأخيره كثيرا ،وهو الأقدر بالطبع على معرفة مدى قوة الحبشة ورسوخها فى مجاهل أفريقيا ، مضافا إليه أيضا الدور العنصرى ـ الدعائى ـ ضد العرب الساميين لونا وجنسا بل وحضارة من جانب أرعد .

واصفا إياهم بالبدو الغزاة .

وبدأت الأخبار المتوالية الوصول تطرق كل الأسماع حول حصار أحمرا وملكتها قمرية، وهو ما أقلق مضاجع سيف إلى حد الفزع ،وأفضى به فى النهاية إلى اتخاذ قرار المسير عبورا من أقصر الطرق باتجاه الحبشة ذاتها ثم أحمرا .

وخلال المسير الذى استغرق بضعة أسابيع طويلة واصل فيها سيف اليزن سيره المؤرق ليل نهار .

وفشلت كل جهود شامة فى التخفيف من أعبائه إلى أن اقترحت عليه اتخاذ بلادها وموطنها منطلقا للجيش العربى نظرا إلى قربها محققة بذلك هدفها الدفين الذى أصبح يشدد فى عضدها . وهو الانتقام لوالدها الطيب الذى اقتاده الأحباش أسير مقيدا بذيول خيولهم عارى الرأس والقدمين إلى أن تم صلبه مقلوبا رأسا على عقب على بوابات أثيوبيا .

مما دفع بسيف إلى التعديل من خطته، مقسما جيشه إلى فيلقين .

أولهما اتخذ اتجاهه إلى شرق بلاد الحبشةذاتها ، بقيادته مستخدما حيله الماهرة التى عرفت عنه فى «حرب النيل » بينما سار الفيلق الثانى باتجاه «أحمرا » وما يتبعها من أقوام أفريقية .

حتى إذا ما حانت لحظة الافتراق بفيالقه مسرعا عن شامة لتنفيذ تهديداته الخلفية لجيش الحبشة والانتهاء منها بأقصى سرعة يمكن تحقيقها ، اتخذ طريقه على الفور للحاق بالفيالق المتجهة إلى نجدة المدينة العربية وملكتها المحاصرة «قمرية » .

ولكم صعبت لحظة الافتراق هذه على شامة عندما ودعت سيف ذلك الغرام الطاغى الذى تملكها أكثر وتضاعف لهيبه منذ توالى ما مر بها من أحداث جسام .

فتذكرت حين أنقذها من ذلك الموت العاهر بين براثن ـ مقلقل ـ ابن سيف أرعد ، ثم إفلاتهما معا عبر وهج المعارك والمخاطرات للخلاص من الشر .

وهكذا سرعان ما اندلعت سريعا المعارك ، حين غير سيف بن ذى اليزن هيئته كلية

بدءًا من شعر رأسه «الأكرت » الجعد وانتهاء بلون وجهه ويديه وبدنه بكامله ، ثم دخل الحبشة ، وهو على دراية كبرى بمسالكها ، منقضا على مقتلها باستخدام نقيضين لا غيرهما :

ـ الغرق . . والعطش .

فحقق انتصاره ، وأحدث الذعر الجارف فى ربوع البلاد المترامية ، التى ما إن وصلت أنباؤهما إلى اسماع ملكها سيف أرعد ، وهو على مشارف تحقيق نصره وحلمه الطاغى ، باقتحام أسوار عاصمة «بدو المشرق » والإمساك برأس الأفعى :

قمرية . .

حتى تهدم كل شىء كمثل معبد قديم تهاوى على رأسه الكبيرة :

ـ جنون . . الخيانة . . الخيانة!

وقبل أن يفيق سيف أرعد من هول ما حملته إليه الأنباء محاولا إعادة السيطرة على جيشه وفيالقه ، كان ابن ذى اليزن يأخذ طريقه للحاق ببقية جيشه والإطباق من الخلف على سيف أرعد ذاته ، مما خفف الحمل الجسيم عن «أحمرا »ودفع بقمرية من جانبها إلى التشدد والمواجهة ، وكأنها بهذا إنما تحكم إطباق فكى الكماشة على جيش الحبشة بقيادة سيف أرعد .

واشتدت وطأة القتال الذى امتد إلى داخل أحمرا ذاتها ، خاصة حين دخلها سيف اليزن بجنوده . مواصلا خداعه وتنكره ، فى محاولة للحاق والامساك بسيف أرعد ذاته .

إلى أن أصبح وجها لوجه مع أمه قمرية التى كانت قد استبعدت مجىء ابنها لمناصرتها فى هذا الحصار والهجوم المباغت من جانب الأحباش .

إلى أن أطبقت عليه بفيالقها فى محاولة لتصديه وقطع رأسه ، بعدما فر سيف من أمامها .

فما كان من سيف اليزن أن خلع زيه وتنكره كحبشى ـ أسود ـ على مشهد من أمه قمرية المتوثبة لقتله ، ما سحا عنه حتى لونه معلنا :

ـ أنا سيف اليزن . . هيكل يا أماه !

# 25

## سيف بن ذى يزن تبع حمير المنتظر

تلك هى المرة الأولى ، التى وعى فيها سيف بن ذى يزن على نفسه بعدما مادت أرض القلعة الرخامية من تحته ، فسقط فى ذلك الفخ ـ الملغم ـ المفتوح الفاه عن آخره .

وذلك لحظة إطباق ملكة أحمرا ـ قمرية ـ عليه على رأس جنودها من كل جانب ، كمثل نمر مفترس هائج ، مشهرة سيوفها وقواطعها وحرابها ، لتهوى بها على رأسه :

ـ أقتلوه !

كانت تلك هى المرة الأولى ، التى فتح فيها سيف عينيه عن آخرهما وهو مجندل مقيد بالحديد و«الكلابات » والجنازير فزعا صارخا فى وجه أمه الملكة المحاربة قمرية وهى على ظهر الشهباء فرس ذى اليزن متقلدة عدة حربه شاهرة حسامها استعدادا لكى تهوى به على رأسه فصرخ فى وجهها :

ـ حذا . . أنا سيف . . هيكل . . ابنك .

هنا عجزت الذراع المشهرة الضاربة فتراجعت كمن شلت للحظة عن كل حركة ، ونزلت قمرية من فورها مسرعة فزعة عن حصانها متفرسة فى وجهه ، وبالتحديد على شامة التباعنة الخضراء على جبينه ، بينما خلع هو أقنعة تنكره وأزال الأصباغ عن وجهه وصدره العارى مسرعا :

ـ هو . . سيف !

وللحظة سريعة كمثل برق خاطف اقتنصت نظرات ـ الأم قمرية ـ المدققة ملامح ذى اليزن ـ والده ـ السمحة الفائقة النبل ، منكبة عليه محتضنة إياه فى حنو :

ـ هيكل . . سيف . . ولدى .

استدارت كمن تعلن لحرسها فى انبهار لا يصدق أبعاد وحقيقة ما حدث :

ـ سيف بن ذى يزن . . حذار .

وقبل أن تمتد يد لتخلصه من فخاخه كان هو قد اندفع نافضاً عنه قيوده قائما منتصبا على قدميه فى حيوية مصافحا أمه ، متطلعا فى وجوه فرسانها وكأنما يحيى بابتسامته الصافية أصدقاء أعزاء قدامى :

ـ عدنا . . مرحبا . . أمى الحبيبة . استدار مستطلعا من فوره سير المعارك الطاحنةالضارية الدائرة على طوال الساحات الواسعة فى شوارع ـ أحمرا ـ المتقاطعة والجانبية عبر شرفات القصر الشاهق المرتفع البنيان ، بما يسمح بجلاء ووضوح رؤية كل شىء على طول السهول والوديان ، وعلى طول النهر الفضى العريض المتدفق جاريا إلى الشمال .

وبدا واضحا للعيان هدف الأحباش وحلفائهم المستهدف لقصر ذى اليزن ذاته حيث الملكة :

أفعى أحمرا .

إلى درجة دفعت بقمرية إلى التخلى عن ابنها ـ سيف ـ مشيرة صارخة :

ـ انتبهوا . . غربا . . غربا .

إلا أن تراخى ـ ابنها ـ منفلتا من بين أحضانها مستبشرا ضاحكا ، أعاد إليها من جديد تنهدها مشيرة للخطر المرتقب :

ـ تقدموا

لحظتها تزايدت أكثر ضحكات ـ سيف وهو ينفض عنه غبار معاركه مقهقها فى

عنف ، وهو يقارب ـ قمرية ـ مجددا محاولا إعادة إنزالها من فوق صهوة جوادها ، مما ضاعف من سخطها عليه ، إلى أن قال سيف بن ذى يزن موضحا :

ـ إنهم جنودى . . جنودك أيتها الملكة الأم . . المنتصرة . . (ضاحكها ) انتبهى .

تردد بصر قمرية بين حشود الجند المسرعة العدوباتجاه المدخل الغربى لقصر ـ القلعة، وبين ضحكات سيف واستبشساره ممتطيا من فوره ظهر حصانه مشيرا لفيالق الجنود المقتربة ، مهللة بالنصر ، محيطة به من كل جانب فى تعال :

ـ المجد لتبع حمير المنتظر .

هنا بدا المشهد فى عين الملكة الأم قمرية ،أقرب إلى الحسد المحمل بكل زهو وإكبار:

ـ تبع حمير المنتظر. . ولدى !

فاتسعت ابتسامتها وهى تشهد ما يحدث بين ابنها ـ العائد ـ سيف وبين فيالقه وكتائبه ، بلباسهم المزين بالألوان التى يخالط فيها الاخضرالزمردى القانى ، والأحمر الصارخ وقد شهروا سيوفهم :

هكذا يدخل سيف بن ذى يزن مدائنه وقصر أبيه .

وبهر جنود أحمرا بدورهم مما يشهدونه غير مصدقين : إنهم يشهدون الآن وعبر أجيج المعارك المستعرة الضارية التى امتدت شهورا، تبعهم المنتظر :

ـ سيف بن ذى يزن تحت أعلام التباعنة .

كان الفرسان يدورون بخيولهم من حوله ـ أى سيف ـ خالعين عنهم شارات التمويه والتستر بالأزياء الحبشية ، رافعين رايات وبيارق التباعنة ، وقد علت أناشيدهم المدوية احتفالا بالانتصار ، فى مشهد مثير صاخب بعث فى جسد قمرية الذى أوهنته المعارك رعدة لم تكن تعرفها من قبلُ فى كل ما سبق لها أن واجهته وتصدت له ، عبر حياتها الجسورة التى عاشتها :

ـ ولدى العائد سيف .

ـ تبع حمير العائد .

مضت قمرية تشهد عن بعد ما يحدث ، من توافد فيالق وكتائب ابنها سيف بن ذى يزن ، من كل جهة وصوب ، نازعة عنها هى الأخرى شارات تنكرها تحت أزياء الأحباش وحلفائهم ، ليحكموا خطة الكماشة المطبقة ـ من الخلف والأمام ـ على ملك الأحباش ، منذ حط بجنوده داخل أحمرا ذاتها ، فكان أن عجلوا بالنصر ، غمغمت قمرية لنفسها :

ـ بل هم اقتنصوه .

حطت ببصرها عليه وهو يدور وسط حلقات فيالقة وكتائبه وجنوده ، مشاركا فى أغانى انتصاراتهم ، مجللا من كل جانب بأعلام التباعنة وبيارقهم . إلى أن عم خبر عودة التبع العائد الذى فك حصار مملكة أحمرا ، وأوقع بالأحباش الهزيمة فتوافدت الجموع من كل جانب غير مصدقة ، وتزايدت أغانى النصر وأفراحه متفجرة فى كل مكان .

مما دفع بسيف إلى الاندفاع باتجاه أمه مطالبا إياها بالخروج لتحية جنوده وفرسانه والجميع ، والمشاركة فى احتفالات النصر فى هذا اليوم الكبير معاودا إصدار تعليماته هنا وهناك ، لمواصلة تصفية آخر قلاع وجيوب الأحباش ، بل ومطاردتهم باتجاه الجنوب تمهيدا لأن يلحق بهم ـ أى بجنوده ـ قبل مطلع صباح اليوم التالى .

وانتهى سيف بن ذى يزن من متابعة مطاردة جيش سيف أرعد إلى داخل تخوم وحدود بلاده ذاتها ، عبر معارك استخدم فيها الجانبان أقصى طاقات المقاومة ، خاصة من جانب الأحباش الذين أفجعهم خداع سيف بن ذى يزن لهم بتنكره ، وادعائه محالفتهم على ذلك النحو الصارم .

أما فاجعة ملك الأحباش سيف أرعد ووزيره سقرديون اللذين وصل بهما الغضب والحقد على التبع اليمنى الجديد وغدره المتواصل بهما ، إلى حد دفع بهما الى خوض المهالك دون رحمة أو مهادنة فى محاولات للايقاع به أينما كان وقبل استشراء خطره أكثر فأكثر عقب عودته عيانا جهارا لمنازلة الحبشة ، وتحالفه مع أمه قمرية :

ــ ستصبح الأذية . . أذيتين على رؤوس الأحباش وكل الأفريقيين .

وهو ما تحقق بوصول إمدادت قمرية لمساندة ابنها فى نقل المعارك إلى داخل بلاد الحبشةبدلا من أحمرا .

مما اضطر سيف أرعد إلى الإسراع مطالبا بالهدنة ووقف القتال ، الذى رفضه بحدة سيف بن ذى يزن ، بينما تقبلته ملكة أحمرا ، مما أوعز الخلاف بينهما أو بين قراريهما المتضاربين .

وهذا ما سمح لسقرديون بتعميق ذلك الخلاف بين ـ الأم وابنها ـ إلى حد تزايد القطيعة التى جمدت مسار الحرب المستعرة وأوهنت من روح سيف المقاومة ، ثم تقبله فى النهاية لقرار والدته بوقف الحرب ، والعودة إلى أحمرا .

حتى إذا ما عاد سيف بن ذى يزن إلى عاصمة التباعنة التى فتحت ذراعيها عن آخرهما لاستقباله بعد نفى وغياب طويل كانت قمرية قد اتخذت سلفا قرارها الذى عانت منه طويلا وحدها ، فى تنفيذ وصية الوالد الراحل «ذى اليزن» بتسليمه سلطاته ليعتلى عرش التباعنة .

وتم الاحتفال بتنصيبه ، بما يليق من تكريم ، حين تخلت ـ قمرية ـ عن عرش ذى اليزن الباهر ، نازلة درجاته على مشهد من أمراء حمير ووزرائها ، وشيوخ القبائل والعشائر والجموع التى جاءت لتشهد اعتلاء سيف بن ذى يزن لعرش أجداده المتوارث منذ سبأ وحضرموت .

وجثى هو على ركبتيه أمامها وهى تضع تاج ذى اليزن على رأسه مقبلة :

ـ لعل التبع الراحل شهد تلك اللحظةمن مثواه . وفى اليوم التالى لتنصيبه اقتادته أمه إلى حيث كنوز ذى اليزن وعدة حربه ومخطوطاته ودراساته عن :

ـ كتاب النيل .

ـ سأحفظه فى قلبى .

ـ كما تحفظ حدقتى عينيك .

وكما لو أن سيف بن ذى يزن ، قد وقع على بغيته حين انشغل بتصفح صفحات الكتاب فى حرص ، مستغرقا فى تأمل رسوماته التوضيحية ومدوناته وخرائطه الملونة :

ـ استغرق عمره بكامله فيه .

ـ أعرف يا أماه . . أبى !

وهكذا استحوذت كتابات ومدونات التبع الراحل على ابنه : بعد تسلم سلطاته فانكب بكامله ، وقبل كل شىء ، على قراءتها وحل رموز وطلاسم ـ كتاب النيل ـ الذى يعرف أعداء العرب قبل غيرهم أن من يمتلكه يتحكم فى النيل بكامله ومجراه وإخصابه ومجاعاته .

حتى اذا ما حاول سيف بن ذى يزن إجراء تطبيقاته ، ولو من باب إرهاب الأحباش الأعداء ، منعته أمه متغاضية عما انتهت إليه الأحداث باعتزالها لسلطاتها ، وبعدما ارتضى الجميع وأولهم هى ـ قمرية ـ ذلك وهو ما انتهى بتنصيب التبع الجديد .

وعمق من أغوار الصراع الخفى بين الملكة المتنازلة عن العرش وابنها ما تلقاه الملك التبع سيف بن ذى يزن من رسائل بعث بها اليه وزير والده الاول المقرب «يثرب» حين أرسل له مهنئا وشاكيا من عدم قدرته على المجىء من يثرب إلى أحمرا لحضور مراسيم تنصيبه التى كان ينتظر يومها المنشود ، تخوفا من أمه قمرية التى تسببت فى رحيله إلى ـ مدينته ـ يثرب ـ أى المدينة المنورة فيما بعد ـ منشدا له أجزاء من معلقة الشهيرة :

فمن يثرب قد صرنا بعد عمرهـا
إلى بعلبـك ابـن عمـى بهـا عبـرا
وسرنا إلى أرض الحبوش بجيشنـا
نـزلنـا بـواد عمـهُ المـاء والزهـر
مليكنـا ذو اليـزن عمـر أحمـرا
حصنها بالأسـوار وأجـرى الأنهرا
أبراجهـا مـن حولهـا وقـلاعهـا
بها شيدت والناس من حولها زمرا

ولم يشأ ـ سيف ـ أن يستوضح من أمه عن جذور خلافها مع وزير والده ، وموضع سره ـ يثرب ـ تحرجا من جرح مشاعرها ، كما أنه لم يشأ أن يستأثر بقرار مصيرى، يتصل بالحرب والسلم ومهادنة سيف أرعد لا ترضى عنه والدته قمرية ، مهما عز عليه :

ـ فهى أمى . . من حبلت بى .

ذلك على الرغم من تيقنه الدفين من خطورة قرارته فى هذا الشأن ، خاصة وأن الأخبار التى يرصدها عياروه وبصاصوه ، تجيئه بالكثير حول الحشود التى يسعى إليها الملك سيف أرعد فى الخفاء ، والمبيتة كلها ضده وضد عاصمة التباعنة ، مستخدما فى ذلك كل النعرات العنصرية ضد العرب الساميين «ذوى البشرة البيضاء» وأطماعهم فى أفريقيا الزنجية .

ودعم من صدق وتحقق هذه المعلومات المتسمة بكل خطر ، ما بعثت إليه به مؤكدة حبيبته وزوجته «شامة» ملكة أفراح .

حتى إذا ما تراكمت مكاتباتها ومراسلاتها له من خطية وشفهية، حول جنون سيف أرعد وتحالفاته الخفية التى اتسع مداها حتى شملت وغطت غرب أفريقيا وجنوبها ، بدأ سيف التفكير فى معارك الحرب .

وهكذا وجد سيف بن ذى يزن نفسه محاصرا غير قادر على الحركة برغم تملكه لسلطاته كتبع لحمير وعرش اليمن ،وهو الذى لم يعتد من قبل على حياة القصور الوادعة الرخوة ، كمثل دمية فى يد أمه قمرية التى استأثرت بقرار الحرب والسلم ، مؤثرة احترام صكوك الهدنة مع الأحباش :

ـ وأين هى الهدنة مع سيف أرعد وأطماعه التى لا يحدها حد .

إلى أن تواترت الأخبار ، حول عبث ـ الأحباش . السرى من جديد فى النيل ومقاييسه، وخاصة ضد مصر وأفراح وأعالى السودان .

بل وضاعف من خطورة الأمر ، استقدام سيف لبعض حامياته فى بلاد النوبة والمغرب الكبير :

ـ لماذا !

وهو السؤال الذى طرحه على والدته قمرية مرارا دون أن تتزحزح ولو قيد أنملة عن قرارها مؤثرة السلم على الحروب وأهوالها .

إلى أن روع الملك سيف بن ذى يزن ، برسل زوجته شامة المحملين بتجدد الحرب بين الأحباش ومملكة أفراح ، وتلك الحشود الهائلة التى اجتاحت البلاد باتجاه العاصمة، وتصميم سيف أرعد على التخلص أولا ، وكما يقول ويذكر مستخفا : «التبلغ اولا ببلاد شامة أى أفراح » . وهو يعلم أنها زوجته .

هنا نفذ صبر الملك التبع سيف بن ذى يزن ، مقررا كسر قرار والدته ـ قمرية ـ والخروج من جديد لملاقاة الأحباش . حتى إذا ما أعادت والدته معارضتها احتدم الخلاف بينهما ، وانتهى بانقسام الجيش العربى ، وخروجه وحده بفيالقه غير المتكافئة مع جيش الحبشة ، لفك حصار أفراح والإفراج عن حبيبته وزوجته شامة التى لم تقدر له الاحداث المتوالية معاشرتها كبقية خلق الله ، إلى أن وقعت فى أسر سيف أرعد

ـ شامة . . حبى :

26

## سيف يفك حصار مدينة أفراح

اضطر سيف بن ذى يزن إلى مناوأة أمه قمرية والضرب بقرارها المستسلم ضد الأحباش والخروج عليه ، كما اضطر إلى إحداث ذلك الصدع أو الانقسام فى صفوف «جيش التباعنة » .

حيث آثرت فيالق الملكة الأم البقاء فى أحمرا ، امتثالا لقرارها بعدم إعلان الحرب ، مما أجبره على الخروج وحده بجيشه القليل العدد والعدة ، تجاه مملكة أفراح لتخليص أسر محاربتها التى عانت طويلا ، وهى زوجته وزميلة كفاحه وطفولته وصباه :

ـ شامة .

وهى ـ شامة ـ التى تفتحت عيناه عليها يلعبان ويلهوان ويدرسان معا ، حتى إذا ما شبا عن طوقهما . . على كراهية سيف أرعد ملك الحبشة لكل ما هو عربى وعبوديته للآخرين ، توقدحبهما على وهج المعارك المستعرة التى خاضاهاضده مما اضطر شامة ، وهى الفتاة أن تخرج على إرادة والدها ملك أفراح بالسير فى طريقه ، بل والانتماء بكاملها إليه إلى حد هروبها مع سيف إلى اليمن وجزيرة العرب ، ليعقد قرانه عليها رسميا بين الأهل والعشائر :ـ وها هى شامة ترزح وحدها فى قيود وأسر أرعد ، كان سيف بن ذى يزن ، يعتلى رأس جنده وألويته غاضبا عاقدا العزم منذ أن لفظته بوابات أحمرا على التوجه هو وجنوده إلى المشرق الأفريقى ، وهو لا يزال يلقى باللوم على نفسه لتردده

الطويل أمام رغبات أمه قمرية ـ التى عارضت الإسرع بالخروج لاستكمال المعارك السابقة الموءودة أو المجهضة ،عشية وضع الملكة ـ خاتم ملك التباعنة على اتفاقات الهند ـ الملفقة الأخيرة مع ملك الأحباش سيف أرعد قائلة :

ـ تكفى أرض هذه البلاد ما رشفته من دماء عربية ،لم يجف تقيحها بعد .

اندفع التبع الشاب ،ينهب الأرض بجبالها وأخاديدها وشلالاتها وبواديها وغاباتها المأهوله بقطعان الحيوانات والطيور وزواحف الأرض ما بين الآيائل البرية والضباع وأبناء آوى التى تعارف العرب على تسمية الواحد منها بأبى الحصين .

وكانت قطعان الحمير الوحشية والسناجب والقردة بأشكالها وفصائلها وممارستها عبر البرارى، بأحجامها المختلفة المنتصبة على قوائمها ،والتى تلفت النظر بأشكالها الغريبة وتصرفاتها العجيبة وهى تقتات من غريب الشجر والثمر والزهور البرية التى لا يحدها البصر ، بألوانها وتكويناتها من صفراء وحمراء وقرمزية وخضراء وسوداء وعسجدية . كشعر شامة المسترسل الأحمر.

وكان أكثر ما يثير مخيلة جنوده ،فيتندرون به عبر زحفهم ورؤياهم لمجتمعات القردة العملاقة التى يسمونها «بالغيلان » وكيف أنها كانت تشعل النار وتضرمها بالنفط فى حروبها وغاراتها الوحشية ،إلى درجة دفعت بسيف أرعد إلى ترويضها ومحالفتها وتدريبها والدفع بها كتائب إثر كتائب ضد العرب كمحاربين مرتزقة بلا هوية ،قد أضناها الجوع لتنهشهم وتأكلهم أكلا .

ـ شامة . . كيف لى أن أتخلى عنك .

واصل سيف اليزن زحفه متشحا أردية وبيارق التباعنة وتاجهم المتوارث ـ علنا ـ وعلى طول البلدان الأفريقية ،حتى تلك الموالية منها لمملكة ـ ويمكن القول امبراطورية ـ الحبشة وملكها المتسلط الذى أعماه التعصب ضد العرب سيف أرعد .

حتى إذا ما تسلل داخلا إلى أراضى أفراح الشاهقة واصل زحفه بجيشه باتجاه عاصمتها لفك الحصار عن شامة :

ـ لكم عانت طويلا معه عبر رحلة نضالها التى لم تترك لها متنفسا . . للعيش ولولفترة قصيرة لزوجين بعدما عاشا مرحلة الطفولة ووهج الشباب معا كصديقين متلازمين .

وشق سيف بن ذى يزن طريقه بحد السيف موقعا بقادة وأبطال الأحباش ، ميمنة وميسرة إلى حيث قصر شامة الشامخ المتعالى المحاط من جهاته الأربع بغابات الأشجار العملاقة المشتعلة كجهنم ذاتها من حوله وخلفه ومشرقه ومغربه التى كان يطلقها جيش الأحباش والغيلان .

ففك حصار القصر فى ذات اللحظة التى حرك فيها ـ أنصاره ـ حرب الأنهار التى يجيدها منذ الصغر . . فخفتت الحرائق لحظة عبوره كالبرق الخاطف إلى قصر شامة ، المفضى بدوره إلى السراديب والمخابىء المتناهية الصعود والهبوط والالتفاف . واستطاع بعد جهد الوصول إلى شامة التى اخذته بالأحضان وهى تصرخ بسرور :

ـ تأخرت . . سيف .

أشارت من فورها إلى الخارج عبر كوات السراديب المحكمة التحصين قائلة بتوتر : أنظر جهنم .

وهالها فى التو ما يحدث ،فلول الأحباش وهى تلقى أسلحتها فارة ومذعورة إثر قياداتها التى كانت تولى الأدبار بدورها عبر الأفق البعيد ، لتنجو بجلدها ـ الأسود ـ وقبل أى شىء من مجرد مقدم سيف بن ذى يزن ورجاله .

وشاع خبر وصوله مع رجاله على أفواه ومسامع الجميع فى تواتر جاء إيقاعه بمختلف اللغات واللهجات والنبرات :

ـ التبع المنتظر . . سيف

ـ تبع حمير الجديد العائد . . هيكل . . سيف

وفرحت شامة واحمرت وجنتاها فى براءة وتزاحم الجميع على الشرفات التى انتزعت «ستائرها وكل ساتر » لمشاهدة ذلك المشهد الذى ـ تذكر سيف أنه ـ تكرر مرة أمام عينى ـ أمه قمرية ـ ومع ذلك لم تهبه ثقتها بعد .

ـ الملكة لاتعرفنى .

ـ أمى . . من حبلت بى .

غمغم سيف بن ذى يزن لنفسه غائبا عن نفسه ذاتها ، وهو يشارك شامة وبقية حاميتها ما يحدث من ذعر وشتات لجيش الأحباش على طول البرارى ومتعرجات السهول الممتدة على مدى النظر ،وهى تنهب بأقدامها العارية الأرض نهبا صارخة فى فزع جماعى :

ـ التبع المائى .

ضاحكته شامة فرحة وهى تراقبه من تحت أهدابها متنفسة أخيرا الصعداء :

ـ نأخذ نفسنا . . لحظة الليلة !

ـ أحقا يا شامة . . أعذرينى يا حبيبتى . . فلعل فيها سمعتيه الكفاية .

وكان يعنى بهذا خلافه مع والدته . إلا أن شامة أخرجته من هواجسه جاذبة :

ـ ليس هناك أعذب من هذا .

اندفعت مشيرة بكل ذراعها المغطى بالدروع المصاغة من الذهب الإبريزى القانى الاحمرار:

ـ النصر .

ـ رد العدوان . . الظلم .

ولعل مساء ذلك اليوم المتأخر شهد حبهما نهايته السعيدة .

ـ الحرية .

وفى تلك الليلة حملت شامة من سيف بن ذى يزن . بالوريث الجديد لعرش التباعنة الذى لقب فيها بعد باسم اجداده السالفين :

ـ دمر . . أى المدمر لأعدائه ومؤنث الاسم هو «تدمر» وهى الملكة تدمر السابقة على بلقيس ملكة سبأ .

ولم يسترح سيف بن ذى يزن فى أحضان ودفء زوجته المحبة ـ شامة ـ طويلا، سرعان ما استجمع طاقات محاربيه، باتجاه سد الطرق والمنافذ على جيش الأحباش وقبل أن تستطلع فلولهم أثيوبيا عائدة مندحرة .

إلا ان سيف أرعد وجدها ـ باستشارة وزيره سقرديون ـ فرصة سائحة للعودة باتجاه عاصمة التباعنة ذاتها « أحمرا » خاصة وسيف اليزن بعيد عنها ، والملكة قمرية والدته قد أصبحت فى سنواتها الأخيرة منهكة إثر الحروب وأعمال الحصار التى نفذها سيف أرعد بها .

حتى إذا ما نفذ ملك الأحباش غايته ،وأوقع الحصار والخسائر بأحمرا مضرما نيرانه فى مدنها ومضاربها وقراها جن جنون الملكة فخرجت لملاقاته متعثرة . . بعدما شق عليها الاستنجاد بابنها ـ هيكل ـ خاصة بعدما تخلت عنه فى المرة السابقة ،بحجة أن الأحباش الذين «سعوا وحفوا وراء عقد الهدنة طويلا . . لن يخرقوها بسهولة هذه المرة » .

لكنها ندمت بعد فوات الأوان ، وبعدما استباحت جيوش الأحباش المدينة بخدعة هدفها مباغته الملكة وتدميرها حرقا وغرقا وحربا من كل صوب وفى آن واحد .

ورغم صمود قمرية بعد ما أعماها الغضب وأخرجها عن كل طور إلا أنها عانت الكثير فى حصارها المباغت ذاك .

ووصل بها الغضب والرغبة الدامية فى الانتقام إلى حد تحمل أقسى الويلات فوق كاهلها دون أن تجرؤ على الإرسال برسلها طالبة العون والمساندة من ابنها فلذة كبدها :

ـ لن يحدث . . لن أنحنى .

إلا أن سيف بن ذى يزن لم يطق صبرا عندما علم وتيقن بما حدث ، فاستجمع قواته مقرار التخلى عن شامة التى تحولت بهجتها إلى أسى وحرارة لافتقاد سيف زوجها من جديد ، من يدرى ما تخبئه الأيام والليالى الحبلى بكل عنف وانتقام بسبب ويلات عدوان الأحباش وحلفائهم التى لا تعرف مراعاة لهدنة أو اتفاق .

لذا قررت شامة مصاحبته بجهودها رغم أنها كانت تعانى من آلام الحمل الثقيلة التى آثرت إخفاءها عن زوجها .

هنا رفض سيف بإصرار مصاحبتها وكان يترقب على أحر من الجمر ما فى بطنها :

ـ دمر .

بل أصر على بقاء حاميتهم وبقايا فلول جيش أفراح ، الذى كان سيف أرعد قد أتى على معظمه ولم يبق من قادته البواسل ، سوى « الميمون » وهو أمير أفريقى أثبت عبر منازلاته وحربه ضد الأحباش بطولات أصبحت توقع الرعب بين صفوفهم ، وخاصة فى قلب سيف أرعد ملكهم ذاته الذى كان قد اصطحب معه فى حربه هذه ضد عاصمة االتباعنة ـ أحمرا ـ قائدين كبيرين بفيالقهما المحاربة أولهما ويدعى «ميهوب » واشتهر بلقب «سياس الثلاثى » ذلك لأنه كان يقطع رقاب ثلاثة من أعدائه بضربة واحدة من سيفه والقائد الثانى ويدعى «دمنهور الوحشى » .

لذا استعصى القتال طويلا على سيف بن ذى يزن ، واستمر حصار المدينة مطولا، مما أفزع والدته قمرية ، وأخرجها عن طورها مرارا ، مواصلة تنازلاتها لسيف أرعد والأحباش مما دفع بسيف بن ذى يزن إلى المبادرة بمكاتبتها مطالبا إياها مراعاته ومراعاة تواجده ـ تحت راياتها ـ وعدم التسرع فى اتخاذ قراراتها :

ـ المفردة . . المتسرعة .

أما شامة فقد أزعجها بدورها ما انتهى اليه سير المعارك وضراوتها فى أحمرا ، فأرسلت إليه بقائدها «الميمون »وفيالقه .

فما كان من سيف بن ذى يزن سوى التشدد فى مواجهة الأحباش وتحدى أبطالها منشداً :

أخوض بحر المنايا وهو معتكر

وأرمى قلوب العدا بالرعب والجزع

أعشق فى الشتا سوق المنايا

كذلك فى الربيع وفى الصيافى

ألا فاخبروا عنى الملوك لأننى

إذا ازدحموا فى الحرب يوم هياجها

فاثبت اليوم يا أمير لحربى

إن تكن جاهلا بضرب سهام .

وهكذا تحدى سيف بن ذى يزن القائد حلفاء الأحباش « سياس الثلاثى » ونازله بضعة ايام متتالية إلى أن اضعف ساعده ، وبدلا من أن يقطع رأسه حين تمكن منه ، أبقى عليه وأخذه أسيرا بفيالقه .

مما ضاعف من مخاوف الأحباش وملكهم أرعد فتشددوا عليه من كل جانب بينما هو - أى سيف - يواصل تحديه قائلا بأعلى صوت وهو يصول ويجول من فوق رؤوس الجبال :

- من عرفنى فقد اكتفى .

إلا أن سنحت له فرصة منازلة كبير قواد جيش الأحباش «دمنهور الوحشى » وفعل به كما فعل بالسابق . حين استحوذ عليه - وجنده - أسيرا بدلا من سفك دمه . .

ثم كر سيف بن ذى يزن عائدا منتصرا إلى أقوامه مجللا ومخضبا بالنصر ، كمثل أرجوانٍ أحمرَ قان .

بينما جن جنون سيف أرعد ووزيره الشرير سقرديون ، . وهما يشهدان سير المعارك من حول أحمرا ، ومدى ما أصبح يحرزه ذلك التبع الجديد من إضعاف لصفوفهم باستحواذه على حلفائهم - أى حلفاء الأحباش - ، حتى بدا الأمر أقرب إلى انفرط عقاله .

وهنا لم يجد ملك الأحباش سيف - أرعد - مخرجا سوى التراجع بجنوده منسحبا باتجاه الحبشة ، تخوفا من أحابيل سيف اليزن المباغته بالالتفاف من خلفه وسبقه بجيوشه إلى أثيوبيا .

إلا أن سيف بن ذى يزن بوغت بالأخبار التى حملها إليه تابعه «عيروض » عن ذلك المرض العضال الذى حط فجأة على كاهل أمه - قمرية - وألزمها الفراش طيلة الشهور

الأخيرة التى شهدت معاركه الطاحنة ، والذى آثر الجميع وعلى رأسهم الملكة ذاتها إخفاءه عنه .

ومن فوره هرع سيف بن ذى يزن فزعا متسللا سرا لزيارة أمه .

حتى إذا ما قارب فراشها منحنيا لاثما جبينها هاله ما وصلت إليه حالتها من تدهور شديد .

فتحت عينيها فى تثاقل محتضنة رأس ابنها مغمغمة :

ـ سيف . . ولدى . لم أفرح بك لحظة منذ مولدك .

كل أم . . هيكل .

اندفع هو منكبا لاثما وجهها وراحة يديها فى تلهف .

ـ أمى الحبيبة . . سندخل أثيوبيا جنبا إلى جنب قريبا ، لتعتلى أنت عرشها .

ابتسمت فى وهن ، وأسبلت عينيها كطفلة . . وغابت فى سباتها العميق لاقطة آخر أنفاسها على أصداء ذلك الحلم :

ـ متى . . ولدى سيف هيكل ؟!

# 27

## موت قمرية

حطت الأحزان الثقيلة على سيف بن ذى يزن عقب موت أمه ـ قمرية ـ الذى جاءه نبؤُها صادما مفاجئا ، وهوالذى لم تمكنه الأحداث والمعارك والعمليات العدائية ـ الحبشية ـ المتوالية بلا رحمة أو توقف من النشوء والعيش فى أحضانها واكتسب حنانها ومعرفتها عن قرب .

تملكته الأحزان العميقة ، إلى درجة لم تسمح له بتذوق عذوبة نصره الأخير على الأحباش وملكهم سيف أرعد الذين عادوا مهزومين منسحبين لمجرد إشاعته ـ أى سيف اليزن ـ لنبأ غير صحيح ، وهوأنه سيفاجئهم بين لحظة وأخرى بدخوله وجيشه أثيوبيا ذاتها .

وجرت مراسيم دفن الملكة الأم قمرية فى عجلة نظرا إلى ظروف الحرب إلى جانب زوجها التبع الراحل ذى اليزن حسب وصيتها هى ـ أى قمرية ـ :

ـ ادفنونى عند موضع قدميه

إلا أن تدفق الحياة بمرها وحلوها ، سرعان ما أعاد االبهجة إلى قلب التبع الشاب ، حين وصلته مكاتبات زوجته الحبيبة شامة ، وكان قد تخلى عنها ـ مجبرا ـ وهى حامل فى شهرها الثالث لكى يخوض معارك «عاصمة التباعنة » .

ـ دمر . . بكرى .

جاءته أخبار شامة مستبشرة ذات صباح مشرق تحمل إليه وضعها لمولودهما الأول :

ـ دمر .

فقرر من فوره القيام بزيارة ـ سرية ـ خاطفة لملكة أفراح ، لرؤية مولوده الجديد ، وشامة التى اشتاق إليها سيف بن ذى يزن زوجته ـ ملكة أفراح ـ شامة ، حين اندفع إليها منكبا مقبلا حاملا من فوره ابنه مستطلع اشامة ـ أو حسنة ـ التباعنة التى تعلو جبينه وأسر إليها قائلا :

ـ مرحبا بالتبع المنتظر . . دمر ولدى .

وضحكت شامة من شغاف قلبها وهى تنفض عنها أغطيتها ، هاشة لاستقباله :

ـ حرب . . حرب . أما من لحظة راحة . . حب .

مضيا يتأملان الغلام الوليد فى حب على ضوء الشموع العملاقة إلى أن أمسكت شامة بساعدى سيف وهى تهمس له بحنان قائلة :

ـ كنت سأجىء . كنت أحلم بلحظة لقائى بوالدتنا الراحلة ـ قمرية ـ لكن . .

ـ أعرف . . أعرف ياشامة يا حبيبتى .

واستقر سيف بن ذى يزن لفترة فى بلاد زوجته شامة ، معطيا بعض وقته لمولوده الجديد ، الذى دفع دفئا متدفق الحماس فيه ، وهو الذى تربى فى ربوع ومنافى هذه البلاد يتيما معوزا .

إلا عين سيف اليزن لم تغفل لحظة عن عاصمة التباعنة « أحمرا » ولا عن ربوع اليمن والجزيرة والقرن الأفريقى وبعض بلدان المغرب الكبير وديار مصر ـ العليا ـ التى كانت موالية للعرب والبيت اليمنى الحاكم آنذاك .

فكان دائم الترحال ما بين أفراح وأحمرا ، بعدما تمكن من تأمين الطريق بين العاصمتين ، فلم يعد بمقدور الأحباش قطع مسالكه وفرض نفوذهم كما كان فى السابق .

بل ورغم ذلك لم يتوان سيف بن ذى يزن عن استكمال توحيد فيالق وكتائب وألوية جيشه الجديد خاصة بعدما وافت المنية أمه ، تمهيدا للوثوب المباغث على أثيوبيا ذاتها .

ـ وحتى يهدأ البال . . باستئصال أصل الداء ومنبته . . أثوبيا .

وهو ما أصبح على يقين منه ملك الحبشة سيف أرعد ذاته ، وبالتحديد عقب سماعه لموت قمرية ، وتفرد ابنها ـ سيف بالقرار ، فضلا عن عامل اللاثقة والمخاوف السائدة بينهما ، أى بين سيف أرعد وسيف اليزن ، فكيف للذئب إذن أن يصفو للغنم، وهو فى نظر سيف أرعد :

ـ الإبن البكر . . لقمرية . . الأذية !

فلعل فرصة التبع الجديد سيف اليزن الآن أكثر اتساعا وبراحا من أى وقت وظرف مضيا .

غمغم سيف أرعد لنفسه وهو يراقب مياه البحر المتلاطمة فى الأفق أمام عينيه الخائبتين :

ـ لدخول تبع حمير أثيوبيا . . ليقطع رأسى .

وكما لو أن ملك الأحباش يستشف مستقبلا جليا واضح الرؤيا بقوله ذاك .

ذلك أن الطريق أصبح مفتوحا بالفعل أمام سيف بن ذى يزن لاقتحام عرش يهوذا . والانتقام من أرعد وريث ذلك العرش المعادى للعرب على الدوام .

ذلك أن وفدا من أهل مصر تصدرته أميرة مصرية باهرة الجمال تدعى «منية النفوس» زار التبع سيف بن ذى يزن ، وهم يشتكون له من معاملة ملك الحبشة لهم وعدم الإنصات لمطلبهم فى حصةماء النيل الذى منعه عنهم سيف أرعد ، تنكيلا وانتقاما منه لعدم مناصرته فى حربه ضد التباعنة .

وكانوا قد لجأوا إلى سيف اليزن ، لإنصافهم ومساندتهم ، خاصة وقد عمت شهرته الآفاق حول معرفته الواسعة وتحكمه فى مياه النيل ومجراه بدءا بمنابعه وحتى مصبه .

فما كان من سيف اليزن ، إلا أن قطع على نفسه أمامهم عهداًبالقضاء على أصل الداء وتخليص الجميع من سيف أرعد وشروره ، و إعادة المياه لهم ولجيرانهم السودانيين الذين كانوا قد جاءوه أيضا بخصوص هذا الشأن المحزن المؤلم الذى يستهدف نشر المجاعة والعطش :

ـ حياة الناس .

وهكذا أعد سيف اليزن عدته وجيشه الموحد ، وسار يطلب بلاد الحبشة إلى أن دخل أثيوبيا ، وأسر سيف أرعد وعزله منصبا بدلاً منه ابنه «مقلقل » الأصغر على عرش يهوذا .

وما أن استقر حكم التباعنة فى الحبشة حتى عاد الملك سيف إلى أحمرا التى خرجت وفودها لاستقباله وقد زينت المدينة كمثل عروس تلهج بالثناء والدعاء له .

وشارك وفد مصر باحتفالات انتصار التبع سيف بن ذي يزن على سيف أرعد وأسره ، كما شاركت «منية النفوس »الملك سيف حفلات نصره منبهرة لى أقصى حد .

وكانت قد راقت فى عينيه ،فآثر الزواج ـ السياسى ـ منها ، ليخلف منها ولده الذى أسماه تيمنا « مصر »

ـ فكانت أولى واجبات سيف بن ذى يزن ،إعادة تدفق ماء النيل شريان أفريقيا آمنا حتى مصبه الأخير بمصر العدية . مما أوصل شعبيته وحب الناس له والتفاهم حوله وتحت راياته إلى أقصى مداه .

وهكذا دخل الملك سيف مصر زائرا بصحبة زوجته الأميرة المصرية «منية النفوس » وابنهما «مصر » فاستقبل استقبال الفاتحين ، مما حدا به إلى الاستقرار فى ربوعها وبين أهاليها طويلا :

فزار إخميم وأسوان ـ وسدها الكبير ـ كما زار إسنا وأسيوط ومنفلوط وملوى ، وأقام طويلا بمدن مصر الوسطى ، فزار أهناسيا المدينة ،وحلوان والجيزة وقلعة الجبل والروضة وبولاق ،وحتى القرى الصغيرة والحوارى ـ مثل حارة بيت الوطاويط ـ التى لم تخل من ذاكرته .

وزار بلاد الشام التى رحبت به بدورها فاتحة له ذراعيها فنصب ابنه «دمر» من زوجته الأولى ـ شامة ـ على حكم الشام وفلسطين ، واتخذ ـ دمر ـ عاصمة حكمه بسورية العليا ، فى مدينة بانياس المتاخمة للاذقية .

وكان سيف بن ذى يزن ، كأبيه محبا للعزلة ، والانكباب على القراءة والعلم والكتابة ، خاصة فى مواضيع «الماء والتربة» وما يتبعهما من مشاريع عمرانية وزراعية من سدود ومصارف وخزانات هدفها الاخضرار والنمو .

كما كان الملك سيف كثير الأسفار والتنقلات التى يجريها فى سرية ، حيث كان يتنكر بأزياء الناس العاديين من فلاحين ونوتية وطلبة وعلماء وشعراء جوالين ، وساسة الخيول العربية ، وأطباء القرى وشيوخ القبائل والطهاة والمغربلين والمشعوذين ، ليتعرف أحوال الناس .

وكان يتقن تقمص شخصيات هذه المهن عن دراية ، بما يحقق له الوقوف على نبض الناس وقضاياهم ومشاكلهم ، والإسهام فيما بعد فى حلها عبر حكمه المتناهى على امتداد ربوع الجزيرة العربية والشام ومصر والسودان وعاصمة التباعنة أحمرا ، والعديد من البلاد الأفريقية ، إن لم تكن أفريقيا بكاملها ، عقب وضع يده على الحبشة ، وما كان يتبعها من الأقوام والكيانات والقبائل .

إلا أن كل هذه المهام وغيرها كانت تدفع به على الدوام إلى تحسس الأخطار وأعمال العدوان المبيتة ضده ، كتبع أو رمز عربى ، يستهدف أول ما يستهدف :

ـ العدل وخير الناس .

وكان الأخطار تجىء هذه المرة من الأناضول وآسيا الصغرى ومسبوتاميا أو ما بين الرافدين . ومن بلاد الفرس .

لذا ادعى الملك سيف عقب استتبابه فى حكم مصر والشام للمحيطين به أنه يعد العدة للعودة إلى اليمن وفلسطين :

ـ للبحث عن كنوز « الملك سليمان » .

وجدتنا « بلقيس ملكة سبأ » .

حتى إذا ما انقطعت أخباره ، فى آسيا والهند وبلاد الفرس التى دخلها سرا لاستطلاع النوايا المبيتة ضد مصر والعرب ، واصل غوصه فى متاهات الحياة الشعبية لبسطاء الناس .

ومن فوره لم يتوان عن الإرسال برسله إلى ولديه «دمر » بالشام و « مصر » بديار مصر ـ الذى ولى حكم مصر فى غيبته ـ آمرا إياهما بتجهيز حملة كبيرة طابعها الأعم «أن تكون بحرية» وحين عاد إلى مصر التى كان قد اتخذ منها عاصمة لملكه المترامى ، اصطحب جيشه ليحارب فى الهند وبلاد الفرس :

ـ إلى أن تمكن من قتل «الكسرى » الملقب «بصارخ البهلوان » مجهضا عدوانه المبيت ضد مصر والعرب من جانب الفرس وأكاسرتهم .

خاصة وقد سبق للفرس دخولهاأى مصر ـ عن طريق واحة سيوة بالخداع والمناورة وبقوا بها ردحا طويلا من الزمن .

وعاد سيف بن ذي يزن إلى مصر مظفرا فاستقبل استقبال الفاتحين من جانب فئات المصريين الذين قدموا من كل صوب للمشاركة فى احتفالات النصر على العدوان المبيت ضدهم من جانب الفرس .

ففى مصر العدية ارتفعت شعبية الملك سيف بن ذي يزن ، وهو الذى سبق أن أنقذهم من عدوهم المتجبر ملك الأحباش سيف أرعد ،قاطع ماء النيل وها هو يتصدى للغزاة الجدد من الفرس فيرحل إليهم بجيشه الكبير لينقل المعارك الطاحنة إلى ديارهم وحصونهم ويعود مظفرا بالنصر .

ـ أبو الأمصار .

حتى إذا ما انتهى سيف بن ذى يزن من تحييده للعدوان ـ الفارسى ـ المبيت ، عاوده صفاؤه فانكب على كتاب النيل ، مجريا أنهاره وسدوده وخزاناته فى كل أنحاء البلاد ، فى الدلتا والصعيد ومصر الوسطى . فعم الرخاء البلاد ،بعدما تزايد ارتفاع منسوب ماء النيل .

وتم التحكم فى تخزين وتصريف المياه بما يحقق الاخضرار والنمو .

ورغم ذلك لم يتوان سيف بن ذى يزن عن تقديم كل رعاية لجيشه الموحد ، الذى انتظم المصريون تحت لوائه جنبا إلى جنب مع عرب الجزيرة العربية ،والأفارقة والمغاربة، ومن هنا فقد أطلق عليه المصريون لقب :

ـ أبو الجيوش .

فكان يجرى تدريباته بجبل المقطم الذى عرف جزؤه الأعلى بجبل الجيوش نسبة الى الملك سيف وذلك تحسبا لأى عدوان قد يجى يوما من جانب الأحباش ، أو من جانب : الفرس خاصة الذين كانوا طوال حياته لا يأمن جانبهم وأطماعهم رغم انتصاره الأخير عليهم وقتله الكسرى الملقب بالبهلوان ، وتعيينه واليا عربيا على خراسان .

فكان الملك التبع سيف بن ذى يزن ، أول من فرض على المصريين نظام التجنيدالإجبارى ، وإعداد العدة لبناء جيش لا يقوم فى معظمه على المرتزقة بل على المصريين أنفسهم ، جنبا إلى جنب مع جيشه هو أى سيف ـ الذى أبقى على بعضه فى عاصمة التباعنة أحمرا ـ بأفريقيا .

وكان يحضر بنفسه تدريبات جيشه محاطا بكبار قادته ومستشاريه ،وأخصهم الأمير الأفريقى الذى أصبح مقربا منه ـ الميمون ـ ، والذى كان قد بعثت به زوجته ـ شامة ـ ليعضد من ساعده فى حروبه ضد الأحباش ، فيما بعد بالكثير من المهام الجسيمة ، ومنها حربه ألأخيرة فى خراسان ، حتى إن سيف بن ذى يزن امتدحه قائلا :

ـ الميمون هو ساعدى الضارب :

إلا أن الميمون عاد من تلك الحملة ضد الفرس جريحا ينزف من أثر إصابته البليغة من جراء منازلاته ومعاركه ضد«صارخ البهلوان » الفارسى ، مما أوغر صدر الملك سيف ضده إلى حد منازلته هو بنفسه فى خراسان ـ وقتله وفرض الجزية على قومه .

واستقدم الملك سيف لقائده المسجى ـ الميمون ـ أشهر حكماء وأطباء عصره من الشام والهند ومصر للإشراف على علاجه ، وكان لا يكف عن زياراته له رغم مهامه

الكثيرة ، خاصة بالنسبة إلى تلك الأحداث المستجدة التى اندلعت فى كثير من مناطق «موطن التباعنة » فى اليمن والجنوب العربى ، مطالبة بضرورة عودة تبع حمير للإقامة الدائمة باليمين ، وليس فى مصر أو أفريقيا .

وهى الفتنةالتى لجأ اليها الفرس ، وأضرموا لهيبها على طول مناطق اليمن والجنوب ، فى عدن وحضرموت و صنعاء وسبأ ، وذى رعين ، وحتى يثرب شمالا ، وذلك لكى يرغموا التبع على التخلى عن حكم مصر واتخاذه عاصمة جديدةللتباعنة ، بما يسهل عليهم ـ أعادة ـ حكمها .

مما دفع بسيف بن ذي يزن ، إلى إجراء أكثر من زيارة ـ سرية ـ إلى جزيرة العرب ، مبصرا بأخطار الفتنة الجديدةذاكرا ومشيرا إلى :

ـ الخطر على العرب وبلدانهم وأقوامهم واحد . . ولامهرب منه .

وأنهى زيارته للجزيرة العربية ، واعدا بعدم التخلى عن موطن التباعنة .

إلا أنه ما إن عاد الى مصر ، حتى صدمته الأُخبار الجديدة بانقضاء أجل قائده المقرب «الميمون » فى غيبته ، فبكاه طويلا .

ومن فوره أرسل برسله ليخبر زوجته ورفيقة صباه «شامة » بالنبأ الفادح ، خاصة وهو يعرف مدى تعلقها وتبجيلها لذلك القائد الأفريقى نصير العرب :

ـ الميمون . . الطيب الذكر ●

# 28

## الرحيل إلى مصر العدية

جاء موت القائد الأفريقى «الميمون » القريب من الملك سيف فاجعا له عقب زيارته لليمن والجنوب العربى لإخماد لهيب الفتنة التى نشرها الفرس فى ربوع جزيرة العرب مطالبين بتخلى التبع عن مصر والعودة ـ لعاصمته ـ موطن التباعنة فى اليمن ، بما ييسر لهم ـ أى الفرس المجوس ـ إعادة اجتياحها .

وكان أول ما تبادر إلى ذهن الملك سيف هو زوجته ورفيقة صباه وكفاحه «شامة » ومدى فداحة وثقل الخبر عليها حين تصلها مكاتيبه ورسله وهى التى كانت قد اتخذت من الميمون أبا وكبيرا لقادة جيشها ، عقب افتقادها لوالدها الذى صلبه «سيف أرعد » معلقا على أعلى أشجار أثيوبيا لتنهشه جوارح الطير وهو ما تحقق بالنسبة إلى شامة حين وصلها النبأ ، فشقت ثيابها حسرة ، واتشحت بأردية الحزن السوداء ، وتقبلت العزاء فى أميرها «الميمون »بقصرها ، وهى تعد العدة للسفر إلى ديار مصر العدية ، بعدما غلبها التشوق الجارف لرؤية الملك سيف والسؤال عن ابنهما البكر «دمر» وعزاء ورعاية أسرة «الميمون » .

حتى إذا ما حان صباح يوم الرحيل إلى مصر حسب رغبة الملك التبع سيف ، أرسل من فوره بسفينته البحرية الملأى بأخلص حرسه إلى أقرب موانى بلاد الحبشة لتقلع منها ـ بشامة ـ إلى مصرالعليا .

حتي إذا ما وصلت شامة بركبها ـ البري ـ من بلدها الى ذلك الميناء الحبشى وجدت

فى استقبالها «مقلقل» الأصغر ملك الأحباش الجديد الذى عينه الملك سيف اليزن عقب دخوله أثيوبيا ليخلف والده سيف أرعد الذى سبق أن قطع سيف بن ذى يزن عنقه بيمينه .

واستقبلته شامة ، وهو يجيئها جاثيا محملا بثمين هدايا «عرش يهوذا» من ذهب وجواهر ومال لها ولزوجها :

ـ ملكنا الحكيم الملك التبع . . أبوا لأمصار .

وتقبلت شامة هدايا ملك الحبشة ـ مقلقل الأصغر ـ شاردة مفكرة مسترجعة فى رأسها ومخيلتها أحداث تلك الرحلة السابقة الخطرة الطويلة ، بين بلادها ـ الموالية للعرب ، وبين الحبشة وملكها السابق ـ سيف أرعد ـ وكيف شاركت هى فى ذبح ابنه ـ مع سيف ـ داخل قلعة الجبل ليلة الاحتفال بعروس النيل التى كان مقدرا فيها ليلتها الاعتداء عليها وإغراقها فى مياه النيل حية لحيتانه البحرية وتماسيحه وأفراس مائه .

تذكرت شامة كل ذلك طيلة رحلتها النيلية وهى شاردةساهمة تتطلع عبر كوة سفينتها ، وهى تشهد وتنصت لطرقات مجاديف النوتية تضرب صفحة الماء الرصاصى اللون المطعمة بسياط فضية مبعثها ضوء القمر النصف المكتمل ، منغمة على أصواتهم وغنائهم الشجى الجماعى المشبع بالأحزان .

تذكرت أحداث ومتعرجات رحلتها مع سيف بن ذى يزن ، منذ أن تعودت على الاجتماع به مع مطلع شمس كل صباح بـ «الكتاب الملكى» يتيما وحيدامطاردا ، يعيش حياته حذرا متوقدا يقظا لكل شاردة وواردة قد ترد من جانب الأحباش المتملكين لهذه البلاد .

فياله من خطر محدق لامهرب من أظافره المشهرة أن تتربى وتنمو ويشتد ساعدك على أرض الأعداء :

ـ وعيونهم الراصدة ورماحهم المشهرة

على حد تعبير سيف الذى كان شبلا أيامها . وهكذا تذكرت شامة وهى تغادر

حدود وأطلال بلاد الحبشة التى دخلتها منذ فترة حاكمة ، كزوجة لسيف بن ذى يزن وأم بكره :

ـ دمر . .

حاكم سوريا العليا ـ أو بلاد أشوريا ـ من قبل الملك سيف الذى غلبها الحنين لرؤيتهما معا كما فى السابق ، حيث كانت تطغى ضحكاتهما معا الصافية المبددة لمعاناة رحلة حبهما وكفاحهما ، وكذا المصائد التى وقعا فيها معا ، منذ آثرا الكفاح لتخليص بلادهما من عبودية سيف أرعد :

ـ مبتكر حروب العطش والمجاعة :

ـ كانت أيام !

زفرت شامة وهى تشرف ـ بذهبيتها ـ المحاطة بزوارق ومركبات الجند ، على أهرامات مصر وهى تسد الأفق :

ـ أرض مصر .

ياله من حلم كثيرا ما استغرقها ـ مع سيف أياما وليالى وهما يحلمان معا بأن يتخذ ـ يوما ـ من أرض مصر العدية موطنا وموطئا لحكم بقية الأمصار » ـ ياله من حلم ساخر.

انتبهت شامة فجأة مستطلعة :

ـ ها هى أشرعة سفن الملك التبع سيف بن ذى يزن ، تشق فضاء النيل .

وكان تقدم أسطول الملك يثير رهبة محببة تسرى عدواها فى كيان شامة كله كلما اقترب موكب الملك النهرى أكثر فأكثر .

كان التبع قد أقبل فى موكبه النيلى لا ستقبال حبه ومطلع صباه :

ـ شامة . . حبى . . هنا فى ربوع مصر .

عانقها طويلا وهو يغفو مستريحا على كتفها كمثل مخلوق بشرى يعانى إرهاقا يؤججه الجلَدُ ثقيلُ الاعباء .

ـ اشتقت اليك طويلا طويلا يا شامة .

أشار اليها بذراعه محتضنا مسرا :

ـ هاهى مصر العدية تهفو لاستقبالك .

هاهى حلمنا القديم معا .

تطلعت منبهرة من ضخامة المبانى والمنشآت المحيطة بالنيل الذى تحف به الزهور البرية النضرة وسط ذلك الإشراق الكبير الذى يطبع قطاعات الحياة فى موطن الأسلاف الفراعنة :

ـ أطال الله بقاءك وأمجادك . . فأنت زوجى وأبى بعد الأمير الميمون .

وحين رست سفينتها على مربض أحد القصور المشرفة المتعالية البنيان والروعة ، أنزلها الملك سيف آخذا بيدها على مشهد من أمراء مصر وشيوخها وكبرائها الذين قدموا من كل صوب لاستقبال الملكة محملين بالزهور وسنابل القمح وثمين الهدايا والفنون الباهرة التى اشتهرت وعرفت بها مصر فى العالمين .

خاطبها الملك سيف قائلامرحبا :

ـ أهلا بك فى بلدك وقصرك ياشامة .

حتى اذا ما انتهت مراسيم واحتفالات الاستقبال والتعارف التى أقيمت لها ، تذكرت من فورها خطتها التى جاءت بها ، والتى لازمتها كحلم عذب طوال الفترة السابقة . وهو أن ـ تستفرد ـ بالملك سيف عبر رحلة إلى بلاد الشام لزيارة ابنهما . . فعاجلته :

ـ ألم يتملكك الحنين لرؤية ولدنا دمر بعد طوال غياب ؟

هنا زفر الملك ، وكأنه يتخفف من أعبائه :

ـ أجل يا شامة . . قريبا سننشد الرحال معا إلى بانياس لنعرج بعدها معا إلى زيارة «البيت الحرام» ويثرب .

ضاحكها وهما يتحدثان متسامرين فى آخر الليل :

ـ أقصد صفى أبى العجـ ز . . يثرب .

وبالفعل عجل الملك سيف بإنهاء واجباته بمصر ، وأهمها بالطبع مواصلة تدريباته لجيشه بجبله ـ الذى يحمل اسمه إلى اليوم ـ «الجيوشى » ، وكان قد ترامت إليه الأخبار عن الحملة الانتقامية التى يقوم الفرس بإعدادها لغزو مصر من جديد .

لذا آثر الملك سيف إجراء مراسيم زيارته لسورية العليا وبانياس سرا ودون أن تصل تفاصيلها إلى أقرب مقربيه .

إلا أن خطته لم يقدر لها النجاح هذه المرة ، فما أن انتهت على عجل زيارته مع شامة ـ لبكريها ـ دمر ، وعرجا إلى مكة المكرمة ويثرب ، حتى نزلت عليه الأخبار نزول الصواعق :

ـ ملك الفرس ينزل على الأهرام بجيشه الجرار فى غيبة عن التبع سيف بن ذى يزن .

وهكذا أسرع الملك سيف عائدا إلى عاصمته إلا أنه وقع فى أسرأحد أمراء الفرس واسمه «بلامه» . ولقبه «الهدهاد » .

هنا حلت الكوارث الثقيلة من جديد على ديار مصر والشام معا .

إلا أن بصيص الأمل جاء هذه المرة من جانب «شامة» التى استطاعت الإفلات من كمين «بلامة الفارسى » وخلعت من فورها لباس الملكة الأم . مرتدية عدة حربها ، مجمعة مع ابنها دمر نواة جيش استقدمت معظمه من بلادها ومن جيش دمر ـ السورى ونجحت فى اقتحام مخبأ الملك سيف وفك أسره ، وهو على شفا الصلب المحقق على أيدى الفرس فقتل الملك سيف بلامه الفارسى ، وواصل تجميع جيشه من اليمن ويثرب وأفريقيا متخذا طريقه الى مصر لفرض الحصار على الفرس الغزاه عابرا النيل ، مواصلا تقدمه إلى أن واجههم موقعا الذعر فى صفوفهم حتى واحةسيوة وبرزخ السويس .

وكان الإرهاق الواضح القسمات قد استبد بجسد الملك سيف ، عشية تنفسه

الصعداء بعد الانتهاء من مطاردة آخر فلول الفرس عن مصر ،نتيجة لما عاناه حين وقوعه فى أسرهم الغادر ولضراوة المعارك التى خاضها ضدهم على طول مصر الوسطى والدلتا ،رغم عدم التكافؤ بين نواة جيشه الذى جمعه على عجل ،وبين جيشه الحقيقى بجبل الجيوشى .

حتى إذا ماعاد إلى حصونه تدافعت فيالق وكتائب زوجته «شامة » التى استطاعت استجلابها من بلدها وبقية البلدان والأقوام الموالية فى أفريقيا . . واليمن .

مما عضد من ساعد الملك سيف ،الذى كر راجعا باتجاه «مسبوتاميا» أو«بلاد الرافدين » مطاردا وموقعا الهزائم فى صفوف الفرس إلى أن دخل « المدائن» أو « السبع مدائن»بعدما طال حصاره لها فترة من الزمن .

ويبعث من فوره برسله لإحضار زوجته شامة وابنه دمر من بانياس ،اللذين شاركاه احتفالات النصر التى عمت المدائن عقب صك الملك سيف ،لشروط الصلح التى تتيح له حكم تلك المدن الفارسية «السبع » وما يتبعها .

ومرة أخرى وصل الانبهار بشامة لحظة مشاركة الملك اعتلاء عرش الأكاسرة الفرس على مشهد الجموع المتلاطمة التى قدمت من كل صوب لتقديم فروض الطاعة للملك التبع سيف بن ذى يزن .

هى لحظة لن تغيب أصداؤها عن مخيلة شامة ما حببت .

ـ أجل ما حييت فى هذا الجسد .

إلا أن الملك سيف وكما لو كان يقرأ أعماقها حين استطلع ذلك البريق الخاطف فى عينيها السوداوين الباهرتين ، «فبادرها مسرا مكرما مقدار مساعدتها له وفك أسره ومواصلة الحرب »:

ـ إنه نصرك أنت يا شامة . فلولا دأبك وجسارتك . . لكنت الآن ـ

انتفضت شامة فى وقفتها إلى جانبه على مشهد من الجموع ،وقد أدركت غرضه الأخير . . أى بانقاذها له من أسره ، ثم مؤازرته بكتائب جندها ،التى شددت من ساعده فى تعقب فيالق الفرس الفارين الغزاةحتى هنا :

ـ للقضاء على منبت الداء .

وطال حكم الملك سيف للمدائن ، حتى بعد عودة شامة إلى بلادها ، وابنهما ـ دمر ـ إلى موطنه بسورية العليا «بانياس» فقاد سلسلة من الحروب ـ الوقائية ـ فى كثير من عواصم «الشعوب الفارسية» والهند ، متوغلا باتجاه أواسط آسيا على عادة أسلافه التباعنة .

وكان كلما استغرقة الحنين الجارف إلى رفيقة صباه وحبه وموضع سره ومكنونه «شامة» بعث فى طلبها ، لتشاركه انتصاراته الجديدة ، ولتشاركه أيضا المشورة فيما يستخدم من أمور ، سواء فى مصر أو الحبشة أو السودان أو اليمن أو سورية العليا .

أما شامة فكانت على دراية بأهداف الملك التبع ، الذى لايبغى حربا وتملكا ، بقدر ما يرغب فى صد العدوان إثر العدوان ، خاصة دسائس الفرس الطامعين وأساليب غدرهم التى تعتمد أول ما تعتمد على عنصر المباغتة ، كما حدث فى تلك الحملة الأخيرة التى باغتتهما معا إثر زيارتهما السرية لولدهما فى بانياس والعروج بعدها إلى يثرب .

من هنا استبد التوجس بالملك سيف إلى حد دفع به إلى التوغل حتى أصفهان كمن يدفع عن بنيه وقومه شرا وعدونا مبيتا ، سرعان ما باغتاه من جديد ، حين حملت له الأخبار التى جمعها عيونه وبصاصوه وصول ملك فارسى آخر يدعى «جهينة» ويلقب أيضا بـ «الهدهاد» إلى نيل مصر ، فى غيبته ، للقضاء أولا وقبل كل شىء على جيشه وعتاده بجبل الجيوشى كما حدث فى الحملة السابقة .

ووقع الخبر ثقيلا منهكا على الملك سيف حتى إذا ما استشار فيه زوجته شامة ، أشارت من فورها بالعودة إلى أرض مصر للتخلص من ذلك الشر المبيت من جانب الفرس .

سألها شاردًا غائبا عن كل ما يحيط بها :

ـ كيف ؟ ثم استفاض شارحا الموقف لشامة :

ـ والطريق البحرى إلى مصر ، أصبح مقطوعا بعدما نجح الفرس فى التسلل من خلف ظهرينا ، ضاربين بشروط الهدنة الأخيرة عرض الحائط .

قاربته شامة فى حنوها مهدئة :

ـ التسلل . . لعله المنفذ الوحيد الآن .

غمغم ذو اليزن :

ـ أجل . .

أردف معدا العدة للرحيل والعودة ـ سرا ـ إلى مصر :

ـ مكاننا هناك مع الناس . . الأهل !

# 29

## سيف يتوغل فى أصفهان

هكذا وقع خبر اجتياح أحد ملوك أو أمراء الفرس ويدعي «جهينة »ولقبه «الهدهاد» لمصر ،على الملك التبع سيف بن ذى يزن ،صادما مفاجئا له ، بعد ما توغل فى أصفهان بجيشه العربى .

وفى مثل هذه الأمور واالمعضلات المصيرية ،لم يكن التبع سيف اليزن يجد معينا وناصحا له ، سوى زوجته «شامة» التى أشارت عليه بالعودة بحراً إلى مصر عبر ساحل الشام مرورا ببانياس وذلك لمعاونة ابنها ـ دمر ـ فى صد العدوان الفارسى .

حتى إذا مارست سفنهم ومراكبهم بميناء اللاذقية، استولت على الملك سيف من فوره أنباء المعارك االضارية التي يجريها الفرس فى الشام ولبنان وفلسطين وحتي دلتا مصر، بعدما سنحت لهم الفرصة فى غيبته لدخول معظم «هذه الأمصار ». وتزايد تقديره لإحدى الأميرات العربيات التى أوْقعت خسائر جسمية ملفتة بحملة الفرس الغزاة الطامعين ، واسمها «سعيدة بنت الملك الأحمر » فى محاولة منها لعرقلة تقدمهم فى غيبته .

حتى إذا ما أرسل الملك سيف برسله إلى بانياس للوقوف على أخبار ابنه دمر، وعادت الرسل بلا جواب شاف ، مما ازعج ـ أمه ـ شامة ، التى تملكها التساؤل المفزع عن مصير ولدها وما حل به ،صرخت في فزع :

ـ ابنى . . وحيدى . . دمر .

إلا ان الأخبار المتضاربة التى وصلتها من أفواه رسلها أجمعت على انقطاع أخبار الأمير دمر ، منذ خروجه بحملته وكتائبه مطارداً الجيش الفارسى الغازى . فلم يعد يعلم أحد شيئا عنه ، وما إذا كان لا يزال حيا يرزق ، أم أنه وقع أسيرا بأيدى الفرس ، بما يرجح قتله استنادا إلى بعض المصادر .

هنا وقعت شامة ـ الأم ـ فريسة لمخاوفها وأحزانها على ابنها الوحيد ، وما انتهى إليه مصيره الغامض وسط لهيب الحرب الهمجية المستعرة التى أرادها الفرس هذه المرة أن تكون حاسمة محققة لأغراضهم فى إعادة التسلط على جميع هذه البلاد والأقوام ، توغلا حتى داخل أفريقيا ذاتها . ولقدحاول الملك سيف تهدئة شامة وتبصيرها بالخطر المحدق بالجميع من جانب الفرس وعدوانهم قائلا :

ـ فدمر مثله مثل كل أبنائى القتلى فى الشام واليمن ومصر .

وهنا اقتادت المخاوف شامة إلى حد التشكك فى مقولة الملك ذاته مرددة لنفسها :

ـ كل أبنائى . . القتلى ». إذن فهو قد قتل والملك يخفى عنى مصيره !

ولم تهدأ مشاعر ـ الأم ـ شامة الا عندما استحضر الملك سيف فى حضرتها أخلص رسله وبصاصيه وأرسل بهم إلى كل البقع والأماكن التي يجرى على أرضها قتال ضد الفرس ، لمعرفة ـ وقبل أي شىء ـ مصير الأمير دمر ،والعودة بالخبر اليقين فى أسرع وقت ممكن .

حتى إذا ما عادت وفود الرسل من جديد دون جواب أو معلومة عن مصيره ، اختنقت شامة بدموعها :

ـ ولدى . . لم أفرح بك كأى أم بوحيدها .

وما أن أشرفت سفن الملك سيف على ميناء دمياط وتسلل جنده الى أرض مصر، حتى استحالت أحزان الأم شامة إلى بطولات لهجت بها الألسن ، وهى تطارد بفيالقها ـ الأفريقية ـ فلول الفرس الغزاة باتجاه الصحراء بينما تكفل الملك سيف بمنازلة ومطاردة جيش ـ الهدهاد ـ ذاته . إلى ان أوقع معظمه فى أسره ، وفر الباقون .

ودخل الملك سيف بجنده عاصمته ـ مصر ـ دخول الأبطال مخضبا بالدم الأحمر النازف . . كالأرجوان، ولحقت به زوجته ـ المحاربة ـ شامة . ومن جديد أقيمت الأفراح وعلقت الزينات وصدحت الموسيقى بأغانى النصر والتحرير للملك التبع العائد المنتصر .

أما شامة فما أن خلعت عنها عدة حربها ، حتى تجددت على الفور أحزانها حول مصير ابنها دمر وأخباره التى ظلت كما هى غامضة متضاربة ،وإن كان المرجح هو وقوعه ـ أى دمر ـ فى أسر ذلك الملك الفارسى ـ الهدهاد ـ الذى عاد به ـ مقيدا ـ إلى «ما وراء نهر بلخ» مما أوغر صدر الملك سيف ، وأبدل أفراح النصر إلى أحزان ،فلم يهدأ له بال ، إلا وهو يعد العدة من جديد للعودة إلى مدنه السبع ـ أو المدائن ـ ببلاد الفرس للانطلاق منها ومواصلة القتال لتحرير ولده الأسير ،واستئصال الداء من جذوره على حد كبير .

وطالت حروب الملك سيف بتلك البلاد أو الآفاق ، دون أن يشفى غليله بوضع يده على ابنه الأسير لبعث الطمأنينة فى أمه شامة ، التى أصيبت فى سنواتها الأخيرة واتشحت بأردية الحزن السوداء دون أن تكف لحظة عن مفارقة ملابس وممتلكات ولدها دمر ، تشمها وتتحسها باكية مولولة الليل بطوله :

ـ يامين يعملنى ـ يادمر ـ فى قبرك سحلية .

أمسح جبينك يا ولدى فى كل صبحية .

حتى إذا ما شاهدها الملك فى أحزانها تلك جاشت من جديد أحزانه ورغبته فى الثأر والانتقام مطيلا أمد الحرب ، محاصرا المدن الفارسية . . لكن دون طائل .

وكان من عادات حرب الملك سيف ، حينما يقرر لجيوشه اجتياح مدينة أو حصن أن يبعث كتيبة من جنده لتحرير ما تكتظ به سجونها ومنافيها من أسرى ومسلحين وقطاع طرق وخارجين على القانون .

فكان الملك يجمعهم ويخطب فيهم ويعيد تأهيلهم وتدريبهم على طرق وأساليب

الحرب والقتال التى اشتهرت عنه ، ثم يغدق عليهم العطاء ويلحقهم بجنده . . قائلا :

ـ أخلص أبنائى . . الأشقياء . أما شامة فكانت بدورها تروح تتفرس وجوه أولئك الأسرى ـ والأشقياء ـ فلعلها تستطلع وجه ولدها ـ البكرى ـ «دمر» بينهم . . دون طائل :

ـ ولدى . . وحيدى . . أين ؟!

إلى أن استسلمت فى النهاية لعميق أحزانها فحلت عليها ـ السقوم ـ وضعف بصرها ، ورغم ذلك ظلت تقاوم رغبة الملك سيف فى ترحيلها عن مصر إلى بلادها ولو للراحة والعلاج .

ذلك أنها أصبحت أيضا تكره الحرب وتوالى أنباء المعارك وسيول الدم النازف الذى تربت وشبت عليه :

ـ دم . . دم . . ولا مهرب من أكوام الجثث العفنة والمدن المشتعلة بالنيران والخراب . . لامهرب أو مغيث فى هذا العالم الوحشى المظلم » .

حتى إذا ما حاول الملك التحايل عليها بإبعادها عن ساحات المعارك ، رفضت باكية معاودة ندبها ونحيبها وبكائياتها الذاتية :

ـ وولدى . . أأترك ولدى . . حدقة عينى !

متشبثة باكية بأطراف أردية الملك سيف ذاته الذى يروح من فوره يحنو عليها محتضنها ، محاولا تبصيرها بقوانين ـ تلك الغابة ـ التى لا مكان فيها لكائن وادع أو مستسلم فها أصدق التباعنة القائلين :

ـ أيها الرجال إنكم إن لم تحاربوا الناس حاربوكم . . وان لم تسبوهم سبوكم .

كان يضغط على رأسها بين ساعديه معيداً إليها السكينة ، مسرا بصوته الهادىء :

ـ ولعلك يا شامة ، شهدت بنفسك أحداث حربين عدوانيتين على بلادنا . . من جانب الأحباش مرة ، ومن جانب أولئك الفرس الطغاة الطامعين . . ثانية .

وكثيرا ما يصل الإجهاد بالملك سيف ذاته إلى حد تأمل كفى يديه فى تساؤل كظيم ـ ماذا أفعل . . دلونى !

عندئذ تتعرف شامة على ما يعتمل فى أعماق الملك الذى كتب عليه القتال والمطاردة منذ صباه . . بل طفولته اليتيمة فى بلادها .

فتبادره مواصلة تصميمها :

ـ أبدا . . لن أتخلى عنك هنا . .

إلا أن المهام الجسيمة التى تطلبتها الحرب داخل بلاد الفرس وفيما وراء نهر بلخ، دفعت بالملك سيف إلى التخلى عن شامة موكلا حراستها والسهر على راحتها لأقرب مستشاريه وحراسه .

وكانت كلما تشعبت معارك وحروب الملك التبع سيف بن ذى يزن ،كلما تدهورت أكثر فأكثر حالة شامة الصحية والعقلية معا، مما كان يضاعف من أحزان الملك ومخاوفه عليها ، وهو بعيد عنها منشغل بكامله فى حروبه فى بلاد الفرس التى كثيرا ما تبدت له عاتية لاأول لها ولا نهاية .

ـ كمثل قدر أسود .

لذا رأى الملك أنه من الأسلم ترحيل شامة والعودة بها الى ديار مصر، طالما أن الفرقة بينه وبينها أصبحت واقعاً ماثلا لا مهرب منه إلى حد استحالة التخلى عن مهامه والعودة إلى زيارتها ولو سرا وبشكل سريع خاطف ،

حتى إذا ما شارفت جيوشه ذات مساء حدود أصفهان قرر تجميد حصاره والتسلل سرا إلى حيث توجد شامة ـ بالمدائن ـ فزارها ليلا ، وهى فى فراشها مريضة تلهج باسم ابنها ومصيره الغامض .

ـ دمر . . ولدى . . قتلوه . . أعلم لا تخفوا عنى شيئا . . ولدى !

وهكذا لم يجد الملك سيف مفرا من ضرورة ترحيلها والعودة بها إلى مصر للراحة والعلاج .

فرتب بنفسه رحلة عودتها ـ البحرية ـ إلى مصر مشددا على أقصى درجات الأمن المرافق لها ، تخوفا من اختطافها وهى على تلك الحال من الإعياء والهذيان والمرض. حتى إذا ما تحرك ركبها ودعها الملك سيف متذكرا ما سبق أن أسدته تلك السيدة من بطولات أصبحت فى عداد الخوارق ، حفاظا عليه من كل كبوة وواقعة ، مغامرة ومضحية بأبيها ومملكتها وكل طاقتها من أجله ، زافرا وهو يودعها فى أسى :

ـ حقا فمثلك نادر بين النساء يا شامة . . تصحبك السلامة يا حبيبة القلب مدى الحياة .

وعاد متسائلا إلى جبهة قتاله الضارى على تخوم أسوار أصفهان :

ـ ترى متى نلتقى ثانية ؟

وجدت أحداث مغايرة من جانب ابن ملك أصفهان ـ بهرام ـ بعدما تشدد الملك سيف فى حصار بلاده ، فأرسل إليه الأول طالبا الصلح والهدنة على ألا يعود ـ عماله ـ المعينون من قبله على أقاليم وكيانات بلاد الفرس إلى مهاجمة مصر مرة أخرى ، ومهما تعددت الأسباب .

وطالت المراسلات والمفاوضات بين الملك سيف وابن الملك بهرام إلى أن تقبل الملك سيف شروط الهدنة . وعلى رأسها إطلاق سراح ابنه ـ دمر الأسير .

حتى إذا ما تحقق اللقاء بينه وبين ابن ملك ـ ملوك ـ الفرس بهرام ، أقسم له الأخير بشرفه ولحيته بعدم معرفته بمصير ابنه وما إذا كان مختطفاأو مقتولا، وأنه فعل المستحيل فى هذا الصدد دون طائل .

ودخل الملك سيف بن ذى يزن ، عاصمة بلاد الفرس ـ أصفهان ـ فى ذلك الوقت ، وكانت عروس مدن الشرق التى هبت عن بكرة أبيها لاستقباله فسبقته شهرته التى عمت الآفاق .

وأقام بهرام حفلة كبيرة لتكريم بن ذى اليزن ، قدم له فيها ابنته ـ مهردكار ـ وكانت بادرة الجمال متوقدة الذكاء ، فلم يجد الملك سيف مهربا من تقبلها كزوجة وفقاً للظروف

والشروط التى كانت تملى الزواج السياسى ، والذى كان من أهدافه . بناء جسور الثقة بين المتحاربين .

وجرت احتفالات الزواج ، والملك سيف نهبا لخواطره وأحزانه حول مصير ابنه دمر ، وتلك الأمراض التى حلت بزوجته ورفيقة صباه وجهاده « شامة » نتيجة أحزانها الجارفة وما انتهى إليه أمرها .

أما زوجته الجديدة ـ مهردكار ـ ابنة بهرام . فقد حاولت جاهدة منذ انتقالها إلى قصر الملك سيف ، التقرب منه وملاطفته لإخراجه من أحزانه وهواجسه ، دون أن تحقق ظفرا يذكر برغم جمالها المتوقد الطاغى ، وبرغم معرفتها الواسعة بتاريخ التباعنة ، بل وبلغة العرب القدماء وأشعارهم ومآثرهم .

وكانت ثقافتها هذه نتيجة لدراسها ـ المنظمة ـ العليا للعربية وآدابها ولهجاتها ، وخاصة اللغة السبئية ، لغة حضرموت التى نشرها الملوك اليمنيون ـ المعروفون بالملوك السكاسك فى الحبشة وغرب أفريقيا . وهى بذاتها اللغة أو اللهجة التى يمارسها نطقا وكتابة الملك سيف .

فكانت مهردكار تبعث إليه بين وقت وآخر ببضعة أبيات من أشعارها أو كتاباتها وخواطرها مدونة باللغة السبئية ومزينة بالرسوم والأشكال والزخارف الفارسية ـ المنتور ـ لعل الملك يلاحظ مابها من تأجج إليه .

إلا أن أحزان الملك سيف التى أغرقته من كل جانب نتيجة لما حل بابنه دمر من حبيبة صباه المبكر شامة ، وما انتهى اليه أمرها ، من تدهور سريع لصحتها الجسدية والعقلية ، أنسته كل شىء . خاصة ما وصل إلى سمعه عن آخر أخبارها وهى تتنقل ما بين مصر وبلادها ـ أفراح ـ المتاخمة لحدود الحبشة . . ثم بانياس ، دون أن تغفل لحظة عن البحث عن ابنها المفقود ـ دمر ـ ومصيره ذاك المبهم الغامض :

أين . . ولدى . . أين ؟

ولقد حاولت مهردكار بنفسها فى أُكثر من مساء مفاتحة الملك عن أحزانه تلك ، فى محاولة منها لاستشفاف مكنون أمره وأغواره الدفينة ، وهل هذا الحزن الثقيل بسبب

افتقاده لابنه ، أم بسبب تدهور حالة زوجته ـ شامة ـ وما أصابها من خبل يصل إلى حد الجنون المطلق .

إلا أن الملك التبع سيف كان يرمقها عبر صمته العميق وجرحه البليغ ، مكتفيا بالتحديق طويلا فى عينيها الباهرتين المشعتين بذكاء الشباب ونزقه وتوقده ، دون الإفصاح عن جواب شاف لتساؤلاتها وهى أرفع نساء الفرس شأنا .

مما دفع بأبيها ذاته الذى أصبح فيما بعد ـ الكسرى بهرام ـ إلى استدعائها مساء للزيارة وفاتحها فى الأمر :

ـ ألم يعرك بعلك . . ثم التبع اهتماما يذكر . . بعد يا مهردكار ؟

أشار إليها والدها بهرام ، فتقدمت جاثية عند مخدعه . . ثم أطبق بيديه الاثنتين على عنقها صارخاً : ما أنت سوى وصيفة

ثم استطرد مهدداً متوعداً :

ـ سألقى بهذا العنق الأرقط إلى النيران . . إلى النيران . . هل تسمعين ؟!

# 30

## اغتيال الملك سيف بأحراش الدلتا

ما إن عادت الأميرة مهردكار ، من تلك الزيارة العاصفة ، التى قلبت كيانها كله رأسا على عقب ، لقصر والدها الملك بهرام ، حين استدعاها ذات مساء ليسألها عن احوالها وما انتهت اليه أمورها بعد زواجها من الملك التبع سيف بن ذى يزن ، حتى فوجئت مهردكار بعاصفة أشد تأججا داخل قصر زوجها الملك سيف .

ـ الملك سيف قرر العودة إلى ديار مصر .

توقفت مهردكار وهى تصعد سلالم القصر ـ التاريخى ـ أو القلعة الرخامية التى اتخذها الملك سيف مقرا لحكمة والتى فرشت بفاخر الطنافس الفارسية .

مضت متطلعة فى رهبة لما يجرى على طول ساحات القصر الذى استحال إلى خلية نحل هائلة نتيجة لحركة الحراس وجند التبع والحجاب والوزراء والوصيفات، وهدير المركبات المحملة بنفيس الكنوز والعروش التى سباها الملك سيف .

وكان يقطع كل هذا صهيل قطعان الجياد ونداءات «الناضورجية » والبحارة على ظهر السفن والمراكب .

تطلعت ببصرها باتجاه شرفات جناحها الملاصق لجناح الملك إلى أن طالعها وجهه المشع حضورا . وكان يمعن النظر فى عينيها الذابلتين المنكسرتين بعد لقائها بأبيها بهرام وما جرى من حديث قاس .

وتمنت حين احتوتها غرفتها ، وبعدما ألقت بنفسها دامعة العينين على مخدعها البديع المخملى القانى الاحمرار،لو أنها لم تذهب لملاقاة والدها - بهرام - الليلة ومدى المذلة التى عاملها بها :

- ما أنت سوى وصيفة فى ركب التبع .

ثم تهديده لها بالحرق .

استدرات مهردكار فجأة جالسة متطلعة وهى فى منتصف فراشها ، على صوت دخول الملك سيف استعدادا للرقاد . ثم بادرها قائلا وعلى ثغره ابتسامة عريضة :

- نرحل غداً يا مهردكار . . إلى ديار مصر .

احتضنته فرحة من كل قلبها :

- أحقا . . مصر . حلمى القديم .

أجلسته إلى جانبها وهى تلاطفه .

- هل سأمخر عباب النيل إلى جانبك يوماً . . يا مليكى الجميل ؟

ولما كان الملك سيف لا يزال يعانى من أحزانه بسبب اختفاء ابنه وخبل زوجته شامة ، فقد آثر الاستئذان من مهردكار عائدا من حيث أتى بحجة استكمال مستلزمات الرحيل وما يتطلبه من أعباء نقل المهام وتجهيز السفن والاجتماع بعماله المعينين من قبله ثم مسار تلك الرحلة المضنية من إيران إلى ديار مصر العدية .

كان الملك سيف - ذاته - لايزال يضرب أخماسا بأسداس حول مصير ابنه المفقود - دمر على ذلك النحو الغامض الأليم :

- فليته قتل وانتهى أمره مثل من قتلوا من أشجع الرجال والأشبال . . من أولادى .

غمغم لنفسه من كوة قصره العليا مطلا على حركة الاستعداد الواسعة التى شملت منطقة أصفهان بأكملها تمهيدا للرحيل والعودة :

- العودة . أين .

وعرج بنفسه على ميناء بانياس بسوريا الشمالية بأكملها مفتشا مرة أخرى عن ولده ـ دمر وتحرى حقيقة ما حدث له ، ومعرفة مصيره المؤلم هذا خاصة بعد الذى أصاب أمه شامة وانهيارها على هذا النحو المفجع .

حتى إذا ما انتهت مسيرة البحث إلى حيث نقطة بدئها جاءته الإجابة من كل فم وصوب :

ـ لانعلم !

اتخذ الملك التبع طريقه إلى مصر عبر الساحل الفلسطينى ، وكان كلما اقتربت أيام و ساعات الوصول ، يغلبه أكثر التفكير فى زوجته شامة :

ـ كيف ستلتقى بمهردكار ؟

تساءل :

ـ كيف؟

وحين أشرف ركب الملك سيف على مينا «فاروس»

الذى أصبح الاسكندرية فيما بعد ، طالعته المدينة بفناراتها وحصونها وأسوارها، عتيدة باهرة.

وجرت طقوس استقبالات الملك سيف وجنده العائد المظفر بالنصر ، كما لم تجر لملك أو فاتح من قبل :

ـ مرحبا بعودة ابن ذى يزن .

مرحبا بعودة أبو الأمصار .

ووصل انبهار مهردكار من حرارة استقبالات الملك سيف على طول ديار مصر ونيلها على الضفتين إلى حد لم يصدقه عقلها :

ـ يا للروعة .

إلا أن رعبا خفيا كان يسري في بدنها وبخاصة ارتعاش ركبتيها ، حتى لتكاد تسقط

أرضا ،لولا ذراع الملك سيف الحانية التى سارعت إليها تحفظ لها توازنها فى مواجهة الجموع المحبة له وهو العائد بأكاليل النصر . إذ كان يتحرك وسط الناس على هذا النحو الواضح من التواضع وطيبة الخلق والمعاشرة!

ـ أبو الأمصار .

حتى إذا ما حان موعد لقاء الملك سيف بزوجته شامة هبت لاستقباله وهى مهيضة الجناح طريحة الفراش .

ـ شامة حبى . . لم تعد هناك أحزان سننعم بالسلم معاً .

بادرته ملقية بخدها الأحمر على كف يده كمثل حمامة وديعة .

ـ دمر . . ولدى . . أين ؟

أطرق الملك سيف مجيبا :

ـ قطعت الشام بأسرها يا شامة بحثاً عنه قبل وصولى إليك .

ـ ماذا؟

ـ لاأحد يعلم .

امتقع وجه شامة ، مبتلعة صمتها ذاته وتوارت بأفكارها بسرعة عن الملك العائد، نهبا لهواجسها .

وبعد برهة من الزمن قضتها شامة بصحبة الملك ، تملصت رافضة مقابلة ـ الزوجة الجديدة :

ـ مهردكار !

ـ ما أنا سوى مريضة . . تهذى يا سيف

ثم قفلت شامة عائدة إلى بلادها ـ أفراح ـ واكتفت بمراسلة الملك سيف عن بعد .

أما مهردكار فقد واصلت التقرب من الملك سيف ،بعد أن خلا لها الجو «التبيض وتفرخ وحدها»، وكان الملك يعمل جاهدا على تكريمها ،فهى الآن وحيدة ،وأكثر

عزلة .(وهو الذى أكبر فيها مدى ترحيبها بمصاحبته إلى أرض مصر ،فقدمها على الجميع واصطحبها فى حفلاته واستقبالاته بل فى زياراته لجبله المفضل الذى سمى باسمه ـ الجيوشى ـ فهو :

ـ أبو الجيوش .

وعانت مهردكار طويلا من إقدامها على مهمتها التى كان قد ألقاها على كاهلها والدها الملك بهرام :

ـ إما أن تسمميه . . وإما أن أجعلك أنت تتجرعين السم يا مهردكار أينما كنت ، بعد ثمانية أشهر بتمامها منذ اليوم .

حتى إذا ما حل الأسبوع الأخير المحدد لمهمتها الدامية ، وحاولت مهردكار تجرع سمومها ، انفتح باب مخدعها على مصراعيه ودخل الملك سيف .

بادرته من فورها محتضنة :

ـ الليلة موعد مشوارنا البحرى فى ليل النيل الهادىء .

أشارت بذراعها كله إلى حيث يتلوى النهر العميق الأسرار تحت شرفاتها :

ـ تأمل .

ـ حقا يا مهردكار . . هلمى بنا دون تفكير . . هيا . .لنهرب معاً ساعة من الزمن .

حتى اذا ما احتوتها مقصورتها داخل «ذهبية » الملك سيف ، التى انزلقت على صفحة النيل الملساء وعبر أدغاله وزهوره البرية العطرة الحانية ،أشارت مهردكار إلى دغل محدد قريب ، وأومأ لها كبير ربابنة سفينة الملك إلى حيث المرسى المتفق عليه قائلا :

ـ ياللهدوء . العشاء جاهز

وحين أبدى الملك عدم رغبته فى تناول شىء من عشائه وهو يفيق من إغفاءة واهنة داعبت أجفانه :

ـ ليس بى رغبة للطعام . . الليلة .

ـ فقط تلك الكعكة التى تحبها . . أعددتها لك بنفسى .

ضاحكته مقاربة وهى تفرد كفى يديها فى براءة ملقيةبشىء ثقيل فى الماء من جانب السفينة لم يتبينه الملك سيف :

ـ بكلتا يدى هاتين .

ابتسم الملك سيف فى وهن وهى تقدم له طبق الحلوى «المسمومة» آكلا من يدها مستريحا كمن يقاوم نعاسا يسبقه خدر النوم :

ـ استرح . . يامليكى الجميل .

حتى إذا ما استسلم الملك سيف لخدر نعاسه بين يدى مهردكار ، انسلت فى نعومة طاغية هاربة عبر باب جانبى فى غفلةعن البحارة الثلاثة ، واختفت دون أثر فى ظلام ذلك الدغل «الكمين » إلى أن حاوطتها شلة من فرسانها الفرس التابعين لها الذين كمنوا بانتظار تلك اللحظة التى اهتز لها العالمان .

ـ مات الملك سيف بن ذى يزن يا للخيانة !

●●●

روعت ديار مصر على خبر غدر «تلك الجارية الفارسية » بملكهم المحبوب سيف ابن ذى يزن ، وكثرت الأقاويل والآراء والشائعات التى سرت من فم إلى فم على طوال البلاد وعرضها .

ـ تلك الفارسية القاتلة .

ـ أيصل الغدر إلى هذا الحد . وبعدكل ماقدمه الملك سيف لتلك الحية الرقطاء؟

وذهب البعض إلى أن ما حدث للملك سيف الليلة أمر قديم التدبير منذ قبول الفرس وعلى رأسهم والدها للهدنة الأخيرة .

كما ذهب البعض الآخر ، إلى أنها مجردمكيدة نسائية ، برغم هرب الفارسية القاتلة

ووصولها إلى حراسها الكامنين بالأدغال القريبة لشط النيل الذى شهد أبعادًا وخبايا تلك المأساة التى قضى فيها أقرب أقربائه ـ أى النيل ـ سيف بن ذى يزن .

وهكذا روع الجميع فى مصر والشام واليمن وبلاد الشرق وعبادة ، لذلك المصير الفاجع الذى أنهى حياة ذلك الملك المناضل المحب للناس والأحياء سيف اليزن دون أن يتمكن أحد من الإيقاع بالقتلة .

ـ « الخونة . . للعيش والملح» .

ولم يطل الأمر كثيرا بمصر والشام ، حول معرفة حقيقة أبعاد ذلك المخطط إلاعندما حملت الأخبار المتواترة ،عودة مهردكار وحراسها التى عمت بلاد أصفهان ثم أخبار الاحتفالات التى عمت بلاد الفرس ابتهاجا بنجاح المهمة التى نفذتها تلك المرأة الأفعى ـبينما فشلت فى تحقيقها أعتى جيوشهم فى ساحات القتال والمجابهة :

ـ ياللغدر . . ياللدناءة .

بل إن المخطط الفارسى لم يطل مداه إذ سرعان ما تكشف عن نواياه المبيتة ،بعودة جحافل الفرس الغزاة إلى ربوع مصر وبلاد العرب .

حتى إذا ما انتهت مراسم دفن جثمان الملك سيف بمدفنه المقام بجبله الذى شهد تدريبات جيشه والذى دعى باسمه «جبل الجيوشى » المتاخم للمقطم تعاهد فرسانه وكبار قادته على العمل بوصيته فى التصدى للفرس وأطماعهم مهما طال الأمد .

فما أن ضرب أربعةمن ملوك الفرس وأمرائه المتحالفين حصارهم على ديار مصر حتى تصدى لهم أمير دمياط ،والقائد الوحيد الذى كان مقربا من الملك سيف والمدعو «دمنهور الوحشى» .

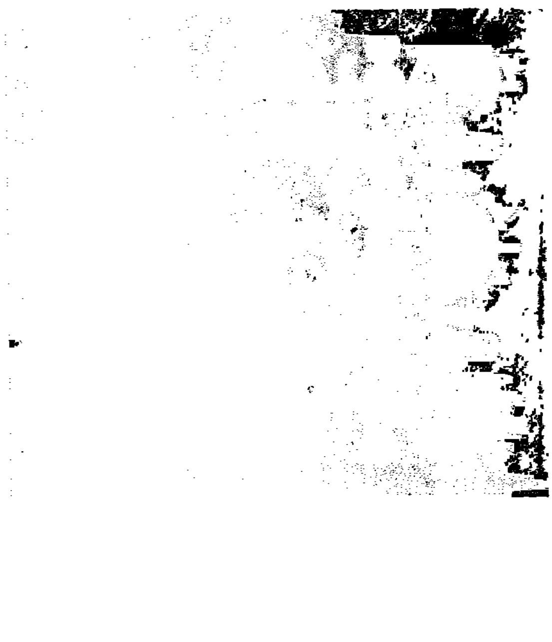
إلا أن سطوة الفرس وعتادهم هذه المرة بعد غياب الملك سيف حقق لهم الانتصار بدخول مصر وتخريب حصونها وتشتيت بقايافلول جيش الملك سيف .

إلى أن هرع لنجدتهم «أسيوط ملك إيليا وفلسطين فشدد من ساعد المقاومة الشعبية التى نمت ضد الفرس ، خاصة عقب محاولةنهب مدفن ملكها الراحل سيف ذى يزن بجبل الجيوشى .

هنا استشاطت مصر غضبا من مدى الحقد المبيت للملك التبع حتى بعدما نفذوا فيه مكيدتهم الغادرة التى اضطلعت بها تلك الفارسية الشريرة :

ـ مهردكار .

إلى أن فجر ذلك الغضب الشعبى ثورته ضد أولئك الفرس . . ناهشى جثث الموتى قبل الأحياء على طول مصر ، التى أصبحت نهبا لمطامعهم ، بينما كانت تعانى بلاد الشام وفلسطين بدورها أبعاد تلك الحرب الانتقامية القبائلية التى عرفت بحرب البسوس التى قادها ذلك الشاعر المحارب الزير سالم والتى استمرت ٤١ عاما ●



# الفهـــــرس

● **مقدمة الجزء الأول**

# سيرة الملوك التباعنة

الاستاذ شوقى عبد الحكيم كاتب مسرحى وروائى وباحث فى حقل الفولكلور والإثنوجرافيا وله فى هذا المجال مؤلفات شهيرة معروفة فى مصر وفى كافة أرجاء الوطن العربى . . وكتب مجموعة كبيرة من الروايات الأدبية والمسرحيات وقد تم تكريم الاستاذ شوقى عبد الحكيم ككاتب مسرحى مرموق فى مهرجان المسرح التجريبى الدولى الخامس الذى عقد بالقاهرة فى سبتمبر ١٩٩٣ .

ويتضمن هذا الكتاب الفريد تاريخ وحضارة قبائل جنوب الجزيرة العربية الذين عاشوا فى قديم الزمان فى اليمن ودول الخليج وعدن وحضرموت وسبأ وذى نسور .

وقد أجمل المؤلف معالم ذلك التاريخ القديم وتلك الحضارة الغابرة فى مجموعة من سير « الملوك التباعنة » الذين جابوا ربوع الشرق الأقصى وأواسط آسيا حتى وصلت جحافلهم إلى تخوم الصين ، وهم الذين أوصلوا التعريب إلى مختلف مناحى قارة آسيا بما فى ذلك شبه القارة الهندية ، وأفغانستان ، وباكستان ، وتركستان ، وأذربيجان ، وبلوخستان ، وكافة الكيانات الإسلامية الأخرى التى تنتهى بما هو متعارف عليه الآن بكلمة « ستان » داخل دول وجمهوريات الاتحاد السوفيتى القديم .

ومن أشهر مَنْ جاء ذكرهم فى هذا الكتاب من ملوك وملكات التباعنة : « بلقيس » ملكة سبأ . . و « تدمر » إبنة حسان اليمانى . . و « زانوبيا » التى قاومت الامبراطورية الرومانية . . و « الملك أسعد اليمانى » . . وإبنه « حسان اليمانى » . . و « الملك ذو اليزن » . . وإبنه « الملك سيف بن ذى يزن » اللذان لعبا الدور الأكبر فى التعريب داخل القارة الأفريقية بدءاً بالقرن الأفريقى وأثيوبيا والسودان ومصر وبقية ربوع القارة الأفريقية بشكل عام .

ويتميز هذا الكتاب بأسلوبه الدقيق واعتماده على الوثائق المخطوطة التى عثر عليها المؤلف فى مكتبة المتحف البريطانى بلندن ، والتى تتضمن هذه السيرة الملحمية الكبرى للملوك التباعنة ، التى تحكى تاريخ وأمجاد وحضارة العرب القدماء.

« الناشر »

الرسوم : للفنان خميس

الدار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الخالق ثروت ـ تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥
٣٩٣٦٧٤٣ ـ فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ ص . ب ٢٠٢٢ ـ برقيا دار شادو ـ القاهرة